
قصة
حياتي
الحقيقية
هانس كريستيان آندرسن
مؤلف أشهر الحكايات الخيالية العالمية
"بائعة الكبريت"، "عقلة الإصبع"، "البطة القبيحة"،
"الحذاء الأحمر"، "الأميرة وحبة البازلاء"
مكتبة
Telegram Network

«مكتبة ♔ النخبة»

مذكرات الكاتب والشاعر العالمي الشهير،

وأبرز رواد أدب الطفل في العالم

هانس كريستيان أندرسون

ترجمة
أميرة الوصيف



شركة رف للنشر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

قصة حياتي الحقيقية

مذكرات الكاتب والشاعر العالمي الشهير، وأبرز رواد أدب الطفل في العالم

هانس كريستيان أندرسون

ردمك: 978-603-92018-3-0

رقم الإيداع:4435 / 1444

الطبعة الأولى 2022

المترجم: أميرة الوصيف

11583- الرياض، المملكة العربية السعودية

تلفون: 966112128000+

email: contact@raffpublishing.com website: www.raffpublishing.com



الفهرس

«إذا أردتم معرفة قصة حياتي فعليكم بقراءة حكاية فرخ البط القبيح».

هانس كريستيان أندرسون

«تشبه قصة حياة هانس كريستيان أندرسون حكاياته الخيالية».

النيويورك تايمز

الفصل الأول

أستطيع القول إن قصة حياتي الحقيقية قصةٌ جميلةٌ سعيدةٌ تملؤها الأحداث والوقائع، ولو أنني التقيت بجنية طيبة في بداية حياتي الفقيرة الخالية من الأصدقاء، وقالت لي «اختر طريقك في الحياة وهدفك الذي تسعى له، وعندما تكبر، مع الأخذ بالأسباب، سأساعدك للوصول لغايتك»، لما كان ذلك ليوجه حياتي لجعلها أفضل وأكثر سعادة وحكمة. ستكشف قصة حياتي للناس ما كشفته لي، أن هنالك ربا رحيمًا يوجه كل شيء للأفضل.

إن الدنمارك موطني، وهي أرضٌ شاعرية غنية بالحكايات والتقاليد الشعبية، والأغنيات القديمة، والتاريخ الحافل بالأحداث، ويربطها ارتباط وثيق بتاريخ دولتي السويد والنرويج. تتصف السواحل الدنماركية بوفرة أشجار الزان وحقول الذرة والهندباء، وتشبه الحدائق بشكل كبير. إحدى تلك الجزر الخضراء هي جزيرة «فينن»، وبها مدينة أودنسه، مسقط رأسي، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الإله «أودين»، الذي عاش هنا بحسب ما هو متعارف عليه في تراثنا. وتعد المدينة عاصمةً للمقاطعة، وتبعد 22 ميلًا عن كوبنهاجن.

في عام 1805 عاش زوجان محبان لبعضهما في غرفةٍ بسيطةٍ. كان الزوج شاباً في الثانية والعشرين من عمره ويعمل صانع أحذية، كان موهوباً ذا عقلية شاعرية مرهفة. أما زوجته فكانت تكبره بعدة أعوام، وكانت امرأة لا خبرة لها بالحياة ولا بالعالم، إلا أنها امتلكت قلباً يملؤه الحب. صنع الزوج مقعداً خاصاً بحرفته في صناعة الأحذية، وصنع أيضاً سريراً لعائلته. صنع ذلك السرير من خشب تابوت الكونت ترامب، حيث كانت جثته ترقد عليه سابقاً، وكانت بقايا القماش الأسود الموجودة على الإطار الخشبي شاهدة على ذلك.

فبدلاً من أن ترقد على ذلك الفراش جثة أحد النبلاء المحاطة بالشموع والمصابيح، ولدت أنا على ذلك الفراش في الثاني من نيسان عام 1805 واسمي هو هانس كريستيان آندرسن. قيل إن والدي جلس إلى جوار فراشي في يوم ولادتي، وقرأ لي بصوت مرتفع من قصائد الشاعر هولبرغ، لكنني استمررت بالبكاء. مازحني والدي حينها: «هل ستخلد للنوم أو تستمع لي

بهدوء؟»، لكنني لم أتوقف عن البكاء. وحتى حين أخذوني إلى الكنيسة لتعميدي بكيت بصوت مرتفع جداً لدرجة أن القس، وهو رجل عطوف، قال «إن هذا الطفل يصرخ كقطة!». لم تنس أمي تلك الكلمات، وحاول السيد جومار مواساتها، وهو رجل مهاجر فقير وبمثابة أبي الروحي، فقال: «كلما بكى الطفل بصوتٍ أعلى في مهده، كان غناؤه بديعاً عندما يكبر».

ضاقت غرفتنا الصغيرة بمقعد صناعة الأحذية والفراش الخشبي ومهدي الصغير. كانت الصور تغطي الجدران، وفوق مقعد العمل توجد خزانة ممتلئة بالكتب والأغنيات. أما مطبخنا الصغير فتكدست فيه الأطباق والأواني، وكان فيه سلم يؤدي إلى السطح، حيث المزاريب التي تفصل بيننا وبين منزل الجيران، وفيه أيضاً صندوق مليء بالتراب، كان بمثابة حديقة أمي الوحيدة، حيث زرعت خضراواتها. وكنت قد أشرت في قصتي «ملكة الثلج» إلى أن تلك الحديقة ما زالت مزهرة.

كنت طفلاً وحيداً مدللاً، وكانت أمي تخبرني دوماً أنني كنت أكثر سعادة منها عندما كانت طفلة في نفس عمري، وأنني ترعرعت ونشأت كأحد أطفال النبلاء. كان هذا عكس طفولتها، حيث إن والديها قاما بطردها من المنزل حتى تقوم بأعمال التسول، وذات مرةٍ لم تستطع القيام بذلك؛ فقضت يوماً كاملاً أسفل الجسر تبكي. لقد استوحيت من شخصية أمي في أعمالي الأدبية شخصية دومينيكا العجوز في «المرتجل»، وشخصية والدة كريستيان في «مجرد عازف كمان».

حاول والدي إسعادي بكل الطرق، فقد امتلكت قلبه، وعاش حياته من أجلي. وفي يوم الأحد من كل أسبوع، كان يصنع لي عدسات مكبرة وعرائس مسرحية وكذلك الصور التي يمكنني تغييرها -خدعٍ بصرية-، وكان يقرأ لي مسرحيات هولبرغ الشعرية وكتاب ألف ليلة وليلة، ولم أره سعيداً أبداً إلا في تلك اللحظاتٍ، فلم يكن أبي سعيداً في حياته الشخصية ولا في مهنته. كان والداه قرويين، وبرغم كونهما ميسوري الحال في بادئ الأمر إلا أن المصائب قد توالت فوق رأسيهما لاحقاً، إذ بدأت بموت مواشيهما وأبقارهما، والحريق الذي نشب في مزرعتهما، وفي نهاية المطاف فقد الزوج عقله، وانتقلت امرأته برفقته إلى أودنسه، وفي المدينة تدرب ابنهما المتقد الذكاء على صناعة الأحذية، وكان من الصعب أن تكون هناك نتيجة مغايرة لما حدث، على الرغم من أن الفتى كان يرغب بشدة في الالتحاق بالمدرسة النحوية حيث كان سيتعلم اللغة اللاتينية هناك. عرض عدد من المواطنين الأثرياء في ذلك الوقت أن يتشاركوا معاً من أجل مصاريف سكنه وتعليمه، مما أشعل شرارة الحماس في نفسه، إلا أن الأمر لم يتجاوز أبداً حدود الكلمات! أيقن والدي

العزيز حينها أن أمنيته لن تتحقق، ولكنه لم يفقد ذكرياتها يوماً. مازلت أتذكر أنني رأيت الدموع في عينيه ذات مرة عندما كنت طفلاً صغيراً، حين جاءنا شاب يدرس في المدرسة النحوية للحصول على مقاسات حذائه الجديد، واستعرض لنا كتبه وأخبرنا بما تعلمه، وحينها قبلني أبي وقال: «هذا هو الطريق الذي كان يتوجب علي اتباعه!» وبعد أن قال أبي تلك العبارة ظل صامتاً طيلة المساء.

نادراً ما كان والدي يلتقي بأصدقائه، وكان يحرص على الخروج إلى الغابات أيام الأحد من كل أسبوع، وعندما كان يأخذني برفقته لم يكن يتحدث كثيراً، كان يجلس في صمتٍ عميق غارقاً في أفكاره الخاصة، بينما كنت أنا أركض هنا وهناك، وأقوم بجمع ثمار الفراولة وربطها في أعواد القش أو على هيئة أكاليل مربوطة بإحكام، وكانت أمي تأتي معنا مرتين في السنة فقط، عندما يكسي اللون الأخضر الغابات في شهر أيار، مرتديةً حينها ثوبها القطني، الذي تفضل الظهور به في تلك المناسبات، ومرةً حين تشارك في مأدبة «العشاء الأخير»، مرتديةً ذلك الثوب الذي اختارته دائمًا للعطلات، وكانت دائمًا تأخذ معها العديد من أغصان أشجار الزان اللامعة المتألقة خلال عودتنا إلى المنزل لتزرعها خلف الأحجار المصقولة. وتزامناً مع موعد ظهور نبتة القديس يوحنا، كنا نذهب لتأمل تلك النباتات التي تنعكس عليها أشعة الشمس، نتأملها كبشارة تخبرنا إن كانت أعمارنا طويلة أم قصيرة! كانت تزين الأغصان الخضراء والصور غرفتنا الصغيرة، ولطالما بذلت أمي قصارى جهدها من أجل إبقائها نظيفة ومرتبة، كما أنها كانت تتباهى دوماً بنصاعة بياض ستائر الغرفة وأغطية الفراش.

اعتادت جدتي على زيارة منزلنا بشكل يومي لرؤية حفيدها الصغير، فكنت أنا مصدر سعادتها وبهجتها في ذلك الحين، وكانت جدتي أكثر امرأة عجوز ودودة على الإطلاق. مازلت أذكر عينيها الزرقاوين، وهيأتها الرائعة التي ظلت على حالها تلك، رغم تقلبات الظروف الحياتية التي مرت بها، حيث تحولت من زوجة رجل ريفي ميسور الحال إلى امرأة تعيش في فقر مدقع في أحد المنازل البسيطة المتواضعة برفقة زوجها الخرف، وقد كان منزلهما الصغير المتهالك ذاك آخر ما تبقى من ممتلكاتهما. وبرغم أنها لم تذرف دمعةً واحدة من قبل؛ إلا أنها تركت أثراً عظيماً في نفسي عندما كانت تتنهد بعمق وتبدأ في التحدث عن جدتها الثرية، إحدى السيدات النبيلات في مدينة كاسل، التي تزوجت من ممثل مسرحي كوميدي، وهربت من منزل أهلها، لتحل عليها لاحقاً لعنة الفقر فتكون عقاباً لذريتها وتكفيراً لذنبها. لا أذكر يومًا أنني سمعتها تشير إلى اسم عائلة جدتها، إلا أنني أعرف أن اسم جدتي العائلي قبل الزواج هو نوميسن. لقد تم توظيفها للاعتناء بأعمال الحديقة التابعة لمستشفى الأمراض

العقلية، وكانت جدتي تحضر لنا بعض الأزهار كل ليلة أحد بعد أن تحصل على إذن تلك المؤسسة باصطحابها إلى المنزل. رغم أن تلك الأزهار قد زينت خزانة ملابس أمي إلا أنها لا تزال ملكي! فقد كان مسموحاً لي أن أضعها في كأس زجاجي من الماء. كانت متعة عظيمة! أحضرت كل تلك الأزهار خصيصًا من أجلي! أحبتني من كل أعماق قلبها وروحها، فأنا أعرف ذلك جيداً.

كانت جدتي تقوم بحرق قمامة الحديقة ونفايات العشب مرتين في العام، وفي تلك المناسبات، كنت أذهب برفقتها إلى المصحة العقلية وأستلقي فوق أعواد القش المكدسة وأكوام الأوراق الخضراء والبازلاء، وألهو بالمزيد من الأزهار، وأضمن في ذلك اليوم تناول طعام أشهى من ذلك الطعام الذي أتوقع تناوله في المنزل. كان مرضى المصح غير مؤذين على الإطلاق، فقد سمح لهم بالتجول بحرية في باحة المشفى الواسعة، وفي كثير من الأحيان كانوا يأتون إلى تلك الحديقة، حيث كنا نجلس، وكنت أستمع إلى أحاديثهم بفضول وهلع، كما أني كنت أتبعهم، وأغامر بالذهاب مع المرافقين إلى غرف المرضى الذين قد وصل جنونهم إلى حد الهذيان.

كان هناك ممر طويل يؤدي إلى عنابرهم، وفي إحدى المرات، حين لم يكن هناك أحدٌ من المرافقين، ذهبت بمفردي واستلقيت على الأرض، وحاولت اختلاس النظر عبر شقوق باب أحد تلك العنابر. رأيت في الداخل امرأة شبه عارية ترقد مستلقية على فراش مصنوع من القش، وكانت خصلات شعرها تنسدل على كتفيها، وتغني بصوت جميل، وفجأة قفزت من مكانها وألقت بنفسها في اتجاه الباب الذي كنت أتمدد أمامه. انفتح الصمام الذي كانت تتلقى الطعام من خلاله بغتة، وإذا بتلك السيدة تحدق في وجهي من قرب، وتمد ذراعها الطويل نحوي، صرخت في هلع وشعرت بأطراف أصابعها تلمس ثيابي. كنت على مشارف الموت حين وصل المرافق، وما زلت حتى الآن أشعر بأن ذلك المشهد الذي وقع في الماضي لم يفارقني، وأنه ترك بصمته في روحي.

بالقرب من ذلك المكان، الذي كان يشهد حرق أوراق الشجر، كانت النساء العجائز الفقيرات يمكثن في غرفة غزل عتيقة، اعتدت الذهاب إليها حتى باتت مكاني المفضل على الإطلاق، وعثرت على نفسي بين هؤلاء الناس، وعندما كنت ألتقيهم كانت تتملكني بلاغة عظيمة تملؤهم بالذهول.

سمعت مصادفةً عن الآلية الداخلية للهيكل البشري، وبالطبع لم أفهم ذلك، ولكن كانت تلك الألغاز التي لم أفهم معانيها في صغري تأسرني حقاً، وقد

قمت يوماً برسم صورة تعبيرية للأحشاء على الباب بالطبشور، وكان رسمي وتصوري للقلب والرئتين موفقاً.

كان يعتقد بأني الطفل الذكي الذي لن يعيش طويلاً، وقد كافأ الجميع فصاحتي وبلاغتي بسرد المزيد من القصص والحكايات، ونتج عن ذلك خلق عالم غني مثل حكايات ألف ليلة وليلة، فكان لتلك القصص والحكايات التي سردتها النساء العجائز، وكذلك المجانين الذين رأيتهم في المصحة العقلية، حيث تعمل جدتي، كان لكل تلك الأشياء والتفاصيل تأثير قوي علي، حتى إنني لم أكن أجرؤ على الخروج من المنزل عندما يشتد الظلام، ولكن كان مسموحاً لي بالمكوث في فراش والدي وقت الغروب على وجه التحديد؛ لأنه ليس من المناسب لبيتنا الصغير أن أستخدم سريري المطوي داخل خزانة عند الغروب. وهناك، في فراش والدي، كنت أقضي ليلتي بأكملها مفتوح العينين وكأنني في حلم يقظة، كما لو كان ذلك العالم الواقعي لا يخصني.

كنت خائفاً جداً من جدي المريض، الذي لم يتحدث معي في حياته كلها سوى مرة واحدة، وكان خلالها يحدثني بشكل رسمي، ويناديني بضمير المخاطب «أنت». شغل نفسه بصناعة أشكال غريبة من الأخشاب، وكان بعضها يشبه رؤوس الوحوش، بينما كان البعض الآخر يشبه أجنحة الكائنات الخرافية. تلك الأشكال الخشبية التي كان يحزمها ويضعها داخل إحدى السلال، كان يحملها ويأخذها بعيداً إلى الريف، حيث كانت الفلاحات تستقبلنه استقبالا حاراً لأنه كان يجلب لهن ولأطفالهن تلك الدمى الخشبية، وفي أحد الأيام، بينما كان جدي عائداً إلى أودنسه، سمعت الأولاد يركضون في الشوارع ويصرخون خلفه، وحينها اختبأت على الفور خلف الدرج في هلع؛ لأنني كنت أعلم أنني من لحمه ودمه.

لقد لعبت تلك الظروف المحيطة بي دوراً بارزاً في إثارة مخيلتي وتغذيتها، فلم تعرف مدينة أودنسه نفسها في تلك الأيام وجود سفينة بخارية واحدة، وكذلك كان التواصل بين البلدان والمدن نادراً جداً، لقد كانت مدينتي مختلفة كلياً عن تلك المدينة الموجودة الآن. قد يظن المرء أنه عاش قبل مئات السنوات بسبب تنوع وتعدد العادات والتقاليد السائدة آنذاك، والتي تنتمي إلى عصرٍ ماضٍ، حيث كان يقوم أفراد الجمعيات والرابطات بالمسيرات برفقة المهرجين ممسكين بالصولجان والأجراس، كما يقود الجزارون في يوم «ثلاثاء المرافع» ثوراً بديناً عبر الشوارع، يضعون حول عنقه الأكاليل، ويمتطيه صبي يرتدي قميصاً أبيض ويضع جناحين كبيرين بين كتفيه، بينما يقوم البحارة باستعراضٍ موسيقي وأعلامهم تتطاير فوقهم، ثم يتصارع أجرأ اثنين بينهم

ليسقط أحدهم في الماء من فوق لوحٍ خشبي مثبتٌ بين مركبين وينتظر من يبقى واقفاً أخيراً.

لكن ما أثار إعجابي وترك بصمةً في ذاكرتي هي مساكن الإسبان التي كنت أتأمل واجهاتها في مدينة فين عام 1808، ورغم أنني كنت في الثالثة من عمري فقط إلا أنني ما زلت أتذكر جيداً أولئك الأشخاص الأجانب ذوي البشرة البنية الذين أثاروا الشغب وأطلقوا المدافع في الشوارع.

رأيت أولئك الذين كانوا يرقدون في كنيسة متداعية بجوار المصحة العقلية. مازلت أذكر المرة التي أخذني جندي إسباني بين يديه وضمني باتجاه درعٍ فضي يرتديه على صدره منقوش عليه صورة، وما زلت أتذكر كيف كانت أمي غاضبة لتصرفه معي على هذا النحو، حيث قالت لي إن ما فعله يشبه طقوس التعميد الكاثوليكية، ولكن ذلك الرجل الغريب الأجنبي وتلك الصورة على درعه وكذلك رقصه معي وتقبيله لي وبكاءه المباغت لم يجعلني أشعر أبداً أن هناك خطبًا ما، بل على النقيض؛ أبهجني وأسعدني كل ذلك. من المؤكد أن الرجل كان لديه أطفال مثلي في دياره.

رأيت أحد رفاقه يمشي بخطًى ثابتة متحجرة إلى غرفة الإعدام ليقوم بقتل رجل فرنسي. بعدها بسنوات عديدة اعتمدت على تلك الحادثة لكتابة قصيدتي القصيرة المعنونة باسم «الجندي»، والتي ترجمها كاميسو إلى الألمانية، وأدرجت لاحقاً في كتاب شعبي مصور تحت عنوان «أغنيات الجنود».

يمكنني القول إنه نادراً جداً ما كنت ألعب مع الأولاد الآخرين، حتى خلال وجودي في المدرسة، فلم يكن لدي اهتمام كبير بألعابهم تلك، كنت أفضل البقاء في المنزل، حيث كان لدي الكثير من الدمى والألعاب، والتي صنعها أبي من أجلي، وكانت بهجتي الكبرى تتمثل في صناعة الملابس لهذه الدمى، أو أن أقوم بإطالة ومد أحد مآزر أمي بين الحائط وأعواد العصا أمام شجيرة المشمش التي قمت بزراعتها في الفناء، وبالتالي كنت أطيل النظر بين تلك الأوراق الخضراء التي تنيرها الشمس.

كنت طفلاً استثنائياً حالماً، واعتدت أن أمشي دائماً مغمض العينين لأعطي انطباعاً بضعف بصري، رغم أن حاسة البصر كانت قوية لدي. في بعض الأحيان خلال موسم الحصاد، كانت أمي تذهب إلى الحقل من أجل جمع المحصول، وكنت أرافقها في ذلك الوقت. اعتدنا الذهاب معاً؛ تماماً كما في قصة راعوث في الكتاب المقدس حين كانت تقوم بجمع المحصول من حقول بوعز الغنية. وفي يومٍ من الأيام، ذهبنا إلى أحد تلك الحقول التي كان مأمورها رجلاً معروفاً

بقسوته ووقاحته وهمجيته، وبمجرد وصولنا إلى تلك الأرض، وجدناه قادماً نحونا وفي يده سوط ضخم مرعب، وحينها على الفور ركضت أمي برفقة الأخريات، وكنت في ذلك الوقت أرتدي حذائي الخشبي، ولأني كنت في عجلة من أمري، فقدت حذائي ومشيت حافياً، ووخزتني بعض الأشواك وسببت لي ألماً شديداً منعني من مواصلة السير، لأترك وحدي. في ذلك الوقت اقترب مني المأمور ورفع سوطه الضخم متأهباً لضربي، وحينها نظرت إليه وقلت له بطريقة تلقائية: «كيف تجرؤ على ضربي؟ ألا تعرف أن الرب يراك؟». نظر إلّي ذلك الرجل القوي الصارم في دهشة، وسرعان ما تحول إلى رجل لطيف واقترب مني وبدأ في مداعبة وجنتي ثم سألني عن اسمي وأعطاني بعض المال.

عندما أحضرت ذلك المال لأمي اندهشت وقالت للآخرين: «إن طفلي هانس كريستيان طفل غريبٌ حقاً! فالجميع يتصرفون معه بود، حتى ذلك المأمور السيئ ها هو قد أعطاه بعض المال!».

لقد نشأت تقياً مؤمناً بالخرافات، ولم يكن لدي أي فكرة عن الرغبة أو الحاجة. وعلى الرغم من أنه لم يكن لدى والدي الكثير، وعاشا كل يومٍ بيومه، إلا أنه كان لدي فائضٌ في كل شيء. قامت امرأة عجوز يوماً بحياكة ملابس والدي لتصبح على مقاسي. كنت أذهب مع والدي بين الحين والآخر إلى المسرح لمشاهدة العروض الأولى التي كانت تقدم باللغة الألمانية، مازلت أذكر أن المسرحية المفضلة لنا جميعًا هي «أنثى الدانوب»، ولسنا نحن فحسب، بل كان العمل الأكثر شعبية في المدينة بأكملها. شاهدت أيضاً مسرحية «قرية الساسة» لهولبرغ والتي تم تقديمها كعرض أوبرا.

لم يتسبب الانطباع الذي تركه المسرح في نفسي، ورؤية كل ذلك الكم من الجماهير المزدحمة بإيقاظ أي إحساس شعري بداخلي. جعلتني رؤية ذلك الكم من البشر أهتف: «ماذا لو تخيلنا وجود براميل من الزبدة بعدد هؤلاء الناس الموجودين في المسرح! يمكنني حينها حقاً تناول المزيد والمزيد من الزبدة الشهية!».

أصبح المسرح شيئًا فشيئاً مكاني المفضل على الإطلاق، رغم أني نادراً ما استطعت الذهاب إليه، ولكن تمكنت لاحقاً من إقامة علاقة صداقة مع موظف شباك التذاكر هناك، وكان يمنحني تذكرة كل يوم، وبات بمقدوري أن أجلس في إحدى الزوايا وأنا أتخيل صورة المسرحية بأكملها، فحاولت تخمين اسم

العمل المسرحي والشخصيات الموجودة فيه، وهكذا بدأت الشاعرية تتسلل إلى نفسي من دون أن أدري.

كانت قراءة القصص والمسرحيات هي المفضلة عند أبي، كان يقرأ التاريخ والنصوص المقدسة بنهم أيضاً، وكان يغرق صامتاً في أفكاره الخاصة ليتأمل ويفكر جيداً في كل ما قرأه، حتى أنه في بعض الأحيان كان يناقش أمي في قراءاته تلك إلا أنها لم تكن قادرة على فهم واستيعاب ما يقوله، ولهذا زاد صمته أكثر. وذات مرة أغلق الكتاب المقدس وهو يتمتم «لقد كان المسيح رجلاً مثلنا جميعًا لكنه كان رجلاً استثنائياً فقط!».

أصابت تلك الكلمات أمي بالهلع وجعلتها تجهش بالبكاء. وفي ضيقي وكربي كنت أدعو الرب دائماً أن يسامح أبي علي فكرته تلك، التي تحمل طعناً وتشكيكاً في الدين، كما أني سمعته يوماً يقول: «لا وجود مادي للشيطان إلا هذا الذي يمكث في قلوبنا نحن». زادني هذا بؤساً وحزناً على أبي، فقد كنت حينها مؤيداً تماماً لرأي أمي وجيرانها عندما عثر أبي ذات صباح على ثلاثة خدوش على ذراعه، والتي قد يكون سببها احتكاك ذراعه بمسمار، لكن اعتقادهم كان أن الشيطان جاء لزيارة أبي ذلك المساء ليثبت له أنه موجود حقاً!

في تلك الأثناء بدأ أبي يتجول في الغابات بشكل متكرر. لم يحظ بأية راحة أبداً، فقد كان عقله مشغولاً على الدوام بأحداث تلك الحرب الدائرة في ألمانيا، وكان يقرأ بشغف وفضول كل الأخبار المتعلقة بها طوال الوقت. كان نابليون بطله، ورأى في رحلة صعوده المبهمة مثالاً بالنسبة له. وفي تلك الأثناء أيضاً كانت الدنمارك متحالفة مع فرنسا، ولم يكن لدينا أي حديث آخر سوى الحرب. التحق والدي بالخدمة العسكرية كجندي على أمل أن يعود للديار برتبة ملازم، بكت والدتي، أما الجيران فكانوا لامبالين وقالوا إنه لمن الحماقة أن يذهب أحدهم للإلقاء بنفسه في ويلات تلك الحرب ويلقى حتفه من دون سبب.

في صباح ذلك اليوم، الذي كان من المفترض أن ينضم فيه والدي لسلاح المشاة، كان يتحدث ويغني بابتهاج، إلا أني رغم ذلك شعرت بمدى اضطراب قلبه ورجفته. لقد أدركت ذلك عاطفياً من خلال الطريقة التي قبلني بها قبل أن يغادر.

عانيت من مرض الحصبة، وكنت بمفردي في غرفتي. كرهت لحظة قرع الطبول، ذهبت أمي مودعة أبي بينما انهمرت دموعها على وجهها وهي ترافقه

إلى بوابة المدينة، وبمجرد أن غادرت أمي، جاءت جدتي ونظرت إلي بعيون هادئة وقالت: لو أني مت يا عزيزي لكان ذلك أفضل، ولكن إرادة الرب هي الأفضل دائماً.

كان هذا هو اليوم الأول لحزني ومأساتي الحقيقية.

لم تتقدم الكتيبة العسكرية أبعد من منطقة هولشتاين الدنماركية، حيث تم التوصل إلى السلام، وعاد الجندي المتطوع إلى مقعد عمله. عاد كل شيء إلى سابق عهده، وعدت مجدداً للعب بالدمى، وعكفت على القيام بالعروض المسرحية الهزلية، والتي كنت أقوم بتأديتها باللغة الألمانية، لأني لم أستمع إليها وأشاهدها إلا بتلك اللغة فقط، ولكن لغتي الألمانية كانت أشبه بالثرثرة وترديد الكلام غير المفهوم. يمكنني القول إنها كانت لغة من ابتكاري، ولم تكن تشتمل على أي كلمة حقيقية باللغة الألمانية سوى كلمة «مكنسة»، تلك الكلمة التي التقطتها من القاموس الألماني الذي أحضره والدي معه بعد عودته من هولشتاين.

قال أبي مازحاً: «أنت من استفدت من رحلاتي فعلاً! فالرب وحده يعلم إن كنت ستقوم بذلك النوع من الرحلات، وإن كنت سوف تسافر أبعد من ذلك، لكن يجب أن تفكر في الأمر جيداً يا هانس كريستيان!».

ولكن نية أمي لم تكن تتمثل في تحقيق تلك الأمنية، فقد كانت تؤمن أنه يتوجب عليّ المكوث داخل المنزل كي لا أدمر صحتي وأخسرها كما فعل أبي. كان وضع أبي حرجاً، وقد عانى طويلاً من عدة مشكلات صحية، وذات نهار استيقظ في حالة من الحماس المريبة الشديدة وأخذ يتحدث عن نابليون وحملاته العسكرية، وتوهم بأنه قد تلقى أوامر منه ليتولى زمام القيادة من بعده! حينها، وبدلاً من أن ترسلني أمي على الفور لاستدعاء الطبيب؛ أرسلتني إلى امرأة يقولون إنها «سيدة واعظة حكيمة»، وكان منزلها يبعد عدة أميال عن مدينة أودنسه.

ذهبت إليها وأخذت تلك المرأة تستجوبني لبعض الوقت، ثم قامت بقياس ذراعي بخيط من الصوف، ولوحت بعدة حركاتٍ عجيبة، وفي نهاية المطاف قامت بوضع غصنً أخضر فوق صدري، وقالت لي إن تلك القطعة قد قطعت من نفس نوع الشجرة التي صلب عليها المخلص يسوع، وقالت لي:

«اذهب الآن على الفور وامض باتجاه جانب النهر حتى تصل إلى منزلك، وإذا مات أبوك هذه المرة فسوف تلتقي شبحه خلال طريقك».

لا يمكنني حقاً وصف ضيقي وقلقي حينها، لقد كنت شخصاً مليئاً بالخرافات والشعوذة، وكانت تلك الأمور تثير مخيلتي بسهولة شديدة، وبمجرد وصولي إلى المنزل سألتني أمي: «وهل التقيت ذلك الشبح؟»، أكدت لها بأنفاس لاهثة، حيث كانت ضربات قلبي تتسارع، أنني لم ألتق أحدًا.

مات أبي في اليوم الثالث، وكانت جثته ترقد على الفراش، لذا نمت في تلك الليلة مع أمي وصوت صرصار الليل مستمر طوال الليل.

«مات والدك! لا داعي الآن لمناداته مرة أخرى! فقد استحوذت عليه ملكة الثلج العذراء الآن». فهمت ما كانت أمي تعنيه بتلك الكلمات، وتذكرت ما حدث في الشتاء السابق عندما تجمدت ألواح نوافذنا من شدة البرودة. حينها أشار والدي ناحية امرأة تبدو كحورية الثلج ذات أذرع ممدودة وقال مازحاً: «إنها قادمة من أجلي!» والآن بعد أن رقد ميتاً على فراشه ذكرتني أمي بذلك الموقف الذي شغل فكري أنا الآخر.

دفن والدي في باحة كنيسة القديس كنود باتجاه الباب الواقع في الجهة اليمنى القريبة من مذبح الكنيسة، وقامت جدتي بزراعة الأزهار فوق قبره. يوجد الآن في نفس المكان قبران آخران لشخصين غريبين بجوار قبر أبي، وقد نما العشب الأخضر فوقهما أيضاً.

كنت وحيداً جداً بعد وفاة والدي، فقد خرجت أمي إلى عملها في غسل الثياب، بينما جلست برفقة مسرحي الصغير لأقوم بصناعة ملابس الدمى وأقرأ المسرحيات. قيل لي بعد ذلك أنني كنت نظيفاً ومتأنقاً على الدوام. وبعد ذلك كبرت قليلاً وازداد طولي، وأصبح شعري أشقر وطويلاً ولامعاً، وكنت أتجول في الخارج دون قبعة.

كانت أرملة أحد القساوسة تسكن في الحي الذي نعيش فيه، وتدعى مدام بنكيفلود، حيث عاشت برفقة أخت زوجها المتوفى. كانت تفتح لي تلك السيدة الطيبة منزلها على الدوام، وكان هذا أول منزل ينتمي إلى الطبقة المتعلمة أدخله في حياتي. وهناك استقبلتني مدام بنكيفلود بكل حفاوة، وعرفت أن زوجها القس الراحل قد قام بكتابة عدد كبير من القصائد الشعرية المهمة، وأنه اكتسب سمعة جيدة في مجال الأدب الدنماركي، وقد ترددت أغنياته الشاعرية على ألسنة الناس، حتى إنني اكتشفت أنني كنت أردد أغانيه على

الدوام عندما قرأت اسمه ضمن قائمة الشعراء الدنماركيين، وكنت أتذكر كلمات أغنياته التي نسيها أقراني وزملائي.

تصدح أصوات المغازل،

والعجلات تدور

تغادر أغنيات الغزل،

وسرعان ما تصبح أغنيات الشباب

موسيقى القلب التي لا تزول.

كانت تلك أول مرة أسمع فيها كلمة «شاعر»، قيلت بوقارٍ شديد؛ مما يثبت جلال الوصف. صحيح أن والدي قرأ لي مسرحيات هولبرغ في بادئ الأمر، إلا أن تلك الكلمات سالفة الذكر لم تكن تشبه الكلمات المستخدمة في تلك المسرحيات بل كانت مؤلفة من أبياتٍ وقصائد. عندما تحدثت شقيقة السيد بنكيفلود عن أخيها الراحل لمعت عيناها بشكل استثنائي:

«أخي الشاعر!». لاحظت مدى فخرها وتوهج عينيها عندما لفظت كلمة «الشاعر» وهذا في حد ذاته جعلني أشعر في تلك اللحظة تحديداً بأن هناك شيئاً ما مدهشاً ورائعاً عندما يكون المرء شاعراً. وانطلاقاً من تلك اللحظة أيضاً بدأت، ولأول مرة، بقراءة مسرحيات شكسبير المترجمة بلغة سيئة وركيكة، إلا أن تلك الترجمة على أية حالٍ لم تكن قادرة على محو الأوصاف الجريئة التي استخدمها شكسبير خلال كتابته، وأحببت أيضاً تلك الأحداث البطولية، والساحرات والأشباح.

بدأت على الفور بتمثيل مسرحيات شكسبير في مسرح عرائسي، رأيت شبح هاملت، ورافقت لير على المروج، وكلما مات عدد أكبر من الأشخاص شعرت بالاستمتاع بالقراءة. خلال ذلك الوقت، قمت بكتابة مسرحيتي الأولى، والتي كانت مأساوية؛ حيث مات فيها الجميع! وقد استعرت موضوعها الرئيسي من أغنية قديمة كانت تدور حول حكاية ثيسبي وبراموس، لكنني أضفت أحداثاً تخص ما يحدث بين الراهب وابنه اللذين قد أحبا ثيسبي، وقد قام كلاهما بقتل نفسه عندما ماتت الأخيرة، وكانت كلمات الراهب مجتزأة من مقاطعٍ في الكتاب المقدس، واختصت بعض الشيء بتعاليم الدين المسيحي تحديداً، تلك التعاليم التي تخص واجبنا تجاه جيراننا. قمت بتسمية تلك القصة باسم «أبور وألفيرا».

قالت لي جارتنا بنبرةٍ ساخرة «كان يفترض أن تطلق عليها» أبور والسمك المملح»، وذلك حين أتيت إليها بقصيدتي بعد أن قضيت وقتاً طويلاً في قراءتها كاملة للجيران في شارعنا. شعرت بالإحباط الشديد؛ لأنني أدركت أن تلك السيدة جعلت مني ومن قصيدتي أضحوكة. وبقلبٍ مضطرب ذهبت إلى أمي وأخبرتها بما حدث، وقالت:

«إنها تقول لك ذلك فقط لأن ابنها لم يقم بما قمت به!»، غمرني شعور بالراحة عند سماع تلك الكلمات، وعلى الفور بدأت في كتابة قصة جديدة تستعرض شخصية ملك وملكة من ضمن الشخصيات الدرامية. في الواقع، اعتقدت أنه لا يمكن التطرق إلى شخصيات ذوي الشأن الرفيع، أو أن تنسب إليهم تلك الأحاديث العادية. كنت أريد رفع مستوى لغتي، كما كان يفعل شكسبير في مسرحياته. سألت أمي، وغيرها من الأشخاص الآخرين، كيف يتحدث الملك بشكلٍ لائق، لكن لم يكن هناك أي أحد يعرف كيفية ذلك بالضبط.

قالوا إنهم لم يروا أي ملك منذ سنواتٍ طويلة، فلم يأت أحدهم إلى مدينة أودنسه، لكنهم أكدوا لي أن الملوك والملكات يتحدثون بلهجة أجنبية بلا شك. بناء على ذلك، قمت على الفور بشراء معجم لغوي، يشتمل على عدة لغات، منها الألمانية والفرنسية والإنجليزية، تم تزويده بمرادفات تلك الكلمات باللغة الدنماركية، وقد ساعدني ذلك كثيراً.

اقتطعت كلمات من اللغات الأجنبية، ووضعتها في خطابات الملوك والملكات، وحرصت أن تكون تلك اللغة أقرب إلى لغة الانجيل والتي رأيت أنها أكثر لغة مناسبة لتلك الشخصيات الرفيعة الراقية.

رغبت حينها حقاً في قراءة قصتي للجميع، فلطالما كان فعل ذلك مصدر سعادةٍ لي، وكان من دواعي بهجتي قراءة نصوصي على أسماع الآخرين، ولم يبد لي يوماً أن ذلك الأمر لم يكن مصدر سعادة وبهجة لأولئك المستمعين أيضاً. في ذلك الوقت كان أحد أبناء أحد جيراننا يعمل في أحد مصانع الملابس، وكان يعود إلى الديار كل أسبوع وبحوزته بعض المال، وكنت فقيراً ولا أملك شيئاً، فتعين علي الذهاب للعمل في المصنع أنا الآخر.

«لن تذهب إلى هناك من أجل المال!»، قالتها أمي وكأنها تؤكد أن السبب الحقيقي لذهابي إلى المصنع؛ هو معرفة أين أنا وماذا أفعل. أخذتني جدتي إلى ذلك المكان، وكانت شديدة التأثر بشكل واضح حينها، لأنها قالت لي إنها لم تكن تتوقع أن تعيش لتراني أعمل مع فتية المصانع الفقراء المعدمين.

تم توظيف المزيد من العمال المهرة في ذلك المصنع من الألمان، وكانوا يدندنون الأغنيات الجميلة العذبة، ومزاحهم يحتل الأمكنة مرافقاً لصوت ضحكاتهم المجلجلة.

استمعت إليهم جيداً وأيقنت حينها أن الكلام البذيء غامض بالنسبة لأذن طفل بريء. لم يكن لتصرفاتهم وأقوالهم تلك أي أثر على قلبي لكني كنت مهووساً في ذلك الوقت بجمال ونقاء صوتي، فقد كنت أعرف منذ زمن أنني أملك تلك الموهبة، فمنذ تلك اللحظة التي شرعت فيها بالغناء أثناء وجودي في حديقة والدي الصغيرة، كان الناس يتجمهرون من أجل الإصغاء، كما كان يجلس أولئك الناس الطيبون في حديقة مستشار الدولة، وكانوا يستمعون إلي بإنصات شديد أثناء جلوسهم على السياج.

شرعت في الغناء مجدداً في تلك اللحظة التي سألني فيها عمال المصنع إن كان بمقدوري أن أغني لهم، وحينها توقفوا على الفور عن العمل وغرقوا في حالة من الصمت والسكون، وكان عليّ أن أغني مرات عديدة، بينما قام الأولاد الآخرون في المهمات التي أوكلت لهم. وقد أخبرتهم أنه بمقدوري القيام بتمثيل المسرحيات من أجلهم أيضاً، وأستطيع تقديم مشاهد مسرحية كاملة من أعمال هولبرغ وشكسبير.

أحبني الجميع، وبناء على ذلك فقد قضيت اليوم الأول في المصنع بسعادة وابتهاج. وفي أحد الأيام، حين كنت أغني، وقد امتدح العمال براعتي وموهبتي الصوتية، قال أحد العمال فجأة إنني أبدو كفتاة أكثر من كوني صبياً، أمسك بي أحدهم بغتة، وحينها بكيت وصرخت. واعتقد عامل آخر أن هذا الأمر مسل وممتع للغاية فأمسك بذراعي وساقي، وصرخت بصوت مرتفع، وشعرت بالخجل الشديد كما الفتيات وركضت بعيداً عنهم. ذهبت إلى المنزل، وأخبرت أمي بكل ما حدث، فقطعت لي وعداً أنني لن أذهب إلى ذلك المكان مرة أخرى.

قمت بزيارة مدام بنكيفلود وصنعت لها وسادة دبابيس مبتكرة من الحرير الأبيض وقدمتها لها كهدية في عيد مولدها. وأقمت علاقة صداقة مع أرملة قس آخر في ذلك الحي، وقد سمحت لي تلك المرأة أن أقرأ لها الكتب التي حصلت عليها من المكتبة العامة بصوت عالٍ، وبدأ أحد تلك الكتب بالعبارة التالية:

«كانت ليلة عاصفة اصطدمت خلالها الأمطار بألواح النوافذ الزجاجية».

«إنه كتاب مدهش استثنائي حقا!»، قالتها السيدة العجوز، فسألتها حينها ببراءة واضحة كيف عرفت ذلك؟

«يمكنني الحكم على الكتاب الجيد من بدايته، فتلك إشارة إلى أن هذا الكتاب سيكون استثنائياً».

تأملت وجهة نظرها بتقدير وإجلال.

ذات مرة، في موسم الحصاد، أخذتني أمي إلى مكتب أحد النبلاء، الذي يبعد أميالاً عن أودنسه في بلدة بوجينسي مسقط رأس أمي، وقد أخبرتها السيدة التي تعيش هناك بأنها قد تأتي في وقت ما لزيارة أمي ورؤيتها لاحقاً.

كانت رحلة عظيمة بالنسبة لي، فقد قمنا بمعظمها سيراً على الأقدام، واستغرقت تلك الرحلة حوالي يومين، وما زلت أتذكر الأثر العميق الذي تركته البلدة على نفسي. وصل الأمر إلى الحد الذي جعلني أتوق حقاً لأن أصبح رجلا ريفياً.

في موسم جني نبات الجنجل، جلست برفقة أمي في الحظيرة الواسعة إلى جوار عدد كبير من أهالي القرية، وحرصنا على جمع المحصول معاً، وقد عكفوا على سرد القصص والحكايات التي تدور حول عملهم، وعن تلك الأشياء الرائعة التي اكتسبوها خلال رحلة حياتهم.

ذات ظهيرة، سمعت أحد الرجال الجالسين معنا يقول إن الرب يعرف كل شيء مضى وكل شيء سيحدث، فشغلت تلك الفكرة عقلي بشكل لا يوصف، حتى إنني ذهبت بمفردي في المساء، وتوجهت ناحية بحيرة عميقة ينتشر الحصى حولها وبداخلها، وحينها احتلت تلك الفكرة رأسي مجدداً وأخذت أتساءل إن كان الرب يعرف كل شيء حدث هناك فعلاً، وحينها فكرت ووجدتني أصل إلى تلك الإجابة التي تقول: «أجل! كان يعلم! وقد قرر أن يجعلني أعيش لسنوات أطول!»، وعندما تمتمت بتلك الكلمات خطرت لي فكرة أنني إذا قفزت الآن داخل تلك البحيرة العميقة وأغرقت نفسي فلن يكون ذلك ما أراده الرب من أجلي، وهكذا قررت بشكل جدي وصارم إغراق نفسي. هرولت إلى أعمق مكانٍ في تلك البحيرة، ولكن استوقفتني فكرة جديدة مربكة:

«تلك هي أمنية الشيطان! إنه يرغب في الاستحواذ عليك!» وفجأة وجدتني أصرخ وأركض بكل ما أوتيت من سرعة من هذا المكان حتى سقطت باكياً مرتجفاً بين أحضان أمي، التي لم تكن قادرة هي والبقية على فهم ما أصابني.

«من المؤكد أنه رأى شبحا ما!»، قالتها إحدى السيدات، قالت تلك العبارة بكل ثقة لدرجة أنني كدت أن أصدقها.

تزوجت أمي للمرة الثانية من شاب ينتمي إلى فئة أصحاب الحرف والمشغولات اليدوية، لكن عائلته اعتبرت أن ابنهم قد تزوج من امرأة أقل منه في الوضع الاجتماعي، ولهذا فقد حرمت أنا وأمي من زيارتهم.

كان زوج أمي رجلا شاباً ضخم البنية، ولم تكن له أي علاقة مطلقاً بمسألة تعليمي. كنت أمضي ساعاتي مع صندوق الدنيا، مسرح العرائس المدهش الذي كنت أملكه، حيث تجلت سعادتي في جمع قطع القماش والحرير الملونة المشرقة، والتي كنت أقوم بقصها وحياكتها بنفسي. تعاملت أمي مع تلك المسألة على أنها تدريب تحضيري جيد، سيمكنني فيما بعد من العمل كخياط، وتبنت تلك الفكرة، وكأنني ولدت من أجل هذا. لكنني أخبرتها بأني سأذهب إلى المسرح، وبأني سأعمل ممثلاً! عارضت أمي تلك الأمنية بقوة، لأنها لم تكن تعرف أي مسرح سوى تلك المتنزهات التي يملؤها المهرجون وراقصو الحبال.

رفضت أمي ذلك الأمر تماماً، فأمنيتها الوحيدة كانت أن تراني خياطاً. الشيء الوحيد الذي كان يجعلني أتساهل بعض الشيء مع ذلك الاحتمال هو أنني سأحصل على المزيد والمزيد من الثياب التي ستشكل تعويضاً عن مسرحي.

شغفي للقراءة، إضافة إلى المشاهد الدرامية التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، وصوتي الرائع المميز، جعلتني لاحقًا محط اهتمام أكثر عائلات أودنسه نفوذًا. قاموا بدعوتي إلى منازلهم، أعجبتهم عقليتي وطريقة تفكيري، وأثارت صفاتي اهتمامهم بشدة. كان من بين هؤلاء الذين لاحظوا موهبتي الكولونيل هوج جولدبرج، الذي أظهر لي تعاطفه، وتعامل معي بود واضح، وكذلك عائلته، إضافة إلى أنه قدمني إلى الملك الحالي، ثم قدمني إلى الأمير كريستيان.

كبرت بسرعة وأصبحت فتى طويل القامة، وقالت أمي إنها لن تسمح لي بأن أمضي في حياتي دون غاية. وبالتالي أرسلتني إلى مدرسة خيرية، وهناك لم أتلق سوى الدين والكتابة والحساب، التي تعلمتها بصعوبة بالغة، وبالكاد كنت قادراً على تهجئة كلمة ما. في عيد ميلاد معلمنا، اعتدت أن أنسج إكليلاً وأكتب قصيدة من أجله، وقد استقبل سيادته نصف تلك الهدايا بالابتسامة بينما استقبل النصف الآخر بالمزاح والسخرية، وفي المرة الأخيرة قام بتوبيخي.

ذات يوم تجمع حولي بعض الفتية بعدما سمعوا عن ذلك التميز الفكري الذي وصلت إليه، وبأنني أتردد على منازل العائلات التي تنتمي إلى طبقة النبلاء، لاحقوني وهتفوا في سخرية: «ها قد هرب كاتب المسرحيات!». عدت إلى المنزل بسرعة واختبأت في زاويةٍ ما وأخذت أبكي وأدعو الرب.

وكنتيجة لما حدث، أكدت لي أمي أنه يجب أن أقرر، ليتم قبولي في التدريب على الخياطة، وأن هذا هو الفعل المنطقي. على الرغم من أن أمي كانت تحبني من أعماق قلبها إلا أنها لم تكن قادرة على فهم حوافزي ومساعي، وفي الواقع كنت أنا نفسي غير قادر على فهم كل تلك الإشارات في ذلك الحين أيضاً، وقد بدأ المحيطين بها يتحدثون عني بشكل ساخر، ولم يكن بمقدورهم فهم تصرفاتي العجيبة، واستمر الأمر على ذلك النحو حتى صرت أضحوكة.

كنا ننتمي إلى أسقفية القديس كنود، وكان المتقدمون للتثبيت يقومون بإدراج أسمائهم مع كبير القساوسة أو مع قس الكنيسة، وقد اعتاد أبناء الطبقة الراقية الغنية وأبناء معلمي مدرسة النحو الذهاب إلى كبير القساوسة بينما ذهب أبناء الفقراء إلى القس.

وقد عبرت عن رغبتي في الذهاب مع أبناء الطبقة الراقية إلى كبير القساوسة، والذي اضطر إلى استقبالي معهم، على الرغم من أنه اعتبر تصرفي هذا غروراً. وعلى الرغم من جلوسي في المقعد الخلفي؛ إلا أنني كنت أكثر قدراً من أولئك الأطفال الذين كانوا تحت رعاية القس. وفي الواقع لم يكن الدافع الوحيد وراء تصرفي على هذا النحو هو غروري، ولكن كان لدي شعور بالخوف بعض الشيء من أولئك الأطفال الفقراء الذين سخروا مني، جعلني ذلك أشعر بنوع من الاستقطاب الداخلي للطلاب الذين ينتمون إلى المدارس النحوية، وقد تم اعتباري أحد أفضلهم. فعندما كنت أراهم يلعبون في ساحة الكنيسة كنت أجلس في الخارج متمنياً من أعماق قلبي أن أكون يوماً ما بين أولئك المحظوظين، ولم يرجع سبب ذلك إلى رغبتي في مشاركتهم اللعب، وإنما بسبب الكم الكبير من الكتب التي يمتلكونها، والمكانة التي قد يصلون إليها في المستقبل.

عندما ذهبت إلى صف كبير القساوسة أصبح بمقدوري الاجتماع بأولئك الأطفال، ومرافقتهم، لكني وبرغم كل ذلك لا يمكنني أن أتذكر أي واحد منهم الآن، ويرجع هذا إلى أنه لم يكن بيننا أي نوع من أنواع التواصل أو التعامل. لقد كان يراودني شعور دائم بأني أقحم نفسي وسط أشخاص لا أنتمي أبداً إلى عالمهم.

التقيت ذات يوم بفتاة صغيرة جميلة، كانت تنتمي إلى أنبل الطبقات، نظرت إلي بود وعطف وأعطتني وردة، وحينها عدت إلى منزلي والسعادة تملأ روحي وقلبي؛ لأن هناك إنسانة واحدة في هذا العالم لم تتجاهلني ولم تهزأ بي.

قامت سيدة عجوز تعمل في مجال الخياطة بتعديل معطف أبي الواسع حتى أرتديه كبدلة لمراسيم التثبيت، وفي الواقع كان معطفاً رائعاً لم أرتد واحداً مثله من قبل، وحصلت أيضاً حينها على زوج من الأحذية الجديدة لأول مرة في حياتي، فرحت جداً بذلك. كان كل ما أخشاه في ذلك الحين ألا يرى الجميع حذائي الجديد! لذا حرصت على إظهاره للجميع خلال سيري في الكنيسة، وقد أحدث حذائي صريراً خلال المشي، الأمر الذي زاد من سعادتي؛ لأن جميع من هم في الأبرشية سيعرفون أنه حذاء جديد.

إخلاصي للرب كان شائباً وكنت مدركاً لذلك، وشعرت بتأنيب الضمير لأن اهتمامي بالحذاء شغلني عن اهتمامي بالرب، لذا دعوت الرب بصدق أن يسامحني وعدت مجدداً للتفكير في حذائي مرة أخرى.

خلال عامي الأخير هناك تمكنت من توفير مبلغ قدره ثلاثون جنيهاً. غمرت السعادة قلبي لامتلاك مبلغ كبير كهذا! ورغم أن أمي في تلك الأثناء كانت تريدني أن أتأهب لأبدأ رحلتي كمتدرب في عالم الخياطة، إلا أنني دعوت الرب، وتوسلت إليها لتسمح لي بالقيام برحلة إلى كوبنهاجن، فهناك سأرى أجمل مدينة في العالم، وعلى الفور سألتني أمي: «ولماذا ترغب في الذهاب إلى هناك؟»

أرغب أن أصبح شخصاً مشهوراً. أخبرتها بأنني قرأت عن الأشخاص الاستثنائيين، وكيف أنهم يتجاوزون المصاعب والمحن الشديدة ومن ثم يصبحون مشهورين. ذلك الدافع الذي أرشدني وألهمني لم يكن معقولاً بالنسبة لأمي، لكنني دعوت الرب مراراً وبكيت كثيراً حتى وافقت بعد أن أرسلتني إلى امرأة تعرف بأنها سيدة حكيمة، كانت قد خرجت لتوها من المستشفى وأرادت أمي أن تقرأ لي طالعي عن طريق استخدامها للقهوة المطحونة والبطاقات.

«سيكون ابنك رجلا عظيماً! وبفضله ستصبح مدينة أودنسه منارة للعالم أجمع!» قالتها المرأة، وحينها بكت أمي بشدة فور استماعها لتلك الكلمات. حصلت حينها على تصريح بالسفر، رغم أن جيراننا أخبروا أمي بأنه أمر مريع حقاً أن تسمح لي بالسفر وحدي في عمر الرابعة عشرة، وحذروها من عدة أمور، أولها أن الطريق إلى كوبنهاجن طويل وشاق، وثانيها أن المدينة كبيرة ومعقدة، وثالثها أني لا أعرف أحداً بها على الإطلاق هناك.

- «صحيح»، قالتها أمي رداً على جيرانها، ثم أردفت قائلة: «لكنه يلح علي بإصرار ولذلك منحته موافقتي، وفي الواقع أنا شديدة الثقة بأنه لن يذهب إلى

أبعد من مدينة نيبورج، هناك حيث سيتوجه إلى مشاهدة البحر الهائج وعلى إثره سيصاب بالفزع وسيعود مجدداً وبسرعة إلى الديار».

خلال ذلك الصيف، الذي سبق موعد المراسيم الكنسية، حضر بعض المغنين والاستعراضيين من المسرح الملكي إلى أودنسه، وقاموا بتأدية العديد من العروض الأوبرالية والتراجيدية، وقد أعجبت المدينة كلها بتلك العروض المدهشة. وتمكنت بفضل علاقتي الجيدة مع بائع التذاكر في المسرح من رؤية تلك الفرق الفنية وراء الكواليس، حتى إنني قمت بلعب بعض الأدوار؛ كدور الخادم والراعي، وكنت ألقي بعض الكلمات في أدواري. كان حماسي كبيراً جداً لدرجة أنني لم أتنبه إلا عند عودة الفنانين إلى غرف الملابس وأنا مرتدٍ أحد الأزياء بالكامل، وهذا ما جذب انتباههم نحوي، فلقد أمتعتهم براءتي وشغفي. كانوا يتعاملون معي بلطف وود واضح، وكنت أتعامل معهم باحترام وإجلال شديد وكأنهم آلهة الأرض.

كل شيء قد سمعته من قبل عن صوتي الموسيقي وقدرتي على إلقاء الشعر والانفعال به بات مفهوماً في تلك اللحظة. شعرت حينها في أعماق نفسي أنني قد ولدت لأكون على خشبة المسرح، حيث يمكنني أن أصبح إنسانًا عظيمًا حقا. بعدها استهدفت كوبنهاجن وأردت السفر إليها.

سمعت كثيراً عن وجود مسرح كبير في تلك المنطقة، وأنه يوجد ما يعرف أيضًا بفن البالية والذي يتفوق في حد ذاته على الأوبرا والمسارح، وقد سمعت تحديداً عن راقصة الباليه المنفردة مدام شيل وبأنها الأفضل. اعتبرها ملكة كل شيء، وفي مخيلتي اعتقدت أنها الشخص الذي سيساعدني في كل شيء، فقط لو استطعت الحصول على دعمها.

احتلت تلك الأفكار رأسي وذهبت على هذا النحو إلى إيفرسن النساخ العجوز، وهو أحد رجال أودنسه المحترمين، وبحسب ما سمعت عنه في السابق، كان على معرفة جيدة بمعظم الفنانين الذين جاؤوا إلى المدينة. ولذلك اعتقدت أنه قد تربطه علاقة صداقة بالراقصة الشهيرة، وكنت أود أن أطلب منه خطاب توصية ليجعلني أتعرف عليها وكنت سأترك بقية الأمر للرب.

رآني الرجل لأول مرة، واستمع إلى طلبي بكل ود ولطف، لكنه حاول لاحقاً أن يجعلني أعدل عن ذلك الرأي ونصحني أن أتعلم حرفة ما.

قلت له: «ستكون هذه خطيئة عظيمة!». ذهل الرجل العجوز من أسلوبي، مما حول الحوار لصالحي. اعترف لي بأنه لا يعرف الراقصة الشهيرة بشكل شخصي، وبرغم ذلك؛ سيمنحني خطاب توصية ليساعدني في التعرف إليها. في اللحظة التي حصلت فيها على خطاب التوصية شعرت بأن هدفي على وشك التحقق.

قامت أمي بعد ذلك بوضع ثيابي في حزمة صغيرة، ثم عقدت صفقة مع سائق عربة البريد أن يأخذني برفقته إلى كوبنهاجن لقاء ثلاثين جنيه، وخلال ظهيرة ذلك اليوم الذي نوينا مغادرة البلاد فيه، رافقتني أمي إلى بوابة المدينة، وهناك كانت جدتي، التي استحال شعرها الجميل إلى اللون الرمادي، تجلس في إحدى الزوايا، ثم احتضنتني وانفجرت في نوبة بكاء، ولم تنطق بحرفٍ واحد.

تأثرت جداً حينها، وافترقنا على هذا النحو، ولم أرها بعد ذلك؛ لأنها ماتت في السنة التالية. لا أعرف موقع قبرها على وجه التحديد؛ لأنها دفنت في مقابر الفقراء الجماعية.

انطلقنا، وكانت أشعة الشمس تتلألأ خلال ظهيرة ذلك اليوم. تسلل مشهد الشروق البديع إلى عقلي الطفولي المبتهج. أبهجتني بشدة كل تلك الأشياء التي رأيتها، وعانقتها بعيني لأنني كنت في رحلة لتحقيق رغبات روحي.

عندما وصلت إلى مدينة نيبورج على متن سفينة، بعيداً عن موطني، أدركت جيداً كم أنا وحيد وبائس، وبأني لا أملك أي شخص يمكنني الاعتماد عليه في هذا العالم كله سوى الرب.

بمجرد أن وطأت قدمي أرض زيلاند، اختبأت خلف أحد الأكواخ المطلة على الشاطئ ثم سقطت على ركبتي وتوسلت الرب أن يرشدني إلى الصواب خلال رحلتي تلك، وشعرت بالراحة الشديدة بعد أن قمت بذلك؛ لأنني كنت شديد الثقة في الإله وحظي الجيد.

في ذلك اليوم والليلة التي تليه؛ سافرت إلى العديد من القرى والمدن. التزمت البقاء في المركبة وتناولت الخبز. اعتقدت حينها أنني وصلت إلى أعماق العالم الواسع.

الفصل الثاني

في صباح يوم الاثنين، الخامس من أيلول، رأيت لأول مرة في حياتي مدينة كوبنهاجن عبر المرتفعات الشاهقة لفريدريكسبيرغ، وفي ذلك المكان تحديداً غادرت المركبة ممسكاً بحزمة ثيابي متوجهاً إلى المدينة، عابراً حديقة القلعة والممر الطويل والضاحية.

كان المساء الذي سبق لحظة وصولي قد شهد مجموعة أحداث عرفت باسم النزاعات اليهودية، والتي انتشرت بدورها في عددٍ من الدول الأوروبية، وقد شهدت المدينة بأكملها حالة من الفوضى، فقد خرج الجميع إلى الشوارع، وفاقت الأصوات والاضطرابات في كوبنهاجن ما نسجته مخيلتي عن المدينة العظيمة.

لم يكن بحوزتي إلا عشرة دولارات، لذا قمت بالذهاب إلى أحد النزل العامة المتواضعة، وتسكعت قليلاً حول المسرح، وتأملت جدرانه وكأنها جدران منزلي. في تلك الأثناء، لاحظني أحد باعة التذاكر أثناء تجوله في صالة المسرح، وسألني إن كنت أرغب في الحصول على تذكرة لدخول المسرح، حينها كنت بريئاً تماماً جاهلاً بالعالم، وظننت بأن الرجل يرغب في إعطائي تذكرة لذا قبلت عرضه بكل شكرٍ وامتنان، وفي تلك اللحظة اعتقد الرجل أنني كنت أحاول أن أسخر منه وغضب، فشعرت بالخوف الشديد وهرولت بكل سرعتي راغباً مغادرة ذلك المكان الذي أحببته أكثر من أي مكان آخر في كوبنهاجن. لم أكن أتخيل خلال تلك اللحظة أنه بعد مرور عشر سنوات لاحقة سأقوم بعرض مسرحيتي الدرامية الأولى في ذلك المسرح نفسه، وهكذا سأقدم نفسي للجمهور الدنماركي.

في اليوم التالي قمت بارتداء البدلة التي ارتديتها سابقاً في المراسم الكنسية، ولم أنس أمر الحذاء، ولكن في هذه المرة ارتديته كما ينبغي ولم أحاول إظهاره. ارتديت زيي الأنيق ووضعت قبعتي على رأسي التي أخفت نصف وجهي تقريباً، وأسرعت لأقدم خطاب التوصية إلى مدام شيل الراقصة الشهيرة، وقبل أن أدق جرس الباب، انحنيت وجلست على ركبتي لأصلي

وأدعو الرب أن يجعلني قادراً على الحصول على الدعم والمساعدة التي أريدها من هذا المكان.

نزلت الخادمة أسفل الدرج ثم ابتسمت إلي وأعطتني شلناً، لكنني وقفت مندهشاً متعجباً أنظر إليها وإلى النقود، فها أنا قد ارتديت بدلة أنيقة معتقداً أن علامات الذكاء تبدو واضحة على هيئتي تلك، وها هي تلك المرأة تعطيني شلنًا وكأنها تعتقد أنني جئت إلى هنا لكي أتسول! ركضت خلفها وناديتها، وحينها ردت الخادمة: «احتفظ بها! احتفظ بها! قالتها وغادرت».

تمكنت أخيراً من لقاء الراقصة التي نظرت إلي بإعجاب واضح، واستمعت إلى كل ما أود قوله. لم يكن لديها أي فكرة عن اسم ذلك الشخص الذي أرسل خطاب التوصية، وبدت لها تصرفاتي في غاية الغرابة.

اعترفت لها بميولي المسرحية الصادقة، وحينها سألتني على الفور عن نوعية الشخصيات التي يمكنني أن أقدمها، قلت لها إن عرض «سندريلا» هو عرضي المسرحي المفضل، جدير بالذكر أنه تم تقديم ذلك العرض المسرحي على المسرح العام لمدينة أودنسه، وقد حازت كل الشخصيات الرئيسية على إعجابي، لذا كان بمقدوري القيام بالدور من وحي الذاكرة. طلبت منها الإذن لاحقاً بخلع حذائي لأنني لم أكن أشعر بالخفة الكافية لتأدية ذلك الدور، وحملت قبعتي وكأنها دف صغير ثم بدأت في الغناء والرقص:

هنا في الأسفل

لا الغني ولا صاحب المقام

يستثنى من الألم والبلاء!

تأملت الراقصة الشهيرة إيماءاتي الغريبة ونشاطي المفرط بدهشة، وظنت حينها أنني قد فقدت عقلي، وبناء على ذلك تخلصت مني في أسرع وقت ممكن. ذهبت لاحقاً إلى مدير المسرح وطلبت منه الحصول على وظيفة هناك، ولكنه عندما تأملني لبعض الوقت قال:

«لكنك تبدو نحيفاً جداً وهيئتك لا تجعلك تصلح للمسرح!». أخبرته «إذا قمت بتوظيفي براتب قدره مائة دولار يمكنني حينها أن أصبح بدينًا خلال وقت قصير يا سيدي!» طلب مني مدير المسرح أن أمضي في طريقي، وقال لي إنهم لا يوظفون إلا الأشخاص المتعلمين.

وقفت جامداَ في مكاني متألماَ بشدة، فلم أكن أعرف أي شخص في كوبنهاجن يمكنه أن يواسيني أو ينصحني، وفكرت أن الموت هو الخيار الوحيد والأنسب بالنسبة إلي في ذلك الوقت، لكني تذكرت الرب ثانية، فقد كنت أثق فيه كما يثق الطفل الصغير في والده.

بكيت بمرارة وقلت لنفسي: «دائماً عندما تسوء الأحوال وتصل إلى ذروتها يرسل الرب المساعدة، قرأت عن ذلك من قبل، علمت جيداً أن الناس يعانون حقا قبيل تلك اللحظة التي تسبق تحقيقهم إنجازاً ما».

تركت المسرح وذهبت لشراء تذكرة لمشاهدة عرض أوبرا بول وفيرجينيا، ولقد آلمني فراق الحبيبين إلى الحد الذي جعلني أنفجر بالبكاء بشدة. حاولت بعض النساء الجالسات إلى جواري مواساتي، وقلن لي إن ما شاهدته للتو كان مجرد عرض مسرحي ولا يجدر به أن يزعجني، ثم قمن بإعطائي شطيرة نقانق، وحينها استعدت ثقتي في جميع الناس، وأخبرتهم بصراحة أنني لم أكن أبكي حزناً على فيرجينيا وبول، ولكني بكيت لأني اعتبرت أن المسرح بالنسبة لي تماماً كما هو حال فيرجينيا بالنسبة لبول، وأن انفصالي عنه سيجعلني أشعر بالحزن والكآبة والبؤس. تأملنني وعلامات عدم الفهم تبدو جلية على وجوههن، وحينها أخبرتهن بسبب قدومي إلى كوبنهاجن، وكم أصبحت بائساً عندما ذهبت إلى المسرح، وحينها على الفور أعطتني إحداهن المزيد من الخبز والزبد والفاكهة والكعك.

في صباح اليوم التالي عندما تأهبت لدفع الفاتورة الخاصة بي اكتشفت مصيبتي الأكبر؛ أنني لا أملك سوى دولار واحد! كان علي إما أن أبذل قصارى جهدي من أجل الحصول على وسيلة نقل تأخذني إلى الديار، أو أن أبحث عن فرصة عمل مع أصحاب حرفة ما. فحتى إذا عدت إلى أودنسه سيتوجب علي البحث عن فرصة العمل تلك هناك، رغم أنني أعرف جيداً أن أهالي أودنسه سوف يسخرون مني بشدة إذا وجدوني عائداً إليهم مرة ثانية.

لم يكن يعنيني أبدًا نوع الحرفة التي أرغب في تعلمها، كل ما كان يشغلني هو البحث عن فرصة عمل بأي طريقة حتى أتمكن من البقاء في كوبنهاجن.

اشتريت الجريدة، ووجدت إعلاناً قام به صانع أثاث يرغب في متدرب جديد، فذهبت إليه واستقبلني الرجل استقبالاً جيداً، لكنه قال لي إنه يتعين أن يكون

لديه شهادة التعريف الخاصة بي، وسجل التعميد من مدينة أودنسه، ولكن ما توصلنا إليه في نهاية المطاف أن أذهب إلى منزله وأرى طبيعة العمل.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى الورشة، وهناك كان يوجد المزيد من العمال واثنان من المتدربين، بينما لم يأت صاحب العمل ذلك اليوم، وكنتيجة لذلك دخل الجميع في نقاشات تافهة مع بعضهم البعض، وقد كساني الخجل في تلك اللحظات تمامًا كما لو كنت فتاة! وبمجرد أن لاحظوا ذلك احتشدوا حولي وتجمعوا وعاملوني بكل قسوة، وبدأ بعض أولئك العمال المتدربين الشباب في التنمر علي، وإلقاء بعض النكات الفظة السخيفة، لقد تجاوزا كل الحدود حقاً، ذكرني ذلك بالموقف السابق الذي قد وقع لي في المصنع، وقررت حينها ألا أبقى يوماً آخر في تلك الورشة، وذهبت إلى رب العمل وأخبرته أنه لم يعد بمقدوري احتمال الوضع أكثر من ذلك، وحينها حاول الرجل مواساتي لكن كل جهوده ذهبت هباء، لقد كنت متألماً للغاية، وبذلت كل ما في وسعي لمغادرة ذلك المكان ورحلت على الفور.

همت على وجهي في تلك الشوارع العريضة، هناك حيث لم يكن أي أحد يعرفني، وقد غمرني البؤس، وفي تلك اللحظة تحديداً تذكرت أني كنت قد قرأت اسماً إيطالياً «سيبوني» في الصحيفة عندما كنت في مدينة أودنسه، والذي كان يعمل مديراً لأكاديمية الموسيقى في كوبنهاجن، وفكرت أنه بما أن الجميع قد امتدح صوتي ووصفوه بأنه جميل وعذب، فيمكنني أن أذهب إلى هناك لأطلب مساعدة ذلك الرجل، وإن لم أتمكن من تحقيق ذلك فعلي في نفس الليلة البحث عن عربة تعيدني إلى الديار مجدداً. عندما راودتني فكرة العودة إلى بلدتي الأصلية، شعرت بالقلق الشديد وهرولت مسرعاً إلى منزل السيد «سيبوني».

صدف أنه خلال ذلك اليوم على وجه التحديد قام السيد سيبوني بإقامة حفلة كبيرة في منزله، وكان على رأس حضورها الملحن الشهير «وايز»، والشاعر الكبير المرموق «جينز باغيسين»، وغيرهما من الحضور الآخرين.

عندما فتحت لي خادمة المنزل الباب لم تتمكن فقط من معرفة أمنيتي الصادقة في الغناء، ولكنها أيضاً قد عرفت قصة حياتي بأكملها، وقد استمعت إلي باهتمام شديد، ثم تركتني بمفردي وغادرت، وحينها انتظرت فترة طويلة جداً، وقد خمنت أنها كانت قد كررت سرد قصتي على مسامع الضيوف في الداخل لأنهم قد خرجوا جميعهم بغتة مندفعين نحوي في فضول كما أنهم طلبوا مني أن أغني لهم، وعلى الفور قمت بذلك، وقد استمع لي السيد سيبوني بكل اهتمام، فيما قمت أيضًا بتأدية بعض المشاهد التمثيلية لهم من

مسرحيات هولبرغ، وقرأت على أسماعهم بعض القصائد، ثم تذكرت بغتة ذلك الألم الذي يعصرني نتيجة وضعي الحزين، وانفجرت في نوبة بكاء، وحينها صفق لي الجميع بحرارة.

«أعتقد أن هذا الفتى سيكون له شأن عظيم! أعتقد أن لديه موهبة ما، لا تصب بالغرور حين تصفق لك الجماهير بحرارة!»، قالها الشاعر جينز باغيسين، ثم تحدث لاحقاً عن شيء ما له علاقة بالروح النقية البريئة التي سرعان ما تتأثر سلباً من تعاملها مع البشر، لكنني لم أفهم ذلك الجزء تحديداً. قطع السيد «سيبوني» وعداً حينها أنه سوف يبذل قصارى جهده من أجل صقل وتطوير مهاراتي الصوتية، وبأنه إذا حدث ذلك سوف أنجح في الوقوف على خشبة المسرح الملكي، جعلني ذلك الأمر أشعر بالسعادة المفرطة حتى إنني ضحكت وبكيت في نفس الوقت، وقد قادتني الخادمة إلى طريقي وقالت لي إن الملحن المرموق السيد «وايز» سوف يبدأ من الغد في الاعتناء بمسألة تطوير مهارات صوتي، وداعبت وجنتي قائلة إنه ينبغي علي أن أعتمد عليه كلياً بعد الآن.

ذهبت إلى الملحن «وايز» والذي كان هو نفسه قد تمكن من تجاوز الفقر والتغلب عليه في حياته الشخصية، فكان أكثرهم تفهماً لحزني وارتباك موقفي، وتطوع ليدفع 70 دولاراً من أجلي.

كتبت لأمي رسالتي الأولى في تلك الأثناء، وكانت رسالة تملؤها البهجة. أخبرتها عن حظي الطيب، وعرضت خطابي هذا على كل أصدقائي في ابتهاج ومرح، وسمعه الجميع بدهشة بينما سخر البعض منه لأنهم كانوا يتساءلون في سخرية: وما نهاية كل ذلك؟

أيقنت لاحقاً أن الطريق الأمثل لفهم السيد سيبوني الملحن هو أن أتعلم اللغة الألمانية، تمكنت بالفعل من تعلم بعض العبارات الألمانية عن طريق تلك السيدة التي كانت تعيش في كوبنهاجن، والتي سافرت معي من أودنسه، حيث قامت بدعمي عن طريق ترشيحي لإحدى معلمات اللغة الألمانية التي كانت تعرفها، فقامت بتعليمي بعض الدروس في اللغة الألمانية بكرمٍ شديد.

استقبلني سيبوني في منزله، ومنحنى الطعام ولم يبخل علي بالمزيد من التعليمات والإرشادات الجيدة، ولكن بعد مرور نصف عام تحطم صوتي أو أصيب بجروح، جاء ذلك نتيجةً طبيعية لاضطراري ارتداء أحذية سيئة للغاية طيلة فصل الشتاء، إضافة إلى مرضي بسبب عدم ارتداء ملابس داخلية دافئة.

لم يكن هناك أي احتمالية إذن أن أصبح مطرباً جيداً في يوم من الأيام! وقد واساني وأخبرني سيبوني صراحة بهذا الأمر، وطلب مني أن أذهب إلى أودنسه وأنه ربما يمكنني هناك تعلم حرفة ما.

أنا ذلك الفتى الذي كتب لأمه منذ أشهر رسالة مبهجة مخضبة بالسعادة والآمال الخيالية، ها هو السيد الملحن الشهير يطلب مني العودة إلى بلدتي الآن حتى أصبح مصدراً للسخرية مجدداً!

شغلت تلك الأفكار رأسي، وشعرت بالتحطم، لكن من رحم المعاناة تولد البدايات الجديدة لمستقبل أفضل. وجدت نفسي منبوذاً مرة أخرى وتجولت في الطرقات والشوارع وحيداً متأملاً ما هو أفضل شيء يمكنني القيام به في وقت لاحق من أجل نفسي، وحينها تذكرت بغتة بأن الشاعر جولبرج يعيش في كوبنهاجن، والذي كان شقيقاً للكولونيل المقيم في أودنسه، وتذكرت أيضاً أنه لطالما عاملتنا تلك الأسرة بطيبة ومودة.

عاش الشاعر جولبرج بالقرب من ساحة الكنيسة الجديدة، وهناك كان يدندن قصائده التي تحولت إلى أغنيات، وقد كتبت له خطاباً وشرحت له كل شيء حدث لي، ثم ذهبت إليه لاحقاً، فوجدته حينها محاطاً بالكتب وأعواد التبغ.

استقبلني الرجل القوي ذو القلب الطيب بكل حب وتقدير، وعندما لاحظ تلك الأخطاء الإملائية والنحوية التي ظهرت في رسالتي، التي كنت قد بعثت بها له في السابق، وعدني أن يعطيني التعليمات والإرشادات والنصائح السليمة التي سوف تمكنني من الكتابة باللغة الدنماركية بشكل سليم، وقد اختبرني أيضاً في اللغة الألمانية، و قرر أن يساعدني لكي أتطور وأصقل مهارتي في تلك اللغة أيضاً، وفوق هذا قدم لي هدية بعد أن حصل على أرباح كتابه الذي تم نشره مؤخراً، وما عرفته أن تلك الهدية قد تجاوزت المائة دولار، وكذلك دعمني السيد وايز الملحن المرموق وآخرون غيره.

كان أمراً مكلفاً للغاية بالنسبة لي أن أسكن في أحد تلك النزل العامة، لذلك فقد وجدت نفسي مضطراً للبحث عن منزل خاص، وقد قادني جهلي بالعالم إلى الذهاب لأرملة تسكن في أحد شوارع كوبنهاجن سيئة السمعة، تلك المرأة التي تميل إلى استقبالي في منزلها، ولم أكن أشتبه أبداً في طبيعة ذلك العالم من حولي، فقد كانت امرأة صارمة نشطة، ووصفت لي بقية سكان كوبنهاجن لي بشكل سيئ جداً، فاعتقدت حينها أنني أسكن في أكثر أماكن المدينة أماناً على الإطلاق، وكان يتعين علي أن أدفع حوالي عشرين دولاراً شهرياً من أجل غرفة فارغة، والتي لم تكن أكثر من مجرد مخزن سابق، ولم تكن بها أية نوافذ

أو أضواء، ورغم ذلك فقد كان مسموحاَ لي بالجلوس في ردهة النزل. كان من المفترض أن أجرب السكن هناك ليومين، لكن في اليوم التالي قالت لي السيدة: «يمكن أن تختار المكوث هنا أو الرحيل الآن». ولأنني من ذلك النوع من الأشخاص الذين يتعلقون كثيراً بالآخرين أحببت تلك السيدة، وشعرت أني في منزلي حقاً أثناء وجودي معها، لكن السيد وايز الملحن طلب مني ألا أدفع لها أكثر من ستة عشر دولاراً شهرياً، وكان هذا هو كل المبلغ الذي تلقيته منه، وكذلك من السيد جولبرج، لذا لم يكن لدي أي فائض لأدفع مزيداً من النفقات الأخرى. أزعجني هذا الأمر في حد ذاته، وعندما غادرت المرأة المنزل ذات يوم، جلست ممدداً على الأريكة وأخذت أتأمل صورة زوجها المتوفى، لقد كنت طفولياً جداً، فعندما انهمرت الدموع على وجنتي حاولت أن أبلل صورة زوجها بها، فربما يشعر الرجل الميت بمدى ألمي وشقائي، وربما حينها تحاول روحه التأثير على قلب زوجته وتترفق بحالي قليلاً، فلابد أنها أدركت أني لا أملك المزيد. عندما عادت المرأة مجدداً قالت لي إنها تقبل أن تأخذ مني ستة عشر دولاراً فقط كأجرة شهرية مقابل تلك الغرفة، وحينها شكرت الرب، وكذلك شعرت بالامتنان لزوجها المتوفى. لاحقًا وجدت نفسي بين ألغاز مقاطعة كوبنهاجن، تلك الألغاز التي لم أكن قادراً أبداً على حلها.

ثمة شابة أخرى تسكن بمفردها في المنزل الذي استأجرت غرفة فيه، وكانت تقضي طيلة يومها تنتحب بشدة، وفي المساء كان يأتي والدها لزيارتها، وكنت أنا من يفتح له الباب عادة، وكثيراً ما رأيته يرتدي معطفاً عادياً مشدوداً إلى رقبته بينما كانت قبعته تتدلى فوق عينيه مخفية جزءاً منها. اعتاد تناول الشاي برفقة ابنته، ولم يكن أحد ليجرؤ على الحضور والجلوس معهما لأن الأب كان كارهاً للجلوس مع الآخرين والتفاعل معهم، وكذلك لم تبد ابنته سعيدة بقدومه يوماً.

بعد مرور عدة سنوات لاحقة تمكنت من صعود عتبة أخرى في سلم الحياة، وقد انكشف أمامي العالم المبهر عندما رأيت هذا الرجل الوقور العجوز في آخر القاعة المضيئة وكان هو نفسه صاحب المعطف الرث الذي كنت أفتح له الباب من قبل. لم يكن لديه أي فكرة أنني التقيته في السابق عندما كان ضيفاً، لكنني في ذلك الوقت لم أكن شخصاً ناضجاً بما يكفي فقد كنت طفلاً صغيراً فحسب، كل ما يهمني هو مسرح العرائس الخاص بي، وقد كنت أقوم حينها بصناعة ملابس الدمى ومن ثم كنت أبذل كل جهودي من أجل الحصول على تلك الأقمشة ذات الألوان المبهجة، وقد اعتدت الذهاب إلى المحلات والمتاجر من أجل الحصول على أقمشة وشرائط وأشياء من هذا القبيل.

لم أكن أملك حتى ربع بنس، فلقد كانت السيدة مالكة المنزل تتسلم أجرتها بشكل مسبق كل شهر، وعندما كنت أقوم ببعض المهمات في الخارج من أجلها كانت تعطيني شيئًا ما مقابل ذلك، وكنت أسارع بالذهاب فوراً لأنفق ذلك المبلغ الرمزي إما في شراء الورق أو في شراء الكتب المسرحية.

غمرني السرور للغاية في اليوم التالي عندما حث الأستاذ جولبرغ تلميذه ليندجرون، الذي كان ممثلاً كوميديا في المسرح، على أن يرشدني ويخبرني بأهم النصائح التعليمية في ذلك المجال، وقد بدأ بالفعل يعلمني ويعطيني المزيد من أدوار مسرحيات هولبرغ حتى أقوم بتأديتها على المسرح، فقد أعطاني دور هندريك، والولد السخيف، ومن الجدير بالذكر أن تلك الفرص أظهرت موهبتي. كانت أصدق رغباتي التمثيلية فيما بعد أن ألعب دور «كوريدجو»، وقد سمح لي أن أقوم بدراسة هذا الدور على طريقتي الخاصة، ورغم أن ليندجرون قد سألني بأسلوبٍ فكاهي إن كنت حقاً سأبدو شبيهاً بالفنان الشهير؟ فقمت بإلقاء خطاب مناجاة على مسامعه مستحضراً روح الفنان وصوره المعروضة، وصفق لي وربت على كتفي وقال: «أنت مفطورٌ على الإحساس الراقي، والرب وحده يعلم إن كانت لديك مواهب أخرى! أرجوك تحدث إلى جولبرغ عن مسألة تعليمك اللغة اللاتينية، هذا ما يمهد الطريق للتلاميذ دائماً». أجل أنا تلميذ! لم تغادر تلك الجملة فكري مطلقاً.

بات المسرح أكثر قرباً وأكثر قيمة بالنسبة لي، وكنت أريد تعلم اللاتينية منذ فترة طويلة، لكن قبل أن أخبر جولبرغ تحدثت أولاً بخصوص هذا الأمر مع تلك المعلمة التي ساعدتني في السابق في تحصيل بعض دروس اللغة الألمانية، فأخبرتني بأن اللغة اللاتينية واحدة من أعلى اللغات أجراً في العالم، وأنه لا يمكنها أن تقوم بتدريسها لي مجاناً، لكن جولبرغ استطاع لاحقاً تدبير دروسٍ لي مع أحد زملائه، والذي قام بتدريسي -بكرم- مرتين في الأسبوع.

استقبلني راقص البالية الشهير ومصمم الرقصات كارل داهلن في منزله، وقد كانت زوجته واحدة من أهم فنانات الدنمارك، قضيت مساءات مختلفة لاحقاً في منزلهما، وعاملتني زوجته الطيبة ذات القلب العطوف بكل حب واهتمام، وقد اصطحبني زوجها إلى مدرسة الرقص، والتي كانت بالنسبة لي الخطوة الأقرب إلى المسرح. قضيت صباحات كثيرة في المسرح أتدرب برفقة فرقة كاملة، وعلى الرغم من حسن نيتي إلا أن داهلن توقع بأنني قد أحصل على دور ثانوي لا أكثر.

كل ما جنيته كان الأمل بظهوري في مساءٍ ما في خلفية المسرح، أو الحصول على دور ثانوي حتى، كنت قد شعرت بأنني أصبحت جزءاً من المسرح برغم أنني لم أعتل خشبته بعد.

ذات ليلة، قدم العرض الأوبرالي الكوميدي المعنون باسم «طائرا السافويارد الصغيرين»، وفي مشهد السوق، سمعت بأنه يمكن لأي أحد الصعود على المسرح، حتى الميكانيكيين، للمساعدة في ملء خشبة المسرح.

توردت وجنتاي بمجرد سماعي ذلك الخبر، وصعدت على الفور مع أولئك الأشخاص على خشبة المسرح. ارتديت لباسي (بدلتي الكنسية)، والتي لا تزال متماسكة، على الرغم من عملي في التنظيف والإصلاح. ومع تلك القبعة التي أخفت نصف وجهي تقريباً أدركت أن هيئتي كانت بائسة للغاية.

كنت واثقاً من مدى سوء ثيابي، وحاولت إخفاءها بقدر الإمكان، وخلال مساعي للقيام بذلك، كان جسدي يتمايل، لم يكن بمقدوري أيضاً أن أقف منتصب القامة، وذلك بسبب قصر بذلتي التي كبرت على ارتدائها، إلا أنني كنت أشعر يقيناً أن الناس ستسعد لرؤيتي. في تلك اللحظة لم أشعر إلا بالسعادة الغامرة لكوني واقفاً على المسرح لأول مرة، وتسارعت نبضات قلبي ثم جاء أحد المطربين، والذي كان مشهوراً حينها وأصبح منسياً اليوم، وأخذني من يدي وقام بتهنئتي على ظهوري الأول بسخرية قائلاً:»اسمح لي أن أقدمك للجمهور الدنماركي!»

وجذبني للأمام باتجاه أضواء المسرح. رأيت الناس يضحكون علي، شعرت بذلك في أعماق نفسي. انهمرت الدموع على وجنتي، وأفلت يده وغادرت المسرح تملؤني الحسرة.

بعد فترة قصيرة من ذلك قام المصمم داهلن بتصميم رقصة باليه تدعى الأرميدا، وكان لي دور صغير فيها، حيث إنني كنت أقوم بدور شبح، وخلال ذلك العمل تعرفت على زوجة الشاعر البروفيسور هيبرغ، والتي أصبحت لاحقاً فنانة قديرة لها مكانتها في المسرح الدنماركي. حين كانت صغيرة كان لها دور معي في ذاك العرض، وقد طبع اسمها واسمي على ورقة الفاتورة الخاصة بتذاكر المسرح.

كانت لحظة خالدة في حياتي عندما رأيت اسمي مطبوعاً على تلك الورقة، وقد حملتها برفقتي إلى الفراش، وأخذت في قراءة اسمي بالقرب من ضوء الشموع، باختصار، كنت سعيداً.

قضيت عامين في كوبنهاجن، وقد أنفقت ذلك المبلغ من المال الذي منح لي بالكامل، وكنت أخجل من أن أعرب عن رغباتي وحاجاتي، وانتقلت إلى منزل امرأة كان زوجها مالكاً لإحدى السفن التجارية الكبرى عندما كان لا يزال على قيد الحياة، سكنت في منزلها، ولم أحصل على شيء هنا إلا المسكن والإفطار، وكانت تلك أكثر أيامي قتامة وكآبة.

اعتقدت السيدة أنني كنت أخرج لتناول الغداء مع مجموعة من العائلات المتعددة، بينما كانت الحقيقة هي أنني كنت أتناول القليل من الخبز على أحد مقاعد الحديقة الملكية فقط، فنادراً ما كنت أتردد على المطاعم الرخيصة المتواضعة، وهناك اعتدت البحث عن أقل الأطباق تكلفة، ورغم أنني كنت حقاً في غاية البؤس إلا أنني لم أستوعب حجم معاناتي بشكل كلي.حرصت على إقامة علاقة صداقة سريعة مع كل شخص يتحدث إلي بود، وقد كان الرب برفقتي دائماً في غرفتي الصغيرة المتواضعة، قضيت عدة ليالٍ وأنا أدعو في صلواتي المسائية، وقد سألته بلهجة طفولية «هل ستتحسن الأمور؟»

في الواقع لقد كان لدي ذلك الشعور، وهو أن تلك الأزمات والظروف السيئة التي بدأت معي منذ اليوم الأول للعام سوف تستمر معي حتى نهاية العام، وكانت أعلى أمنياتي حينها أن ألعب دوري في تلك المسرحية.

وافق ذلك الوقت اليوم الأول في العام الجديد، وحينها تم إغلاق المسرح فلم يكن هناك سوى حمال نصف أعمى يجلس عند المدخل بينما كان المكان فارغاً تماماً من أي شخص آخر.

تجاوزته مهرولاً بدقات قلبٍ متسارعة، حتى وجدت نفسي وراء الكواليس وستائر المسرح، وتقدمت إلى الجزء المفتوح من المسرح، وسقطت على ركبتي في ارتباك، ولا أتذكر ما المقطع الشعري الذي قلته حينها، فكل ما أعرفه جيداً أنني تمتمت بكلمات الصلاة الربانية ثم خرجت باقتناع تام أني، ولأني صعدت المسرح في رأس السنة، سأكمل السنة كما بدأتها وأؤدي أدواراً كثيرة.

خلال إقامتي في مقاطعة كوبنهاجن، والتي استغرقت حوالي عامين، لم أذهب يوماً خلال تلك الفترة إلى أرضٍ مفتوحة، فأنا مثلاً لم أتوجه إلى الحديقة سوى مرة واحدة، واستغرقت وقتيٍ حينها متأملاً الناس وهم يمرحون ويستمتعون بكل وسائل الترفيه والتسلية، وفي ربيع العام الثالث، ذهبت لأتنزه صباحاً وسط تلك البقاع الخضراء.

خرجت لاحقاً متوجهاً إلى حديقة قلعة فريدريكسبيرغ الساحرة التي كانت المسكن الصيفي لفريدريك السادس، وقفت ساكناً. كانت الشمس تتخلل أوراق الشجر، وكانت هناك رائحة منعشة تملأ المكان، والطيور تغني، لقد وقعت أسيراً لتلك الأجواء وأخذت أصرخ في مرح واحتضنت أحد الأشجار وقبلتها.

«هل فقد ذلك الفتى عقله؟!» قالها أحد الرجال الذي كان واقفاً بالقرب منى والذي يعمل في حراسة القلعة، وحينها ركضت بعيداً بعد أن سمعته يتفوه بتلك الكلمات على الفور ثم عدت إلى المدينة لاحقاً بكل رزانة وهدوء.

بدأ صوتي تدريجياً خلال ذلك الوقت الراهن في استعادة عافيته، وقد سمعني رئيس قسم الغناء في الجوقة المدرسية ومن ثم عرض علي الذهاب إلى مدرسته معتقداً بذلك أن غنائي مع الفرقة سوف يساعدني على تطوير مهاراتي على المسرح، وقد ظننت بناء على ذلك بأن هناك باباً جديداً قد فتح ذراعيه من أجلي.

انتقلت من مدرسة الرقص إلى مدرسة الغناء ثم انضممت إلى الجوقة الموسيقية وقمت بدور راعي أغنام ثم محارب. لقد كان المسرح هو عالمي، وقد منحت الإذن بالذهاب إلى الأوركسترا، ولكن لم يسر ذلك بشكل جيد بسبب ضعف لغتي اللاتينية، ولكنني لاحقاً سمعت الكثير من الناس يقولون إن اللغة اللاتينية لا تعد مطلباً أساسياً من أجل الغناء في الجوقة الموسيقية، ومن دون معرفة تلك اللغة سيكون أمراً سهلاً حقاً أن أصبح ممثلاً عظيماً، فكرت في الأمر واعتقدت أن ما سمعته منطقي، وبناء على ذلك فقد اعتدت بسبب أو بدون سبب على التملص من درس اللغة اللاتينية المسائي.

كان جولبرغ واعياً لهذا الأمر، حتى إنني تلقيت توبيخه لأول مرة في حياتي، مازلت أذكر أن كلماته تلك حطمتني. أدركت حينها بكل يقين أنه ما من شيء يفوق عذاب المجرم الذي يستمع إلى حكم الإعدام. انعكس ألمي جلياً على وجهي، فقال لي جولبرغ «حاول ألا تتصرف بتلك الطريقة الكوميدية!».

في الواقع لم أكن أتصرف بطريقة كوميدية على الإطلاق! لن أتعلم اللاتينية بعد الآن. شعرت باعتمادي الكلي على عطف الآخرين بطريقةٍ لم أعهدها من قبل، حتى إنه أصبحت لدي أفكار ضبابية وسوداوية حول مستقبلي القادم لأنني، وعلى الرغم من كوني في حاجة ماسة لتلبية كل احتياجاتي ورغباتي في الحياة، إلا أنني كنت طائشاً كالأطفال.

كانت أرملة رجل الدولة الدنماركي الشهير كريستيان كولبجورنسين وابنتها من سيدات الطبقة الراقية النبيلة اللواتي كن قد عقدن صداقة طيبة معي، واعتدن الاستماع إلي بتعاطفٍ واضحٍ، وكذلك اعتدت على رؤيتهن مرات عديدة.

أقامت السيدة فون كولبجورنسين في باكيهوس خلال فصل الصيف، هناك أيضاً حيث عاش الشاعر الشهير رابك وزوجته الفاضلة، وفي الواقع رغم أن الشاعر رابك لم يتحدث إليّ يوماً إلا أن زوجته العزيزة كانت تستمتع بقضاء وقتها برفقتي.

في ذلك الوقت عدت إلى الكتابة مرة أخرى، وتمكنت من إنتاج مسرحية تراجيدية جديدة، وقرأتها لها بصوتٍ عالي، ولكن بعد استماعها إلى المشاهد الأولى من هذا العمل المسرحي، قالت لي: «لكنك قمت باقتطاع مشاهد كاملة من مسرحيات آدم أولينشلاغر، وكذلك مسرحيات إنجيمان».

«أجل ولكنها مقاطع جميلة!» قمت بالرد عليها بكل بساطة وسذاجة وواصلت قراءتي.

في أحد الأيام، وبينما كنت في طريقي إلى منزل السيدة فون، أعطتني السيدة زوجة الشاعر رابك حفنة من الزهور وطلبت مني أن أقوم بتوصيلها إلى السيدة فون، وقالت لي:

«سيكون من اللطيف حقا أن تحصل على تلك الأزهار من يد شاعر!».

رغم أنها تفوهت بتلك الكلمات بلهجة نصف مازحة إلا أن هذه المرة كانت المرة الأولى التي يصفني فيها أحدهم بالشاعر! اخترقت تلك الكلمات روحي وجسدي، وبللت الدموع عيني، أدركت منذ تلك اللحظة أنني سأركز كلياً على الكتابة والشعر، رغم أنني لم أكن مهتماً بها من قبل إلا لإضفاء وسائل تسلية أخرى بجانب مسرحي للعرائس.

عاش في باكيهوس أيضاً البروفيسور ثييل، والذي كان طالباً صغيراً في ذلك الوقت، ومع ذلك كان محرراً لمجلة «الأساطير الدنماركية الشهيرة»، وكان معروفاً لدى العامة بالرجل الذي حل لغز بيجسن، وبكتابة الشعر الجميل. كان الرجل محملاً بالشاعرية والإلهام والعواطف الصادقة، وتمكن من مراقبة حالتي الفكرية وشهد تطورها حتى تلك اللحظة التي زاد خلالها إعجابه بي ومن ثم أصبحنا أصدقاء منذ ذلك الحين. كان أحد القلائل الذين تحدثوا عن حقيقتي بينما كان الجميع لا يرونني إلا كمصدر للسخرية.

أطلق عليّ الآخرون اسم «الخطيب الصغير»، وقد كنت موضع فضولهم ومراقبتهم، كانت تسليهم رؤيتي، لكني أخطأت كلياً في فهم ما تعنيه ابتساماتهم ونظراتهم المخادعة. أخبرني أحد أصدقائي اللاحقين أنه في هذه الفترة من حياتي رآني لأول مرة. كنت حينها في صالون أحد التجار حيث كان الحضور مبتهجين بموهبتي، وطلبوا مني تكرار إحدى قصائدي. وبينما أنا منهمك في إلقائها، تحولت سعادتهم وبهجتهم إلى شفقة.

سمعت هذا الحديث مراراً بأنه سيكون من الجيد إن قمت بالدراسة، وقد نصحني الناس من حولي أن أكرس جهودي لدراسة العلوم إلا أنه لم يقم أحدهم بأي حركة فعلية لمساعدتي على القيام بذلك. وأنا بالكاد أمتلك من المال ما يبقيني على قيد الحياة.

فكرت في كتابة مسرحية تراجيدية وعرضها على المسرح الملكي، وفكرت أنه ربما حينها أستطيع كسب بعض المال الذي من شأنه أن يساعدني على تحصيل ذلك التعليم الذي أريده.

كان جولبرغ يعلمني باستخدام اللغة الدنماركية، قمت بكتابة مسرحية تراجيدية مقتبسة من قصة ألمانية، وكان اسمها «كنيسة وسط الغابة»، لكنها كانت مجرد تدريب على الكتابة باللغة الألمانية لصقل مهاراتي الخاصة، ولأن جولبرغ كان قد منعني من نشر تلك المسرحية وإظهارها للنور فلن أقوم بذلك.

حاولت إنتاج عملي الخاص، وخلال أربعة عشر يوماً كنت قد انتهيت من كتابة مسرحيتي التراجيدية الوطنية «صوص ويسينبرغ» (سميت بذلك الاسم نسبة إلى قرية صغيرة في مقاطعة فين) كان هناك الكثير من الأخطاء في تلك المسرحية، ولم يساعدني أحد؛ لأنني أردت أن أقدم مسرحيتي دون الكشف عن هويتي، لكنني أخبرت شخصاً واحداً بسري، إنها الفتاة الشابة التي التقيتها خلال وجودي في أودنسه خلال قيامي بالتحضيرات التي تخص المراسم الكنسية. كانت الإنسانة الوحيدة التي عاملتني بلطف وطيبة خلال ذلك الوقت، ومن خلالها تعرفت على عائلة كولبجورنسين، وبعدها تعرفت على تلك الأوساط والدوائر الاجتماعية التي قادت كل منها إلى الأخرى.

دفعت تلك السيدة بعض المال لأحدهم حتى يقوم بتنقيح وتحرير مسرحيتي وحتى يقوم بتجهيزها ليطلع عليها الآخرون، وبعد فترة انقطاع زمني بلغت حوالي ستة أسابيع، تسلمت كتابي برفقة خطاب يقول بأن الناس عادة لا يتذكرون الأعمال التي تفتقر إلى المعرفة الأولية بشكل واضح.

جاء ذلك تزامناً مع انتهاء الموسم المسرحي في أيار سنة 1823، وحينها تلقيت خطاباً من المدير يقول فيه إنني مفصول من مدرسة الغناء والرقص، وقد أضاف الخطاب أيضاً أن مشاركتي في دروسهم لن تضيف لي شيئاً على الإطلاق، لكن القائمين على الأمر أعربوا عن أمنياتهم في أن أجد دعماً أو مساعدة من بعض أصدقائي، قد تمكنني من تلقي تعليم في مكان لا يكترث للمواهب.

مجدداً وجدت نفسي وحيدًا أمشي على غير هدى منطلقاً نحو هذا العالم الواسع دون أية مساعدة أو دعم، ووجدت أنه من الضروري حقاً أن أقوم بكتابة عمل من أجل المسرح، وبأنه يتعين أن يلقى ذلك العمل قبولاً، كان هذا هو خلاصي الوحيد حينها!

ولهذا قمت بكتابة مسرحية تراجيدية اقتبست من أحد المقاطع التاريخية، وأسميتها «الفصول»، وكنت سعيداً للغاية بمشهدها الأول، وقمت فوراً بالذهاب إلى السيد وولف -المتوفى الآن- والذي قام بترجمة أعمال ويليام شكسبير، ذلك الرجل الذي كان يحب الإصغاء إلي، وبعد مرور سنوات أخرى لاحقة تم استقبالي بحفاوة بالغة من قبل أفراد عائلته العزيزة. في تلك الأثناء أيضًا تعرفت على الفيزيائي الشهير أوريستد، فقد ظل منزل السيد وولف مركزاً للمحبة والألفة على الدوام، تعلق قلبي به كثيراً، وهناك تمكنت من تكوين صداقاتي وعلاقاتي الأعمق.

كان القس جوتفيلدت يعيش هناك في ذلك الوقت، وكان هو من عمل جاهداً لمساعدتي في مسرحيتي التراجيدية، وقام بإرسال خطاب توصية لمديري المسرح، وقد وجدت نفسي مترنحاً في تلك الأثناء بين الأمل والخوف، وداهمني شعور قوي بالمرارة لكني لم أخبر به أحداً، حتى القلة من الناس الذين قد شعرت بتعاطفهم معي من قبل.

منعني شعوري بالخزي من البوح بأي شيء، إلا أنني كنت لا أزال أشعر بالسعادة لأنني تمكنت ولأول مرة من قراءة أعمال والتر سكوت والتي فتحت لي عالماً جديداً، ومن ثم فقد نسيت الواقع بكل ما فيه وأطلت البقاء في المكتبة العامة، كان يجدر بهم تقديم وجبة العشاء لي!

كان مستشار المؤتمر الحالي السيد كولين هو أحد رجال الدنمارك البارزين. كان رجلا بارعاً طيباً للغاية، وكان قدوتي في كل شيء، وكان بمثابة أب ثانٍ لي، كما أن أولاده كانوا بمثابة أشقائي. نظرت إلى ذلك الرجل البارز نظرة تقدير منذ أن رأيته للمرة الأولى.

عمل ذلك الرجل كمدير للمسرح الملكي في تلك الفترة الزمنية، وكان العديد من الأشخاص قد أخبروني بأنني سأكون محظوظاً إذا ما جذبت اهتمامه، وما أعرفه أنه ربما قام أوريستد أو جوتفيلدت بالتوصية بي لديه، وها أنا للمرة الأولى أذهب إلى هذا المنزل الذي أصبح عزيزاً جداً بالنسبة إليّ.

يقع المنزل قبالة أسوار كوبنهاجن الممتدة، أمام البوابة الرئيسية، وكان بمثابة منزل صيفي للسفير الإسباني، وأما الآن وقف كأحد المباني الخشبية المائلة في شارع محترم. تقود إلى مدخل المنزل شرفة خشبية قديمة، وفي ساحة الفناء شجرة خضراء.

كان هذا المنزل أشبه ما يكون بالوطن بالنسبة لي، ومن منا بمقدوره مقاومة شعور الانجذاب إلى مكانٍ دافئ يشعره بأنه مكانه الذي ينتمي إليه؟

عرفت معنى رجل الأعمال في شخصية كولين فقط، فقد كانت كلماته وحواراته مقتضبة وموجزة، كنت أيأس بعد محادثته ولم أتوقع منه إبداء أي تعاطف، لكنه على النقيض كان يفكر في مصلحتي ويعمل على خدمتي سراً كما اعتاد دوماً أن يفعل من أجل خدمة الآخرين على هذا النحو خلال سنوات حياته بأسرها.

في الواقع لم أكن متفهماً لتلك الحالة من الهدوء والسكون الظاهرية التي كانت تنعكس عليه أثناء الاستماع إلى شكاوى ومشكلات الآخرين، بينما كان قلبه يعتصر ألماً من الداخل من أجل هؤلاء، فقد كان يعمل بكل جهد وحماس من أجلهم، وعرف جيداً في أعماقه كيف يمكنه مساعدتهم. استهان بمسرحيتي التراجيدية، والتي تم إرسالها له في وقت سابق، ولأنني كنت قد استقبلت المزيد من الآراء التي تمتدح مسرحيتي تلك، شعرت حينها بأن السيد كولين كان أقرب إلى صورة عدوي من صورة الحارس الذي كان ينشد حمايتي.

في غضون أيام قليلة أخبرني مديرو المسرح أن الشاعر رابيك قام بإعادة مسرحيتي إلي مرةً أخرى بعد أن وصفها بأنها عديمة الجدوى، وصرح الشاعر أنه بعد أن قام بدراسة العمل بشكلٍ جاد، وعلى الرغم من وجود إمكانيات جيدة، اكتشف أن العمل لا يصلح في الوقت الحالي، لكنه أوضح أني إذا ما ذهبت إلى المدرسة فسأكون قادراً يوماً ما على كتابة عمل جاد حقيقي يستحق فعلاً أن يعرض على خشبة المسرح الدنماركي.

ولكي أتمكن حقاً من الحصول على الدعم والتعليمات، قام السيد كولين بترشيحي للملك فريدريك السادس، والذي خصص مبلغاً مالياً محدداً من أجلي لأحصل عليه سنوياً، وبمساعدة كولين أيضاً سمح لي مدير المدرسة النحوية في سلاجيلس بتلقي تعليمي مجاناً، وجاء ذلك تزامناً مع تعيين أحد القساوسة النشيطين أيضاً. في الواقع لقد كنت مندهشاً جداً، فلم أكن أعرف فعلا أن حياتي ستأخذ ذلك المنحنى، خصوصاً أنه لم يكن لدي أدنى فكرة عن الطريق الذي يتوجب عليّ اتباعه في ذلك الوقت.

كان عليّ أن أذهب باكراً إلى سلاكيلس، والتي تبعد اثني عشر ميلا عن كوبنهاجن، ذلك المكان الذي كان الشاعر بجسن وكذلك الشاعر إينجيمان قد ذهبا إليه وتلقى كل منهما دراسته فيه

كنت أتسلم مبلغا مالياً كل ثلاثة أشهر من السيد كولين، واعتمدت على مساعداته على الدوام في كل الأمور التي تتعلق بصناعتي وتطوري، وذهبت له في المرة الثانية حتى أعبر له عن شكري وامتناني الكامل. حدثني السيد كولين بطيبة واعتدال وقال لي:

«اكتب لي دون قيود عن كل شيء أنت بحاجة إليه، وأخبرني -من فضلك- كيف تسير الأمور معك؟».

منذ تلك اللحظة تحديداً نشأت بيننا علاقة صداقة وألفة عميقة الجذور، لا يمكن لأحد أن يكون أباً أفضل لي مما كان السيد كولين، فكنت أحكي له عن سعادتي بشكل تفصيلي، وكان يبتهج عندما أكون سعيداً، ويحزن لما يصيبني، وأنا فخور بأن أقول إن أحد أفضل من أنجبتهم الدنمارك كان يحبني كما يحب أبناءه.

حرص السيد كولين على مساعدتي والوقوف إلى جانبي من دون أن يحاول أبدًا أن يجعلني أشعر بالحرج أو الألم سواء بالكلمة أو بالنظرة. لم تكن تلك هي الحالة مع كل شخص التقيته، كانوا جميعاً يؤمنون باستحالة سعادتي وفقري، وعلى نقيضٍ ذلك فقد كانت كلمات السيد كولين نابعة من قلب أبٍ محب، وكنت مديناً له بكل شيء.

بدأت رحلتي بسرعة، وكان لدي بعض المهمات التي يتعين علي القيام بها في تلك الفترة، وقد تحدثت لأحد معارفي من أودنسه، والذي كان يعمل لدى أرملة تملك مطبعة صغيرة، إذ فكرت حينها في طباعة مسرحيتي المعنونة باسم «الفصول»، وأنه بناء على ذلك يمكنني أن أربح بعض المال، ولكن كان هناك شرط يقول بأنه يتعين أن يكون هناك مجموعة من المشتركين، الأمر

الذي لم يحدث، وقد نتج عن ذلك أن مخطوطتي ظلت حبيسة غرفة المطبعة خلال ذلك الوقت، وفي السنوات اللاحقة، وبشكل مفاجئ تمت طباعتها بنسختها غير المعدلة، وحدث ذلك دون معرفتي أو رغبتي وكذلك من دون اسمي!

في أحد الأيام الخريفية الجميلة سافرت مع إحدى العربات من كوبنهاجن لأبدأ حياتي المدرسية في سلاجيلس، وهناك التقيت أحد الطلاب اليافعين والذي كان قد اجتاز اختباره قبل شهر ثم سافر إلى دياره في جوتلاند كطالب مدرسي وأيضاً ليلتقي بأهله وأصدقائه، وقد جلس حينها إلى جواري في الصف، وأكد لي أنه لو كان مكاني لأحس حينها بأنه أتعس إنسان في العالم، كوني سأبدأ في دراسة النحو من المستوى الأول في هذا العمر المتأخر، لكني سافرت بقلب محب في وقت لاحق إلى مدينة زيلاند الصغيرة، وأرسلت إلى أمي خطاباً تتخلله البهجة والسعادة، والذي استقبلته على الفور، وكنت أتمنى حقاً في أعماق نفسي لو كان أبي وجدتي لا يزالان على قيد الحياة حتى الآن ليعرفا أني قد نجحت وتمكنت من الذهاب إلى المدرسة النحوية.

الفصل الثالث

وصلت مساءً إلى سلاجيلس، وسألت المضيفة إن كان هناك شيء مميز في تلك المدينة، فقالت لي: «أجل، هناك مضخة إطفاء الحريق الإنجليزية، وكذلك هناك مكتبة القس باستولم، وهذه على الأرجح أبرز معالم المدينة».

شكل عدد قليل من ضباط منطقة لانسرز طبقة تمثل الفئات الأكثر رقياً، فكان الجميع يعلمون بتلك الأمور التي وقعت في منازل الآخرين سواء كانت تتعلق بترقية أحد الطلاب أو تدهور أحواله، وغيرها من الأمور المشابهة. كان هناك أيضاً مسرح خاص سمح لطلاب المدارس الثانوية النحوية وكذلك لعمال النظافة بدخوله مجاناً للتدريب، وكان مكاناً خصباً للحوار. كان المكان بعيداً تماماً عن الغابات وعن الشاطئ، وكان طريق البريد في وسط المدينة، وكذلك كانت الأبواق تصدح على الدوام من عربات النقل المختلفة.

مكثت مع سيدة أرملة تنتمي إلى طبقة متعلمة، كانت تملك غرفة صغيرة تطل على الحديقة والحقل، كنت الأكثر تدنياً من حيث المستوى التعليمي، وكنت أتلقى دروسي مع الطلاب الصغار. في الواقع لم أكن أعرف أي شيء على الإطلاق.

كنت أشبه بطائر بري تم احتجازه في قفص ما، كانت لدي رغبة كبيرة لأتعلم لكنني تعثرت وكأنه تم إلقائي في البحر، فالموجة الأولى تلحق الثانية، قواعد النحو، والجغرافيا، والرياضيات، وشعرت حينها بأن تلك المواد مجتمعةً قد قهرتني، وخشيت حقاً ألا أتمكن من تحصيلها علمياً، حتى إن عميد المدرسة كان قد اعتاد أن يتعامل مع الجميع بشكل ساخر، ولم أكن استثناءً بالنسبة إليه.

كنت أراه كالآلهة، وقد آمنت في قرارة نفسي حقاً بكل كلمة قالها لي. فذات يوم كنت قد أجبت سؤاله بشكل خاطئ، وحينها وصفني بأني «غبي»، وقد أخبرت السيد كولين بذلك خشيةً من أن أكون حقاً بمثابة الشخص الذي لا يستحق فعلاً كل تلك الجهود التي بذلت من أجله، ولكن كولين قام بمواساتي، وبفضل مساعدته وتشجيعه لي واتباعي تعليماته تمكنت من النجاح والحصول

على شهادة جيدة، وبدأ الجميع يعاملني بلطف، إلا أنني وبرغم تقدم مستواي، فقدت ثقتي في نفسي يوماً بعد يوم.

لاحقًا، امتدحني عميد المدرسة لنجاحي في اجتياز الاختبارات الأولى، وقد قام بكتابة إشادته تلك في دفتر ملاحظاتي الخاص، وعدت بعدها بأيام قليلة إلى كوبنهاجن سعيداً.

استقبلني جولدبيرغ بحرارة وقد لاحظ التقدم الذي أحرزته وأثنى على همتي وساعدني أخوه أيضاً بالتحضير لزيارة إلى مسقط رأسي، تلك الأرض التي لم أذهب إليها منذ أن غادرتها بحثاً عن المغامرة.

عبرت مضيق الحزام الكبير، ومشيت سيراً على الأقدام متوجهاً إلى أودنسه، وعندما اقتربت من برج كنيستنا القديم تسارعت نبضات قلبي، وشعرت حينها برعاية الرب ثم انفجرت باكياً.

عانقتني أمي مبتهجة، واستقبلتني عائلات إيفرسون، وغولبرج بكل حفاوة، وقد قام أهالي الحي بفتح نوافذهم الصغيرة لمشاهدتي حيث كان جميعهم يعرف جيداً أن الأمور قد سارت معي بشكل جيد عندما كنت خارج البلدة، وقد شعرت بأنني أكثر الناس حظاً عندما قام أحد مواطني البلدة الأصليين بأخذي للصعود إلى ذلك البرج الذي كان قد قام ببنائه أعلى منزله.

أخذت أتأمل المدينة، وكذلك تلك الأماكن المحيطة بها، وأولئك النساء العجائز الموجودات في أسفل المستشفى، اللاتي عرفنني منذ طفولتي، وها هن الآن يشرن نحوي.

بمجرد عودتي إلى سلاجيلس، تلاشت هالة المجد التي كانت تحيط بي. شعرت حينها أنه يمكنني الاعتراف بكوني أصبحت شخصاً مجتهداً، وقد ساعدني ذلك التطور على الانتقال إلى صف متقدم، ولكن كلما زاد تطوري كلما زادت أعباء تلك الضغوط وتركت آثارها على نفسي، وفي ذلك الحين شعرت يقيناً أن كل جهودي باتت غير مجدية.

في تلك الأمسيات التي كنت أشعر فيها بأن النوم كاد يتغلب علي كنت أذهب على الفور من أجل غسل رأسي بالماء البارد، أو كنت أركض حول الحديقة الصغيرة المنعزلة، وعندما أستعيد نشاطي وحيويتي كنت أعود لمحاولة فهم واستيعاب الكتاب مرة أخرى.

من الناحية الأخرى، كان عميد المدرسة يقضي وقته في التدريس ملقياً بالمزيد من النكات والدعابات والشتائم، كنت أشعر حينها بأن التوتر كبلني تماماً تحديداً منذ تلك اللحظة التي كان يدخل فيها إلى الغرفة، وقد تسبب ذلك في جعلي أشعر بالارتباك الواضح ومن ثم فقد كنت أعبر عن أشياء تناقض تماماً تلك الأشياء التي كنت أشعر بها، وهذا ما زاد من حدة توتري، وكنت أتساءل في عجب:

ما الذي حدث لي؟

في أحد الأيام اللاحقة كان مزاجي سيئاً، وقمت بكتابة خطاب إلى مديري، الذي كان أحد المعارضين الودودين لي، وقد أخبرته في هذا الخطاب أنني أعتبر نفسي أحد الأشخاص القلائل ممن يمتلكون موهبة طبيعية، وأن الدراسة صعبة جداً علي، وأن أهالي كوبنهاجن قد أضاعوا أموالهم في مساعدتي، وكذلك طلبت منه أن يرشدني إلى فعل الصواب، وطلبت منه إسداء نصيحته لي، وقد دعمني ذلك الرجل الرائع وعزز موقفي، وأرسل لي خطابًا جيداً ليواسيني، أكد لي فيه أن عميد المدرسة يعاملني بطيبة لكن مسألة السخرية وإلقاء النكات تلك هي إحدى عاداته وجزء من شخصيته وأسلوبه الخاص، وقال لي أيضاً إنني كنت أحرز تقدماً ملحوظاً وإنني لست في حاجة لأن أشكك في قدراتي الخاصة، وقد أخبرني أيضاً أنه كان يوماً ما أحد الفلاحين الشباب وتمكن في سن الثالثة والعشرين من الدراسة لأول مرة.

كانت مشكلتي المزمنة حينها أنني اعتقدت أن زملائي سوف يتعاملون معي بطريقة مختلفة، ولكن هذا الأمر نادراً ما كان يحدث في المدرسة، وشيئاً فشيئاً بدأت الأمور تتحسن ونلت تقدير كلاً من المعلمين والزملاء.

اعتدنا الذهاب إلى المدينة للاستماع إلى خطبة الوعظ التي كان يلقيها أحد القساوسة الكبار، ورغم ذلك كان بعض الطلاب يقضون ذلك الوقت المخصص للخطبة في دراسة التاريخ والرياضيات، ولكني أوليت تعلم واجباتي الدينية اهتماماً في ذلك الوقت، ظناً أني بذلك سأكون أقل إثماً. كانت بروفات المسرح الخاص بمثابة نقاط مضيئة خلال حياتي المدرسية، وكانت تقام خلف المبنى الرئيسي، هناك حيث يرتفع خوار الأبقار حتى يصل إلى آذان الجميع، وكذلك كان شكل الشارع يتمثل في صورة أحد الأسواق في المدينة، وربما كان لهذا علاقة مباشرة بطبيعة ومضمون التمثيلية، وقد كان الأهالي سعداء فعلاً برؤية صور منازلهم خلال العرض المسرحي.

وفي ظهيرة يوم الأحد، كان من دواعي سروري حقاً الذهاب إلى قلعة أنتفورسكوف. كانت القلعة نصف مدمرة وقتها، وكانت ديراً أنقب عن سراديبها المتهدمة كما لو كانت بومباي.

كنت أذهب أيضاً هائماً على وجهي في كثير من الأحيان إلى تلك المنطقة المؤدية إلى النصب القديس أندروس التذكاري، والذي تمت إقامته على مرتفعات سلاجيلس وقد تمت صناعة صلبانه الخشبية خلال فترة وجود الطائفة الكاثوليكية في الدنمارك.

كان القديس أندروس قساً في سلاجيلس وقد سافر إلى الأرض المقدسة، وفي اليوم الأخير ظل يصلي هناك بالقرب من القبر المقدس حتى إن السفينة أبحرت وغادرت من دونه، وفي تلك الأثناء شعر الرجل بالغضب ومشى بمفرده نحو الشاطئ، حيث التقى رجلاً يركب حماراً واصطحبه برفقته.

ولما استيقظ بعد أن غط في نوم مفاجئ، سمع أصوات أجراس كنيسة سلاجيلس، وصعد ليتمدد أعلى التلة ٍ ويرتاح -في ذلك المكان الذي يوجد فيه الصليب في الوقت الراهن- والشيء الإعجازي في تلك القصة التي يرويها الكثير أنه قد وجد أنه عاد إلى الديار قبل عام من عودة تلك السفينة التي غادرت في السابق من دونه، وتقول الأسطورة إن أحد الملائكة قام بحمله إلى موطنه.

كان مكان وقوع تلك الأسطورة، وكذلك المكان الذي استيقظ فيه ذلك الرجل الصالح من أكثر الأماكن المفضلة بالنسبة لي، وفي تلك البقعة تحديداً كان بمقدوري رؤية المحيط ومقاطعة فين، هناك حيث كنت أغرق في خيالاتي بينما كان الشعور بالواجب يكبلني أثناء وجودي في منزلي الحالي، فقد كانت أنشطتي في تلك المنطقة قاصرة فقط على كتبي.

كانت أسعد أوقاتي على الإطلاق عندما ذهبت إلى مدينة سورو، التي كانت تبعد ميلين عن سلاجيلس، هناك حيث كست الخضرة الغابات، وأحاطت بالبحيرات من كل الجهات. كذلك كانت توجد أكاديمية مخصصة لطبقة النبلاء، والتي أسسها الشاعر هولبرغ، وقد عم السكون ذلك المكان كما في حياة الرهبان في الدير. قمت بزيارة الشاعر إنجيمان والذي كان قد تزوج حديثاً وعمل مدرساً، استقبلني الرجل بحفاوة فاقت حفاوته بي عندما كنت في كوبنهاجن.

بدت لي حياته في هذا المكان كقصة جميلة، حيث كانت الأزهار تلتف حول نوافذه، وقد تم تزيين وزخرفة الغرف أيضاً بعدد من اللوحات الفنية لمجموعة من الشعراء البارزين المرموقين.

أبحرنا حول البحيرة وتحدث إنجيمان بابتهاج شديد، وكذلك عاملتني زوجته الموقرة الفاضلة بطريقة ودودة جيدة كما لو كانت أختاً كبيرة لي.

أحببت هؤلاء الناس فعلاً، وتوطدت صداقتي بهم عبر السنين، ومنذ تلك اللحظة أصبحت صديقاً مرحباً به هناك، وأدركت أن هناك أشخاصاً يجعلون المجتمع أفضل، يخلو من المرارة ويغمره نور الشمس.

من الجدير بالذكر أنه كان هناك شخصان فقط بين كل تلاميذ أكاديمية طبقة النبلاء تلك ممن يملكون القدرة على صياغة الأبيات والمقاطع الشعرية، وكانا يعرفان أنه بمقدوري أنا الآخر القيام بذلك الأمر لذا قاما بملازمتي طوال الوقت. كان الشخص الأول من بينهم هو بتيت؛ ذلك الذي تمكن لاحقاً بنوايا حسنة لكن دون إخلاص في ترجمة العديد من كتبي، بينما كان الشخص الآخر هو كارل باغر، الذي كان أحد أهم الرجال الموهوبين في الأدب الدنماركي، ولكنه مع الأسف لم يحصل على نقدٍ عادل يليق به.

اتسمت قصائده بالأصالة والتجدد، وكان كتابه المعنون باسم «قصة حياة أخي» كتاباً رائعاً، ولكن النقد الذي حصل عليه من جانب إحدى المجلات الدنماركية الشهرية، قد أوضح أن أصحاب ذلك النقد لا يفقهون شيئاً في هذا المجال.

رغم كل هذا إلا أنني كنت مختلفاً تماماً عن هذين الشخصين، فقد كان كلاهما متدفق الحيوية متجدداً بينما كنت أنا شاعرياً وطفولياً بعض الشيء، فقد كان التقييم الدائم الذي أحصل عليه هو «جيد بشكل استثنائي»، وذات مرة حصلت على تقييم «جيد جداً» فقط، وحينها كنت طفولياً وقلقاً وكتبت خطاباً إلى السيد كولين خلال ذلك الوقت أحكي فيه ما حدث، وأخبرته بجدية تامة أنني بريء من هذا التقييم الذي لم أستحقه.

في تلك الأثناء كان السيد عميد المدرسة قد سئم كلياً من إقامته في سلاجيلس، وحينها قدم طلباً من أجل الحصول على وظيفة شاغرة في هيلسينجور، وقد استطاع الحصول على تلك الوظيفة بالفعل.

أخبرني بذلك وطلب مني أن أرسل خطاباً إلى السيد كولين وأخبره فيه أني أرغب في مغادرة هذا المكان وأن أذهب برفقة عميد المدرسة إلى هناك حيث يمكنني الإقامة في منزله برفقة عائلته.

هذا سيمكنني من أن أصبح طالباَ متخصصاَ في ستة أشهر، هذا الأمر الذي ما كان له أن يحدث إن بقيت هنا، وكذلك أخبرني عميد المدرسة أنه سيقوم بإعطائي دروساً خصوصية في اللغة اللاتينية واليونانية، وفي تلك المناسبة تحديداً قام العميد بكتابة خطاب إلى السيد كولين -ذلك الخطاب الذي رأيته فيما بعد- يشيد فيه بمجالي، وبمقدار ذلك التطور والتقدم الذي قمت بتحقيقه، وكذلك امتدح فيه قدراتي وإمكانياتي الجيدة، ذلك الأمر الذي كنت أظن في السابق أنه قد تجاهله أو غفل عنه، والذي تسبب في معاناتي وبكائي في أحيان كثيرة.

لم يكن لدي أية فكرة أن عميد المدرسة كان قد قيم أدائي في السابق على هذا النحو الإيجابي الواضح، لو كنت أعرف ذلك لكان هذا الأمر أراحني وأشعرني بالقوة والدعم، ولكن على النقيض، أزعجني لومه الدائم وأحبط عزيمتي.

لاحقًا تسلمت إذن السماح من السيد كولين، وبناء عليه توجهت إلى منزل السيد عميد المدرسة، الذي كان منزلاً مشؤوماً.

رافقته إلى هيلسينج والتي تعد أحد أفضل الأماكن في الدنمارك، بالقرب من مضيق أورستند الأزرق الممتد بين الدنمارك والسويد، هناك حيث أبحرت مئات السفن من دول العالم المختلفة يومياً، وفي فصل الشتاء كان الجليد يشكل جسراً صلباً بين البلدين، وعندما تنفصل الثلوج في الربيع وتذوب، كان المنظر أشبه بالكتل الجليدية العائمة.

ترك ذلك المشهد الطبيعي انطباعاً عميقاً على نفسي، ولكن كل ما كان بمقدوري حينها هو أن أختلس النظر إليه فقط، وعندما كانت ساعات الدراسة تنقضي كنت أجد باب المنزل مغلقاً على الدوام، و كنت حينها مجبراً على المكوث داخل غرفة الدراسة مرتفعة الحرارة أدرس اللغة اللاتينية أو ألعب مع الأطفال أو أجلس في غرفتي الصغيرة، ولم أكن أذهب أبداً لزيارة أحد، وقد عكست تلك الفترة من حياتي المزيد من الأحلام الشريرة الشيطانية التي بدأت في مراودتي، والتي كادت أن تتغلب علي نهائياً، حيث إنني كنت أصلي وأدعو الرب كل ليلة أن يريحني من هذه الحياة المؤسفة.

لم تكن لدي ذرة ثقة بنفسي، ورغم ذلك كله لم أذكر هذا الأمر تماماً في رسائلي مع الآخرين، ولم أكن اشكو لأحد إلا لنفسي فقط، ولم أذكر لأي أحد عن مدى صعوبة وضعي ذاك حيث كان عميد المدرسة يجد لذة في السخرية

مني على الدوام، وكان يجعل مني أضحوكة، كنت أعلم جيداً في قرارة نفسي أنني لو أخبرت أحداً بذلك كان أهالي كوبنهاجن سيقولون على الفور:

«إن هذا الفتى لا يملك الرغبة لإنجاز أي شيء على الإطلاق، فهو مجرد كائن خيالي غير قادر على التعامل مع الحقائق والأمور الواقعية».

تلك الرسائل التي قد عكفت على كتابتها للسيد كولين خلال هذه الفترة الزمنية على وجه التحديد قد كشفت عن حالتي النفسية السيئة ويأسي البالغ، ذلك الأمر الذي قد لمسه بشدة، ولكن الناس من حوله تخيلوا أنه لم يكن هناك أي حاجة لمساعدتي، وأن ما حدث ما هو إلا نتيجة مباشرة لتصرفاتي وأفكاري الداخلية، ولكن حقيقة الأمر أنني لم أكن قادراً على الاستمتاع والشعور بالسعادة إلا في يوم واحد في إجازتي كلها، والذي كنت أذهب خلاله إلى كوبنهاجن.

كان حجم التغيير الذي أحدثه خروجي من منزل عميد المدرسة إلى منزل في كوبنهاجن كبيراً، حيث الأناقة والنظافة وسبل الراحة الخاصة بالحياة الرفيعة، كان هذا منزل الأدميرال السيد وولف، والذي استقبلتني فيه زوجته بحب أم، وأطفاله ببهجة.

كانوا يسكنون في جزء من قلعة أمالينبرغ، وكانت غرفتي مطلة على الساحة. مازلت أذكر أول أمسية هناك، تذكرت كلمات علاء الدين، عندما نظر أسفل قلعته الخاصة وقال «أتيت هنا كشاب فقير»، لقد كان قلبي مليئاً بالامتنان طيلة فترة بقائي في سلاجيلس، كتبت سراً أكثر من أربع أو خمس قصائد. إحداها كانت «الروح» والأخرى «إلى أمي»، والتي سيتم عرضها ضمن أعمالي المجموعة.

في فترتي الدراسية في هيلسينجور لم أكتب سوى قصيدة واحدة «الطفل المحتضر»، قصيدة اشتهرت بعد فترة من بين كل أعمالي اللاحقة ولاقت قبولاً من الناس.

قرأتها لزملائي في كوبنهاجن، البعض فوجئوا بها، والبعض الآخر لم يلحظ إلا لهجة جزيرة فونين الواضحة في أغلب كلماتي، وأجمع الكثير منهم بأنه لا ينبغي لي الاعتداد بنفسي الآن، وألقوا علي دروساً عن التواضع، في الحقيقة، لم أكن أشعر بأني مهم على الإطلاق في ذاك الوقت.

في منزل السيد وولف، التقيت عدداً من أصحاب الموهبة البارزة والمكانة المرموقة، وقد أبديت اهتماماً أكبر بالشاعر آدم أولينشل جير، وقد كانت إشادته تتردد على كل الألسنة من حولي، ونظرت إليه بكل حب وإيمان، وكنت سعيداً جداً عندما تعرفت عليه في أحد تلك المساءات عندما كنت أجلس في غرفة الصالون المضاءة جيداً وحينها علمت يقينًا أن ثيابي الرثة تلك هي الأكثر تواضعاً في المكان، وبناء على ذلك فقد بذلت قصارى جهدي من أجل إخفاء نفسي خلف ستائر الغرفة الطويلة.

كدت أن أقع على ركبتي في تلك اللحظة التي مد فيها الشاعر المرموق آدم أولينشل جير يده من خلف الستار لمصافحتي، وقد رأيت وايز وسمعته يعزف ارتجالياً على البيانو، وقد قرأ وولف ترجمات جورج بايرون، وفاجأتني ابنة الشاعر آدم أولينشل جير «تشارلوت» بمرحها وحس دعابتها.

بعد انقضاء ذلك اليوم عدت إلى منزل عميد المدرسة، وبمجرد وصولي إلى هناك استشعرت الفارق الكبير الذي شعرت به في المنزل الآخر، في تلك الأثناء أيضاً كان السيد العميد قد عاد لتوه من كوبنهاجن، وسمع هناك بأنني قمت بقراءة قصائدي برفقة مجموعة من الشعراء والأشخاص الآخرين، وحينها نظر إلي نظرة ثاقبة كادت أن تخترقني، وأمرني أن أحضر له تلك القصيدة التي قمت بقراءتها هناك، وأخبرني أيضاً أنه ربما سوف يسامحني إذا عثر في تلك القصيدة على أية شرارة شعرية. أحضرت له قصيدتي المعنونة باسم «طفل يحتضر» بيدٍ ترتعش، وحينها قام بقراءتها ووصفها على الفور بأنها قصيدة سيئة جداً غير شاعرية على الإطلاق، وعبر عن غضبه الشديد، وكانت كلماته ستكون مبررة في التعبير عن غضبه لو أنني كنت قد أهدرت وقتي في كتابة تلك المقاطع والأبيات الشعرية، أو لو أنني كنت صعب المراس وأستحق تلك المعاملة القاسية الفظة، لكنه لم يستطع حتى أن يدعي هذا، وعانيت كثيراً في التفكير في هذا الأمر وعواقبه، وكانت تلك المرحلة هي أسوأ وأحلك مرحلة في حياتي بأسرها.

لاحقاً ذهب أحد الأساتذة إلى كوبنهاجن، وقد سرد كل ما حدث للسيد كولين، وحكى له عن تلك الأهوال التي عانيتها، وكنتيجة مباشرة لذلك قام كولين على الفور بنقلي من المدرسة، وكذلك من منزل عميد المدرسة، وقبيل مغادرتي شكرت العميد على كل ذلك اللطف الذي عاملني به منذ لحظة قدومي إلى منزله، لكن الرجل بدأ في شتمي، ثم اختتم حديثه قائلاً إنه ما كان ينبغي لي أن أكون طالباً أبداً، وإن تلك الأبيات والمقاطع الشعرية التي أكتبها ستتعفن على أرضيات متاجر الكتب، وسوف ينتهي بي الحال يوماً داخل أحد مستشفيات

الأمراض العقلية، عندما تأملت كلماته تلك ارتعش بدني وشعرت بالخوف يملأ أعماق نفسي وغادرته على الفور.

بعد أن بدأ الجمهور يطلع على كتاباتي ويقرؤها، عقب مرور عدة سنوات، وبعد صدور رواية «المرتجل» التقيت عميد المدرسة مجدداً في كوبنهاجن، وقد صافحني حينها بطريقة تصالحية، وقال إنه أخطأ في تقييمي وأساء تقديري وعاملني بشكل غير عادل، لكنني في قرارة نفسي لم أكترث لما قال، وآمنت بأن تلك الفترة العصيبة قد أنتجت ما مكنني لاحقاً من تحقيق إنجازات أخرى.

لاحقاً أصبحت تلميذاً لأحد شباب الدنمارك المشهورين، والذي حقق تقدماً مشهوداً في مجال اللغات الشمالية والتاريخ، وحينها قمت باستئجار علية في منزل، قمت بوصفها بعد ذلك في «كتاب الصور بدون صور» و«عازف كمان»، وقلت فيها إن تلك الغرفة هي المكان الذي كنت أستقبل فيه زيارات كثيرة من القمر، وقد تم تخصيص مبلغ مالي أيضاً في تلك الفترة من أجل دعمي في معيشتي، وكان يتعين علي أيضاً أن أقوم بادخار جزء من هذا المال بطرق أخرى، وقد قامت بعض العائلات باستقبالي على طاولاتهم خلال أيام الأسبوع، كنت أشعر بأني ذلك التلميذ الزائر الذي يمثل نموذجاً لكل التلاميذ الفقراء في كوبنهاجن، وقد أتاح لي هذا الأمر فرصة التعرف على عائلات مختلفة متعددة الأنواع، كانت تترك أثرها على شخصيتي.

درست بجد واستطعت حقاً أن أحقق تميزاً وتقدماً ملحوظاً في عدة أقسام علمية، وكانت الرياضيات على رأسها، كان الجميع يبذل جهداً لمساعدتي في دراسة اللغة اليونانية وكذلك اللغة اللاتينية بشكل سليم وبطرق أكثر سلاسة، كما أن معلمي البارز، الذي كان ينتمي إلى طبقة النبلاء المثقفين، قد نجح بجدارة في مساعدتي في تحصيل دروسي، كما أنه أيضاً ساعدني في تقديم شرح تفصيلي لمادة الدين، وقد أدركت في نهاية المطاف أن القاعدة الأساسية لفهم تلك المادة هي أن نؤمن في قرارة أنفسنا أن الرب هو المحبة المطلقة.

لاحقاً تعرضت شخصيتي لتحول مباغت غير عادي، وربما يرجع السبب الرئيسي لذلك الأمر إلى تلك المعاملة السيئة التي عاملني بها عميد المدرسة في السابق، حيث إن ذلك الرجل أساء تقدير قدراتي وإمكانياتي الحقيقية الأصيلة، وسخر مني طيلة الوقت، حتى إنني قمت من دون أن أدري بتغيير شخصيتي تدريجياً، والتي قد غلب عليها ذلك الحس الساخر الذي ظهر جلياً فيما بعد في كتاباتي، فقمت بمعالجة القصائد الشعرية التي كنت قد كتبتها في السابق بالدموع والعرق عن طريق إضافة عامل السخرية الفكاهية في

نصوصها، كما أنني غيرت عناوينها، وكان من بين تلك القصائد على سبيل المثال، تلك القصيدة التي أسميتها «في رثاء قطة»، وقصيدة أخرى أسميتها «الشاعر المريض»، ولحسن حظي أن ابنة السيد وولف الكبرى، والتي كانت فتاة ذكية مفعمة بالحيوية، عكفت باستمرار على قراءة قصائدي، وشجعتني على مواصلة استخدام تلك اللغة الفكاهية الساخرة في كتاباتي.

في تلك الأثناء أيضاً حدث تحول واضح في تيار الحركة الأدبية الدنماركية، وبات لدى الناس اهتمام أكبر بالأدب، بينما فقدت السياسة تأثيرها المباشر على الكتب الأدبية خلال تلك الفترة الزمنية الحساسة.

حقق هيبرغ شهرة أدبية وثقافية واسعة في الوسط الأدبي في الدنمارك، بسبب تأليفه لعدد من أهم وأروع الأعمال، والتي كان على رأسها «والتر بوتر»، ومسرحية «روح»، والذي يرجع إليه الفضل أيضاً في تقديم المسرحيات الهزلية الغنائية على خشبة المسرح الدنماركي التي حققت نجاحاً كبيراً وحصلت على امتداح الجماهير والنقاد. كانت تاليا مديرة المسرح واهتمت بإبقاء الكرنفال في المسرح الدنماركي، وكان هيبرغ سكرتيرها.

تعرفت عليه في بادئ الأمر في مدينة أوريستد، وقد كان رجلاً أنيقاً فصيحاً أشبه بصورة البطل المثالي هذه الأيام، ولقد أسعدني لقائي به إلى أقصى درجة، حيث إن الرجل كان يعاملني بلطفٍ بالغ، وقد قمت بزيارته فيما بعد، وعرض عليّ حينها أن يقوم بنشر قصائدي الهزلية الساخرة في جريدته الأسبوعية الشهيرة المعروفة باسم «البريد الطائر»، وكنت سابقاً قد قمت بإرسال عدد من قصائدي الشعرية إلى جرائد وصحف عديدة، إلا أنه لم يكن لأي جريدة من بينها الجرأة لنشر قصيدة قام بكتابتها تلميذ بسيط! وقد قامت إحدى هذه الصحف بطباعة أشهر قصائدي، وأرفقوا معها سبباً لنشرها. وقد رآها السيد هيبرغ، ثم قام بطباعة اثنتين من قصائدي الكوميدية بطريقة لائقة موقعة بالحرف الأول من اسمي.

ما زلت أتذكر ذاك المساء حين نشرت قصيدة «البريد الطائر» لأول مرة، كنت مع إحدى العوائل التي تكن لي الود، لكنهم لم يروا في موهبتي أي شيء مميز، وكانوا ينتقدون شيئاً في كل سطر من قصائدي، مازلت أتذكر كيف دخل السيد رب الأسرة مبتهجاً وفي يده العدد الجديد من مجلة «البريد الطائر» وكيف صاح فرحاً قائلاً إنه قرأ لتوه قصيدة من أروع القصائد على الإطلاق وبأنه يعتقد أنه مؤلف تلك القصيدة هو الشاعر هيلبرغ الشهير؛ لأنه لا يوجد شخص بنفس موهبته العبقرية والتي تمكنه من الكتابة على هذا النحو، وأخذ يقرأ مقاطع القصيدة بشكل تفصيلي، لكنه لم يستمر بهذا الشكل، بعد أن

أخبرته ابنته أن تلك القصيدة من تأليفي! تبدل حاله كلياَ، وشعر بالغيظ كما شعر بذلك جميع أفراد العائلة، مما أحزنني بعمق.

قام أحد الكتاب الأقل تقديراً، ولكن في الوقت نفسه رجل رفيع المستوى، باستضافتي على طاولته بكرم، وأخبرني بأنه سوف يتم إصدار نسخة من الصحيفة كنسخة إضافية لأول يوم من السنة، وبأنه أسهم فيها بأحد أعماله، أخبرته بأنني أيضاً وبناء على رغبة الناشر سوف يتم عرض قصيدة صغيرة لي في نفس هذا الإصدار، فتعجب واستنكر وقال غاضباً: «يبدو أنهم يسمحون لأي أحد وكل أحد بالمساهمة في هذا الكتاب»، ثم قال قاصداً الناشر «فإذن لا يحتاجني، لن أعطيه شيئاً». حرصت على الذهاب إلى معلمي مرتين يومياً، والذي يبعد عني كثيراً، وفي طريقي إلى هناك كانت دروسي هي كل ما يشغل عقلي، وخلال عودتي كنت أشعر بالحرية الكاملة، وشرعت في التنفس بعمق، وحينها احتلت الأفكار الشعرية الإبداعية عقلي، لكن لم أكتب الكثير منها، قمت بكتابة خمس أو ست قصائد ساخرة فقط، تلك التي أراحني وجودها على ورق بدلاً من أن تبقى في ذاكرتي.

في سبتمبر عام 1828 كنت طالباً، وعندما نجحت في اجتياز الاختبارات المدرسية، بدأت تلك الأفكار الإبداعية بمداعبتي، وكانت قد ظهرت لي منذ كنت أذهب إلى مكتب معلمي في السابق وعادت من جديد تحتل رأسي، وها أنا أبدأ في خلق عالمي الخاص وأغزل حكاياته، وقد نجحت بالفعل في كتابة أول أعمالي في هذا التوقيت، والذي حمل عنوان «رحلتي سيراً إلى آماك»، وكان عبارة عن كتاب فكاهي ساخر مبهج ومثير للغاية، اقتبسته من شخصيتي آنذاك، وظهر فيه ميلي للسخرية من كل شيء حتى بمشاعري. لم تقبل أي دار نشر وطباعة كتابي هذا، فقمت بنشره بنفسي وتوزيعه، ولاحقاً عرضت على دار «كيتزل» نشر وطباعة النسخة الثانية من الكتاب، ثم قامت بطباعة النسخة الثالثة أيضاً، وبجانب هذا كله، تمت إعادة طباعته في السويد.

قرأ الجميع كتابي، وأشادوا به، ورغم أنني كنت طالباً صغيراً في المدرسة إلا أنني حينها شعرت بأني حققت لتوي هدفاً عظيماً من أهم وأكبر أهدافي في الحياة. غمرني الفرح، وقررت أن أقوم بكتابة عملي الدرامي الأول وسط تلك الأجواء السعيدة، وقمت بتأليفه بالفعل وأسميته «الحب فوق برج نيكولاس»، ولكن ذلك العمل الأدبي لم يحقق نجاحاً في ذلك الوقت، وتم انتقاده من قبل أقلام عدة، وكانت أحد أبرز أسباب فشله حينها أنه ينتمي إلى حقبة زمنية لم يعد لها وجود في الواقع، حيث كان يدور حول تلك العروض المسرحية التي تخص فترة العصور الوسطى، وكذلك تناول فترة مسرح فودافيل الذي أحبه الناس بحس فكاهي ساخر.

كانت القصة كالتالي:

أراد حارس برج نيكولاس، والذي كان فارساً للقلعة أيضاً، أن يزوج ابنته لحارس برج الكنيسة في منطقة مجاورة، لكن ابنة الفارس كانت تحب شاباً آخر يعمل خياطاً، وكان مسافراً في رحلة وعاد لتوه. وبينما كان الأهالي يستعدون للاحتفال بمناسبة موافقة ابنتهم، هربت مع حبيبها الخياط إلى منزله، حيث كانت سعادتهما جلية هناك. إلا أن ذلك لم يدم، حيث إن والدها أعادها إلى منزلهم، لكنها فقدت عقلها وأكدت لهم أنها لن تعود لحالتها الطبيعية حتى يعيدوها إلى الخياط. قام والدها بالتفكير كثيراً واستنتج أن القدر سيقرر مصيرها، وماهو القدر؟

حينها خطر له أن يجعل عامة الناس يصدرون الحكم في هذه المسألة، إن كان يجب على ابنته الزواج من حارس البرج أو الخياط، ولذلك طلب مساعدة شاعر شاب في كتابة مسرحية هزلية، حيث إن الناس يحبون هذا النوع من المسرحيات وسيتفاعلون معه، وكان شرط فارس القلعة أن يكون قراره مبنياً على رأي الناس في هذه المسرحية، إن صاح الجمهور بعدم الرضى فستتزوج حارس البرج، وإن أعجبو بها وصفقوا، فستتزوج الفتاة من حبيبها، وعندما عُرضت المسرحية ولم تلق استحسانهم، كون الشاعر الذي كتبها قليل الخبرة، شرع الحبيبان في مناجاة الجماهير للتصفيق، بينما كان حارس قلعة الكنيسة يقوم بحثهم على فعل عكس ذلك.

رغم أن عملي ذاك لم يحقق النجاح المنشود إلا أن رفاقي وزملائي استقبلوه بمزيدٍ من الإشادة والمديح، كانوا فخورين جداً بذلك الإنجاز الذي حققته لتوي. لقد كنت أحد الطلاب المعدودين الذين تمكنوا هذا العام من تقديم أحد أعمالهم المسرحية الشعرية على خشبة المسرح الدنماركي العريق، وكان هناك طالب آخر يدعى «أرنيسين»، قام أيضاً بتقديم عمله الأدبي على خشبة المسرح مثلي، وكان اسم عمله «الإثارة في المسرح الشعبي»، تلك المسرحية التي لاقت نجاحاً هائلاً، وأشاد بها الجمهور والنقاد.

يمكنني القول إنني بدأت أشعر بالسعادة تغمرني كلياً منذ تلك اللحظة على وجه التحديد، وبدأت أشعر أنني ذلك الشخص الذي يملك روح الشاعر وقلب الشاب النابض بالمحبة والحياة، وقد تمت دعوتي من قبل عشرات الأسر الراقية في المجتمع للقدوم إلى منازلهم وقراءة قصائدي على أسماعهم، وعلى هذا النحو الجيد تمكنت من الانتقال من وسط إلى وسط اجتماعي آخر بكل سهولة ويسر، وفي عام 1829 تمكنت من اجتياز اختبار الفلسفة بعد أن كرست جهودي للدراسة بجد، وتمكنت أيضاً لاحقاً بعد انتهاء فترة الدراسة من

نشر أول مجموعة شعرية لي، وحينها فقط شعرت ببزوغ نور الشمس في مستقبلي.

الفصل الرابع

لم أكن قد تمكنت خلال تلك الفترة الزمنية من رؤية كل المعالم السياحية، والأماكن الطبيعية ذات الخلفية التاريخية في بلدي الأم، فلم أر إلا جزءاً صغيراً منها، حتى إنني لم أقم إلا بزيارة بعض الأماكن السياحية المحددة في مقاطعة فين، وجزيرة زيلاند، وكذلك منطقة مونس كلينت، والتي تعد من أجمل وأروع المناطق البديعة الخلابة في بلادنا، ويعد أبرز ما يميز تلك المنطقة وفرة أشجار الزان المتأرجحة والتي تبدو أشبه بالأكاليل التي تلتف حول المنحدرات الطباشيرية البيضاء، في تلك المنطقة تحديداً يمكنك أن تتأمل المشهد المدهش المطل على بحر البلطيق.

تمنيت من أعماق قلبي وكرست نفسي لكي أذهب إلى هناك في صيف 1830 وأن أستغل إيرادات أعمالي الأدبية في زيارة مدينة يوتلاند، حتى أتعرف أكثر على طبيعة مقاطعة فين العريقة، ولم أكن أدرك حقاً خلال تلك الفترة كم المكاسب الفكرية التي يمكنني تحقيقها خلال تلك العطلة، وكذلك كم التغيير الذي من الممكن أن يطرأ على حياتي الداخلية بعد قضاء تلك الإجازة في منطقة خلابة كتلك.

لقد امتدت يوتلاند بين المحيط الألماني وبحر البلطيق، وانتهت في شاطئ سكاجن المليء بالشعب المرجانية، كما انتشرت الأشجار والتلال والغابات أمام بحر البلطيق بينما اتجهت الجبال والهضاب ناحية بحر الشمال.

وبين المشهدين المهيبين تشاهد المناظر الطبيعية الآسرة المميزة، حيث تلك الامتدادات الشاسعة، وتلك التربة الرملية والنباتات المتناثرة، والغجر المتجولون برفقة طيورهم الناحبة، وتلك الغابات التي قد يضيع فيها المرء من فرط الدهشة، تلك العزلة البعيدة المقدسة التي قد وصفها جيداً الشاعر الدنماركي الشهير ستين ستنسن بليشر في رواياته.

لم أكن قد ذهبت إلى مكان أبعد من هذا المكان في تلك الفترة الزمنية، وقد ترك مشهد الطبيعة ذاك أبلغ الأثر على نفسي وكتاباتي، خصوصاً كتابي «السفر سيراً على الأقدام» ومجموعتي الشعرية الكوميدية المعروفة لدى الناس ولقيت استحسانهم.

كشفت مقاطعة فين عن جمالها الريفي الآسر، وقد حاولت جاهداً تسجيل تلك التفاصيل الطبيعية الكونية بقلمي وإحساسي حتى تبقى في ذاكرة الجماهير إلى الأبد، وكذلك لم أهمل السمات الطبيعية لبيئة مدينة أودنسه والتي تعد مسقط رأسي، وقد استقبلني لاحقاً الشاعر الكبير إيفرسن في منزله، ورحب بي كثيراً وعاملني بلطفٍ شديد.

اختلف أسلوبي الأدبي تأثراً بتلك المرحلة، ولم أعد أميل إلى استخدام ذاك الأسلوب الفكاهي الساخر وبدلاً منه بات أسلوبي أكثر شاعرية وكأنني كنت أحاول بتلك الطريقة الانتقام من كل تلك العوامل والأسباب التي جعلتني أغير من أسلوب كتابتي حينها.

لاحقاً، قامت إحدى العائلات الغنية باستقبالي في منزلها، وحينها شعرت وكأنه قد انفتح أمامي مباشرة عالم جديد لا مثيل له على الإطلاق. يمكن التعبير عنه في هذه السطور الأربعة والتي كتبتها في ذلك الوقت:

عينان سوداء صوبت بصيرتي

كانتا عالمي، موطني، وسعادتي

روح مشعة، وسلام طفولي

ولا يمكن أن يتم نسيانهم

خلال تلك الفترة شغلتني خطط أخرى مباغتة، فقد فكرت حينها في الإقلاع عن كتابة الشعر، وأن أتفرغ لدراسة «علم اللاهوت» وأن أصبح واعظاً!

في الواقع لم أكن أفكر في هذا الوقت إلا في تلك المرأة التي أحببتها من كل قلبي والتي ملأت قلبي وروحي وعقلي، ولكن لم يكن هناك فائدة من ذلك فتلك المرأة أحبت رجلاً آخر وتزوجته وأنجبت أطفالاً، لكني أدركت لاحقاً أن ما حدث كان خيراً لي ولها على السواء، ربما لم يكن لديها أدنى فكرة عن مقدار حبي لها! ربما لم تكن مدركة لذلك الأثر الذي تركته على نفسي، ربما لم تكن تعرف أني فكرت في استبدال خططي الأصلية واعتماد خطط أخرى فقط من أجلها! لكنها الآن أصبحت زوجةً رائعةً لأحد الرجال المحترمين، وأتمنى أن يباركها الرب على الدوام ويمنحها السعادة.

لقد كانت السخرية والتهكم هما السمة الغالبة على كتاباتي في تلك الفترة وعلى رأسها كتابي «رحلتي سيراً على الأقدام»، الأمر الذي قابله الناس

باستياء لأنهم لم يؤمنوا بأن هذا الأسلوب الساخر يستطيع تحقيق هدف مميز! وقد لامني النقاد لاحقاً أنني عبرت عن ذلك الشعور الذي طردته من قلبي على هذا النحو كما كشفت مجموعتي الشعرية الأخرى والمعنونة باسم «أوهام ورسومات» والتي نشرت في بداية العام الجديد عن العناء الذي عاشه قلبي بسبب حب امرأة لم تكن لي.

ظهر ذلك في أحد مشاهد المسرح الهزلي في فصل «اللقاء والفراق» ولكن كان الاختلاف الوحيد هنا أن الحب بين الطرفين كان متبادلاً ولم يكن من جانب واحد كما كان الحال معي ولم يعرض ذلك العمل على المسرح إلا بعد مرور خمسة أعوام.

في خلال ذلك الوقت، كان أورلا ليمان أحد أصدقائي المقربين في كوبنهاجن، والذي زاد استحسانه الشعبي لاحقاً بفضل جهوده السياسية والدور الذي كان يقوم به من أجل خدمة المجتمع، وكذلك أعجبتني فصاحته، وشخصيته المفعمة بالحيوية، كما أنه تلقى تعليم اللغة الألمانية في منزل والده منذ الصغر، ومن المعروف أنه عكف على قراءة قصائد هاينرش هاينه.

لقد عاش في البلدة، وتحديداً في أحد الأحياء القريبة من قلعة فريدريكسبيرغ.

ذهبت إلى هناك لرؤيته وغنى حين رآني أبيات هاينه الشعرية، وشرعنا في قراءة القصائد معاً طيلة الظهيرة وحتى انقضاء الليل.

كنت مضطراً للبقاء هناك تلك الليلة، وشعرت بالبهجة حينها لأني تعرفت على أحد الشعراء الصادقين والذي كان يلقي أشعاره من صميم قلبه وروحه، لقد حل هاينه في هوفمان، ثم بدأ بقراءة مقتطفات من كتابي «رحلتي سيراً على الأقدام» والتي كان لها عظيم الأثر على نفسي.

في تلك الفترة كان أبرز الشعراء المفضلين في حياتي، الذين شكلوا أسلوبي الأدبي، والتر سكوت، وهوفمان، وهاينه. أعترف بأنني خنت نفسي مراراً في فترة لاحقة عندما نظرت إلى كتاباتي نظرة سلبية، كوني كنت أمر بحالة نفسية سيئة، وشعرت حينها برغبة في البحث عن جوانب الكآبة في الحياة، وبقيت متشبثاً بالجانب المظلم للأشياء.

أصبحت أكثر حساسية، وفكرت في ذلك النقد الهدام وأوجه اللوم التي كنت أصادفها في بعض الأحيان بدلاً من أن أركز على المديح الذي تلقيته من الآخرين بشأن كتاباتي المنشورة.

كان تعليمي المتأخر هذا بمثابة الدافع الأقوى الذي حفزني أن أصبح مؤلفاً رغم أني مازلت طالباً في المدرسة، ورغم هذا الإنجاز الذي حققته في سن صغير إلا أن كتابي الأول والمعنون باسم «رحلتي سيراً على الأقدام إلى آماك» لم يكن يخلو من الأخطاء النحوية واللغوية، ولم يكن لدي في ذلك الوقت القدرة المالية على استئجار محرر ما حتى يقوم بمراجعة ذلك العمل وتصحيحه، ومن ثم فقد تهافت الناس على الكتاب من أجل إحصاء الأخطاء الموجودة فيه والكشف عنها للجميع، متجاهلين تماماً أن هناك ميزة أو جدوى منه.

عرفت لاحقاً أيضًا أن هناك أناساً يتعمدون قراءة قصائدي من أجل تصيد الأخطاء فحسب وليس حباً في قراءة أشعاري المكتوبة، حتى إنهم كانوا يقومون بتدوين ملاحظاتهم الخاصة، وكانوا يذكرون عدد المرات التي استخدمت فيها كلمة «جميلة» مثلاً من دون النظر إلى معنى النص الشعري أو جمالية المقطع الأدبي.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد قام أحد كتاب المسرح الهزلي وأحد رجال النقد، الذي أصبح الآن يعمل رجل دين، بإحصاء تلك الأخطاء التي تشتمل عليها كتاباتي أمامي، حتى إن طفلة في السادسة من عمرها كانت مندهشة من قدرته على إيجاد كل الأخطاء في الكتاب، فأخذت الكتاب وقالت له ببراءة مشيرة إلى حرف العطف الواو قائلة: «هذه هي الكلمة الوحيدة المتبقية التي لم تقل إنها مكتوبة بشكل خاطىء!»

شعر بملامة الطفلة له، وقبّلها في خجلٍ واضح.

لقد جرحني كل هذا، لكنني اعتدت على الدوام أن أكون ذلك الطالب الخائف المتردد، كنت حساساً طيباً بقدر يؤذيني، وكان الجميع يعرفون ذلك، ومن هذا المنطلق عكف الجميع على معاملتي بخشونة وقسوة، أراد جميع المعلمين تدريسي وكانوا يرددون على الدوام أنه لا يجب إخباري بأني طالب جيد لأن الثناء قد أفسدني!

وهكذا استمعت بشكل مستمر عن السلبيات والعبارات التوبيخية ونقاط الضعف، وفي فترة ما شعرت وكأن مشاعري على وشك الانفجار، قلت إنني سأكون شاعراً، وفكرت أن ذلك الأمر سيجعلني إنساناً محترماً ينال كل التقدير من الآخرين، أخذوا ما قلته كدليل على غروري، وتناقلوا ما قلت وقالوا في بيوت كثيرة إنني رجل طيب لكنني أحد أكثر الرجال غروراً على الإطلاق، وفي ذلك الوقت كنت مستعداً دوما على التشكيك بقدراتي وإمكانياتي، وكان

لدي شعور مشابه لما كان عليه شعوري في أيام حياتي الدراسية، شعور بأنني أخدع نفسي.

كان الأمر صادماً بما يفوق احتمالي، أن أسمع نفس الكلام بشكل صارم وساخر من عدة أشخاص، لهذا السبب على وجه التحديد طلب مني السيد كولين أن أقوم برحلة فورية إلى شمال ألمانيا من أجل تصفية ذهني وجلب المزيد من الأفكار الإبداعية.

في ربيع عام 1831 غادرت الدنمارك للمرة الأولى، ورأيت حينها ليبيك وهمبيرغ، وغيرها من المناطق الساحرة والمناظر الطبيعية التي شغلت تفكيري، وقد رأيت أيضًا سلسلة جبال هارز الألمانية الخلابة.

انفتحت أمامي صورة مدهشة لهذا العالم الممتد الرحب الواسع أذهلتني كلياً، واستعدت حينها مرحي وروح الدعابة التي كنت أتمتع بها في السابق، لكنني لم أشعر بعد بأني عدت لنفسي السابقة.

عندما وصلت إلى مدينة دريسدن تعرفت على الشاعر والمترجم لودفيغ تيك، وقد كان الشاعر إنجيمان منحنى خطاب توصية لأعطيه إياه بمجرد وصولي إلى ألمانيا، وقد استمعت إليه في أحد المساءات الساهرة أثناء قراءته لمسرحيات شكسبير، وأثناء مغادرته المكان تمنى لي مستقبلاً أدبياً حافلاً، وقد احتضنني وقبلني بصدق، ذلك الأمر الذي ترك تأثيراً عميقاً على نفسي.

لا يمكنني أبداً أن أنسى تعبير عينيه في تلك اللحظة عندما ودعته وبللت الدموع وجهي، وقد صليت ودعوت الرب أن يمدني بتلك القوة التي تجعلني قادراً على تحقيق تلك الأهداف التي تتوق لها روحي، ودعوته أيضاً أن يمنحني تلك الطاقة التي تجعلني بدوري قادراً على التعبير عما يسكن أعماق نفسي وروحي، لقد تمنيت حقاً أن يأتي ذلك اليوم الذي أتمكن فيه من تحقيق كل هذا حتى أكون بتلك الصورة المشرفة التي يمكن أن يفتخر بها الشاعر العظيم لودفيغ تيك في يوم من الأيام.

بعد عدة سنوات عندما تمت ترجمة عدد من أعمالي الشعرية إلى اللغة الألمانية، تم استقبال أعمالي بحفاوة بالغة في تلك البلاد، والتقيت بالمترجم لودفيغ تيك ثانية وصافحنا بعضنا البعض بود وحب في برلين، كما تعرفت على الشاعر كاميسو عندما سلمته خطاباً من أوريستد. ذلك الرجل المتزن الهادئ ذو الضفائر الطويلة والعيون الصادقة والذي فتح لي الباب بنفسه، وقرأ الخطاب الذي لا أعرف فحواه، وعلى الرغم من أننا لم نكن نتحدث نفس اللغة إلا أننا فهمنا بعضنِا البعض بطريقةٍ ما، وشعرت بِأني أِثق فيه وأخبرته بذلك،

وعلى الرغم من أن لغتي الألمانية َكانت سيئة جداً إلا أن كاميسو كان يتحدث اللغة الدنماركية.

عرضت عليه قصائدي، وقد قام بترجمة قصائدي تلك لأول مرة إلى اللغة الألمانية، وتحدث عني في إحدى أشهر الصحف الألمانية في تلك الفترة وقال:

«إن هانس كريستيان أندرسون كاتب عبقري فطن ذو حس ساخر، وما زال قادراً على استخدام قدراته وإمكانياته الإبداعية في التعبير عن الخصائص والقضايا بكل سهولة، كما أنه يمتاز بالقدرة الهائلة على التعبير عن تلك الموضوعات عن طريق استعراض الأساليب التصويرية المختلفة. يمتلك كريستيان القدرة على سرد ووصف كل ما يتعلق بالطبيعة عن طريق استخدام مخيلته وأوصافه الشعرية الدقيقة التي تخلق جواً من الألفة والود حتى بالنسبة لهؤلاء الذين لا يملكون أدنى فكرة عن عوالم الشعراء».

أصبح كاميسو صديقي المقرب طيلة أيام حياتي، وقد عبر لي عن كامل امتنانه واعتزازه بتلك الصداقة من خلال عشرات الرسائل المتبادلة بيننا، كما كان لرحلتي القصيرة إلى ألمانيا أبلغ الأثر على نفسي.

مما ألهمني لكتابة هذا الأثر فوراً، في كتاب باسم «صور الظلال» وإن قمت بالخروج من أخطائي كانوا يعتبرونه غروراً، وأخبروني بأنني لا أحب الاستماع إلى المنطق، هؤلاء الأشخاص قد تفرغوا تماماً من أجل إحصاء عدد تلك الأخطاء اللغوية والنحوية التي قمت بارتكابها خلال تأليف ذلك العمل الأدبي، وكما هي عادة هؤلاء الناس فقد بذلوا قصارى جهدهم من أجل تدوين تلك الأخطاء والإشارة إليها.

منذ نهاية عام 1828 حتى بداية عام 1839 حاولت التركيز على مسألة الكتابة فحسب، وبما أن الدنمارك دولة صغيرة متواضعة فإن تلك الكتب التي كانت تذهب إلى السويد والنرويج كانت قليلة جداً، ولهذا السبب كانت عائدات الأرباح متواضعة للغاية، وقد كان هذا الأمر يشكل عائقاً بالغ الصعوبة بالنسبة لي، لأنه كان يتعين علي أن أظهر بشكلٍ لائق من حيث الشكل والمظهر بين هؤلاء الناس الذين ينتمون إلى دوائر وأوساط اجتماعية أخرى، وبناء عليه فإن مسألة الإنتاج المستمر كانت أقرب إلى المستحيل في تلك الفترة الزمنية الحرجة، ومن هنا فقد اتجهت بدوري إلى ترجمة بعض النصوص الأدبية للمسرح.

في تلك الأثناء كان الملحن الشاب حفيد الملحن الشهير هارتمان -والذي قام بتلحين الأغنية الدنمارِكية الشعبية الشهيرة «الملك كريِستيانِ والصاري

الطويل»- بحاجة إلى أوبرا جديدة مكتوبة، وقد كنت متحمساً جداً لكتابتها في ذلك الوقت، ويمكنني القول إنه من خلال اطلاعي على كتابات هوفمان تحول انتباهي إلى الكتابات الكوميدية المستترة لكارلو غوتسي، كما أني قرأت معزوفة «آيل كورفو»، ووجدت محتواها ممتازًا وفريداً حقاً، ولاحقاً تمكنت من كتابة وإنجاز نص الأوبرا الخاص بي، وقد بدا الأمر غريباً في تلك الفترة عندما صرحت أنني أستحسن حقاً أعمال هارتمان، وقد كتبت عنه في رسائلي إلى المديرين المسرحيين، وقلت إنه شاب ذو موهبة هائلة وعظيمة، وإنه يقوم بإنتاج أعمال إبداعية خاصة به، وها هو الآن يعتبر من أهم ملحني الدنمارك وأعلاهم شأناً.

بدأت العمل على استعراض موسيقي آخر مبني على رواية الكاتب والتر سكوت، المعروف باسم «عروس لامرمور»، الذي لحنه شاب يدعى بريد آل، وقد ظهر كلا العملين الموسيقيين الاستعراضيين على المسرح لاحقاً، ويمكنني القول إنه تم توجيه الانتقادات اللاذعة التي لا ترحم لي تماماً، كما لو كان أحدهم يسخر من أحد الشعراء الأجانب، وشعرت حينها بأن الجميع قد أنكر مواهبي التي اعترفوا بها في السابق، وكذلك تجاهلوا أي ميزة لدي بشكلٍ مباغت، بينما كان الملحن وايز -والذي أشرت سابقاً إلى ذلك الدور الرائع الذي لعبه في حياتي- راضياً تمام الرضا عن تلك الطريقة التي قمت بتناول القضايا والموضوعات بها، وقد أخبرني أيضاً أنه كان يتوق شوقاً لتلحين مقطوعة والتر سكوت المعنونة باسم «كينيلورث»، ثم طلب مني حينها أن أتعاون معه، ونقوم معاً بذلك العمل المشترك، وأن أبدأ على الفور بكتابة نص تلك المقطوعة الموسيقية، في الواقع لم تكن لدي أدنى فكرة عما سنخوضه، فقد كنت بحاجة للمال حتى أعيش، وكذلك أيضاً فقد شعرت بالإطراء الشديد للتعاون مع وايز، الذي يعد واحداً من أبرز وأهم الملحنين في بلادنا، والذي امتدحني لأول مرة في سيبوني، وتربطني به علاقة صداقة قوية.

في الواقع، تمكنت بنجاح من إنهاء تأليف نصف ذلك النص الموسيقي إلا أنه تم إلقاء اللوم علي واتهامي بأني قمت باستغلال قصة رومانسية شهيرة. تمنيت حقاً أن أتخلى عما أفعله في ذلك الوقت، ولكن السيد وايز الملحن الشهير قام بمواساتي وتشجيعي على المضي قدماً.

وقبل أن أنتهي من تأليف تلك المقطوعة الموسيقية تركت مصيري والنص بين يديه قبل أن أتأهب للسفر إلى الخارج، كان السيد وايز قد قام بكتابة عدة مقاطع شعرية لهذا العمل الموسيقي، وكذلك كان هو من قام بتأليف الخاتمة بنفسه.

يجدر القول إن إحدى أبرز سمات ذلك الرجل المتفرد أنه لا يحب أبداً قراءة تلك الكتب التي تختتم أحداثها بنهايات مأساوية حزينة، ولهذا السبب على وجه التحديد كان لزاماً أن تتزوج إيمي السيد ليستر وأن تغني إليزابيث قائلة: «إنجلترا العزيزة الغالية، ها أنا أصبحت ملكتك».

في الواقع لقد اعترضت على هذا الأمر في أول المطاف، لكني وافقت عليه لاحقاً، وقد قام وأيز بتأليف نصف تلك المقطوعة الموسيقية تقريباً، وعلى الرغم من أنه تم تقديم العمل على خشبة المسرح إلا أنه لم تتم طباعته باستثناء بعض الأغنيات، ذلك الأمر الذي أعقبه المزيد من الهجمات مجهولة الهوية، حيث شرع الأفراد العاملون في مكتب بريد البلدة في إحضار المزيد من الرسائل والخطابات لي، التي كانت مرسلة من قبل عدد من الكتاب غير المعروفين، والذين سخروا مني ووبخوني. في نفس ذلك العام أيضًا، كنت قد أصدرت مجموعتي الشعرية المعنونة باسم «اثنا عشر شهراً في العام»، والتي كانت تشتمل على الجزء الأكبر من أروع القصائد التي قمت بكتابتها في حياتي، إلا أنه ورغم ذلك تمت إدانة هذا العمل ووصف قصائدي بأنها سيئة.

تحدثت مجلة «مراجعة الأدب الشهرية» في تلك الفترة الزمنية أيضاً عن تلك المسألة وقامت بمناقشتها، على الرغم من أن تلك المجلة مثلاً لم يعد لها وجود الآن، إلا أنها في ذلك التوقيت كانت في أوج ازدهارها وتألقها، ورغم عدم إنكاري لوجود بعض الأشخاص المؤهلين في التحدث عن النواحي الجمالية للأعمال الأدبية ضمن طاقم التحرير الخاص بها إلا أن الحالة العامة في تلك الفترة أن كل شخص كان يتوهم أنه قادر على إبداء رأيه تجاه تلك الموضوعات، فقد يكون الشخص بارعاً في الكتابة عن أمور مثل الجراحة، أو العلوم التربوية مثلاً وتجده يناقشها بكل اقتدار ومهارة، لكنك قد تلاحظه يظهر حماقته الواضحة فيما يتعلق بالشعر، وبدرجاتٍ مختلفة يجد النقاد صعوبة بالغة في نقد الأعمال الشعرية وتقييمها.

أحد أبرز هؤلاء النقاد «مولبيك»، ذلك الرجل المعروف الذي كان يعمل مؤرخاً ومستشاراً للدولة، والذي كان له أيضاً باع كبير في مجال الكتابة والتحدث، ولعب دوراً كبيراً في تاريخ النقد الدنماركي في تلك الفترة الزمنية، وبناء على ذلك فإنه يتعين علي أن أتحدث عنه بشكلٍ تفصيلي، لقد كان هاوياً مجتهداً، وكان يكتب المزيد من المقالات حول تصحيح الكتابة الدنماركية، والقاموس اللغوي الدنماركي، وفيما يتعلق بنقده للنواحي الجمالية للأعمال الأدبية فقد كان نقداً أحادي الاتجاه، حيث إن الرجل مع الأسف الشديد كان ينتمي إلى رجال العلم، أولئك الذين لا توجد لديهم أي دراية حقيقية بمفهوم الشعر وعوالم الشعراء، ومع ذلك تجدهم يكتبون على الدوام حول نقد جماليات

الأعمال والنصوص الأدبية أو الشعرية، فلقد قام ذلك الناقد على سبيل المثال بانتقاد رومانسية أعمال إنجيمان الشعرية، وقد أوضح نقده ذاك بقوله إنه بعيد كل البعد عن مفهوم الشعر وما يعنيه!

لقد نشر بنفسه مجموعة شعرية قام بتأليفها وأسماها «نزهة في الدنمارك» والتي كتبها بأسلوب منمق قديم عفا عليه الزمن تماماً، كما طبيعة أساليب الكتابة المستخدمة في تلك المرحلة الزمنية السابقة، وقام بكتابة عمل آخر تحت عنوان «رحلة إلى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا» والذي كان أشبه بعمل تم نقله من الكتب الأخرى، ولم يكن أقرب إلى عمل تم تقديمه من واقع الخبرة والتجربة الحياتية.

لقد شبع ذلك الناقد من المكوث في مكتبه أو في المكتبة العامة، حتى أصبح بغتة مديراً للمسرح ورقيباً على تلك الأعمال الأدبية التي يتم تقديمها فيه. يمكنني القول إنه كان ناقداً أحادي الاتجاه وكذلك كان شديد التعصب والانفعال، ما زلت أذكر أنه قد تحدث عن أول قصائدي الشعرية بشكلٍ جيد، لكنه سرعان ما خفت نجمي فور توجهه للإشادة بعمل شاعر شاب آخر كان يدعى «فريدريك بالودان مولر»، رغم أن ذلك الناقد كان يحبني في بادئ الأمر إلا أنه كرهني لاحقاً!

إن التاريخ الموجز لتلك المسألة هو أن المجلة التي تعرف باسم «مجلة الأدب الشهرية»، كانت قد نشرت لي في عدد سابق نفس القصائد التي نشرتها في عددها الحالي، وعلى الرغم من امتداح قصائدي في العدد القديم، انتقدت قصائدي ووصفت بالقصائد السيئة في نفس المجلة في وقتٍ لاحق، مع ضرورة ذكر أن من قام بتدوين المديح سالف الذكر والذم والتوبيخ الحالي هو نفس الناقد!

في الواقع هناك حكمة دنماركية شهيرة تقول: «إذا مضيت في طريق الصواب سيقول الجميع إنهم آمنوا بك منذ البداية،» ولقد أصبحت مؤمناً بتلك الحكمة في تلك الفترة أكثر من ذي قبل.

في تلك الفترة، ظهر نجم مشع في سماء الأدب الدنماركي، كان اسمه هينريش هيرتز، واشتهر بعد أن نشر قصيدته «رسائل من شبح» باسمٍ مستعار، الشاعر بيجسن وكأنه أرسل هذه القصائد من الجنة، لكن الكتاب حمل أسلوب هيرتز بطريقة واضحة. كان الكتاب يمجد هيبرغ ويدافع عنه، وفي الوقت نفسه يهاجم الشاعران أولينشل جير وهوش. وهكذا أعاد الناس إحياء قصة أخطاء كتاباتي ومقارنتها بهيرتز.

تعرضت للسخرية بشكل دائم، بمعنى أدق، كان الناس يعاقبونني. اشتهر كتاب هيرتز في كل مناطق الدنمارك، ولم يتحدث الناس إلا عنه، وما أثارهم أكثر كان حيرتهم في هوية الكاتب الحقيقي للكتاب، كانو سعيدين ومنصفين في نقدهم للكتاب. تذكرت في ذلك الوقت أن هيبرغ قد امتدح بعض التعبيرات الجمالية في كتابي «العربة الطائرة» لكنه لم يمدحني شخصياً، أثار ذلك الحزن العميق في قلبي، فأعدائي الآن يعتبرونني خارج الساحة الأدبية تماماً. على الرغم من ذلك، استطعت أن أنشر كتاباً صغيراً، «مقالات صغيرة عن شعراء الدنمارك»، والذي وصفت فيه بعبارات قصيرة الشعراء الأحياء والأموات، ولم أوصف إلا محاسنهم، أثار الكتاب حماس الناس، واعتبروه أحد أفضل أعمالي، صحيح أنه نسخة مقلدة لكتاب آخر، إلا أن النقاد لم يعترضوا عليه أبداً. بدا جلياً حينها، كما كان الحال في السابق، أن النقاد لم يتطرقوا إلى أعمالي الناجحة.

في هذه الفترة الزمنية كانت علاقاتي في أسوأ حالاتها. تلقى هيرتز مبالغ مالية داعمة لمساعدته على السفر، وكنت قد تقدمت بطلب للحصول عليها أيضاً، لأن وصلت لمرحلة حرجة، وأصبح من الضروري أن أسافر، وهو الخيار الأفضل لدراستي أيضاً. أخبروني حينها أنه يتحتم علي أن أحصل على عدة رسائل توصية من أعظم الشعراء والعلماء المعروفين، لأنه وفي هذا العام، ظهر الكثير من الشعراء الشباب الذين يحاولون الحصول على الدعم المالي. لذلك قمت بالحصول على عدد من رسائل التوصية وعلى حد علمي، كنت الشاعر الدنماركي الوحيد الذي اضطر للحصول على رسائل توصية ليثبت أنه شاعر.

كان الثناء الذي كتبه لي الشعراء في هذه الرسائل مميزاً، فعلى سبيل المثال، ذكر أولينشل جير قوة كلماتي وصدق أشعاري، بينما قال انجيمان إنني موهوب في وصف الحياة الشعبية، أما هيبيرغ، فذكر أنه منذ وفاة الشاعر ويسيل، لم يكن هناك شاعر دنماركي يضاهي حسي الكوميدي، ومن هذا تأكدت بأن الجميع اتفق على رؤيتي كشاعر حقيقي. تلقيت الدعم المالي بعد هذا، وحصل هيرتز على دعم مالي أكبر، لكن ما حصل قد حصل.

أوصاني أصدقائي أن أستمتع برحلتي تلك خارج البلاد، وألا أشغل بالي أبداً ببعض الأحاديث التي قد أسمع البعض يرددونها عني خلال قيامي بتلك الرحلة! وقالوا إنهم سيدافعون عني باعتبارهم أصدقائي، إلا أنهم أشاروا إلى عدم تمكنهم من القيام بذلك طوال الوقت.

لقد آلمتني تلك العبارات بعض الشيء، وجعلتني أشعر برغبة عارمة في الرحيل، فقد تثاقلت الأحزان على قلبي، وأردت أن أتنفس بحرية، ودعوت الرب أن تحقق لي تلك الرحلة أحد أمرين؛ إما أن أموت في بلد أجنبية أخرى

بعيداً عن الدنمارك، أو أعود إلى بلادي بعد أن تمدني رحلتي بالقوة والحيوية التي ستساعدني على إنتاج وكتابة المزيد من الأعمال الأدبية المدهشة لاحقاً.

في تلك اللحظة التي تأهبت فيها للقيام بالرحلة، شعرت بحنين بالغ لأغلى شخصين في عالمي، وكان أبرزهما السيدة لايس، سيدة مثقفة وذات عقل منفتح، قدمتني إلى مجموعة من أفراد وسطها الاجتماعي المتميز. شعرت بشفقة وعطف تجاهي وحرصت دائماً على توجيه انتباهي إلى اكتشاف وتأمل أبرز معالم الطبيعة والجوانب الشاعرية المختبئة في تفاصيل الحياة. لقد اعتبرتني تلك السيدة العظيمة شاعراً صادقاً، وساهمت بدور كبير في تشكيل عقلي، وأعترف أنها علمتني الرقة والنقاء التي حاولت أن أعبر عنها خلال أعمالي الشعرية.

كان إدوارد ابن السيد كولين هو الشخصية الأخرى التي تركت أبلغ الأثر على حياتي بكل جوانبها، فقد تعلمت منه الشجاعة والالتزام. لقد أحبني حقاً وعاملني بود ولطف بالغ، وعلمني كيف أدير شؤوني الحياتية بشكلٍ عملي صائب. وقف إدوارد إلى جواري، وساعدني في دروس اللغة اللاتينية، ولعب دوراً هاماً في تنظيم تلك الأمور التي تخص مسألة طبع ونشر كتبي ومجموعاتي الشعرية.

عندما وصلت إلى باريس، كان لكل تلك التأملات والمشاهد السياحية والمناظر الطبيعية الخلابة التي رأيتها عظيم الأثر على نفسي، وحينها تولدت فكرة جديدة لقصيدة سيطرت على عقلي. هنالك أغنية شعبية دنماركية سميت بـ«أجنيتي وحوري البحر»، تحكي قصة أجنيتي التي كانت تتجول وحدها على الشاطئ حين ظهر حوري بحر من بين الأمواج وأغواها بكلامه وخدعها. تبعته أجنيتي لقاع البحر، وبقيت هناك لسبع سنوات، وأنجبت له سبعة أطفال، وفي يوم من الأيام سمعت أجنيتي أصوات أجراس كنيسة في عمق البحر فأصابها الحزن الشديد وعزمت الذهاب إلى الكنيسة، وطلبت من حوري البحر أن يأخذها إلى العالم العلوي ووعدته بأنها ستعود. طلب منها ألا تهجر أطفاله، خصوصاً رضيعهم الجديد. أخذها إلى السطح فقامت بزيارة الكنيسة، وعندما دخلت، انقلبت الصور المقدسة المعلقة على الجدران عند رؤية الفتاة العاصية. أصاب الخوف الفتاة وأبت أن تعود إلى قاع البحر حيث يصرخ صغارها.

تعاملت مع هذا النص بحرية في كتابة كلماته وفي الأسلوب الدرامي. يمكنني القول إنه نابع من قلبي ويجمع بين ذكريات خشب الزان والبحر.

عشت بروح الأغاني الشعبية الدنماركية في باريس. ملأ الشكر لله روحي؛ لأنني شعرت أن كل ما حصلت عليه كان من رحمته. اهتممت بشدة بكل ما يحيط بي. كنت في أحد مهرجانات تموز، كان في بداياته؛ كان ذلك في عام 1833. شهدت إزاحة الستار عن عمود نابليون. حدقت في الملك لويس فيليب ذي الخبرة العالمية، والذي يدافع عنه القدر. رأيت أيضاً دوق أورليانز، مليئاً بالصحة والحياة، وهو يرقص في حفلة في ميزون دو فيل. التقيت صدفة بالشاعر هاين الذي كان حينها يحتل عرش العالم في الشعر. عندما أخبرته كم كنت سعيداً بلقائه وكم أسعدتني كلماته، قال لي إن كلامي غير صحيح وإلا كنت دعوته إلى الغداء! أجبت بأني لم أفعل لأني خشيت أن يرفض شخص في مكانته طلبي. خشيت فعلاً أن يرفض طلبي وأنا شاعر دنماركي مغمور فقلت له: «كانت ابتسامتك الساخرة ستجرحني فعلاً». كان رده لطيفاً جداً. عندما التقينا بعد عدة سنوات في باريس، رحب بي ترحيباً حاراً وأحسست بالروح الشاعرية لديه. رحب بي بول دي بورت أيضاً، وكذلك فيكتور هوغو.

خلال رحلتي في باريس وخلال الفترة التي قضيتها هناك لم تصلني أي رسالة من بلدي. هل من المعقول أنه ليس لدى أصدقائي أي شيء جيد ليخبروني به؟ ثم وصلتني رسالة، وأخيراً رسالة كبيرة. خفق قلبي جداً. كانت رسالتي الأولى. فتحتها ولم أجد فيها أي كتابات، كانت مجرد صحيفة صادرة في كوبنهاغن تحتوي على هجاء لي وأرسلت من قبل- حتى أجور نقلها بريدياً لم تكن مدفوعة. جرحني ذلك الفعل الشرير جداً ولم أعرف أبداً من كتب تلك المقالة، ربما واحدٌ من أولئك الذين يدعون صداقتي، بعض الناس لديهم أفكار شريرة وأنا لدي أفكاري!

كانت إحدى نقاط ضعف أبناء بلدي أنهم حين يقيمون خارج البلاد في مدن كبيرة، يحبون أن يكونوا بصحبة بعضهم. يتناولون العشاء معاً ويذهبون للمسرح معاً. يقرأون الرسائل معاً ويتداولون أخبار البلاد بينهم وبالكاد تعرف إن كانوا في بلادهم أم في بلاد غريبة. كان لدي نفس الطبع في باريس. وعندما غادرتها قررت الذهاب إلى مكان هادئ في سويسرا وأن أعيش بين الفرنسيين كي أضطر إلى استعمال لغتهم والتي كانت مهمة جداً بالنسبة لي.

مكثت لدى عائلة صانع ساعات ثري في لودي في سويسرا في وادٍ في جبال جورا حيث تساقط الثلج في آب وطافت الغيوم من حولنا. كانت عائلة محبة ولا يتحدثون أبداً عن المال. عشت بينهم كفرد منهم وعندما غادرت، بكى الأطفال. أصبحنا أصدقاء على الرغم من أني لم أستطع فهم لكنتهم العامية. كانوا يصرخون بصوت عال لأنهم اعتقدوا أني أصم، ولكني في الحقيقة لم أكن قادراً على فهم كلامهم! كانت الأمسيات هادئة وأصوات الأجراس تصل من

الحدود الفرنسية. كان هناك منزل منفرد على أطراف المدينة، كان نظيفاً وأبيض اللون. عندما تنزل إلى القبو، تستطيع أن تسمع صوت الطاحونة وصوت الماء في النهر الذي كان يمر هناك مخفياً عن العالم. كنت أزور ذلك المكان وحدي وهناك أنهيت قصيدة «آغنيت وحوري البحر» التي كنت قد بدأتها في باريس.

أنهيت كتابة القصيدة في مدينة لودي ال في سويسرا وأرسلتها فوراً إلى الدنمارك، وانتظرت ردهم بحماس شديد لم أعتده من قبل. لكن قصيدتي لم تنجح، ولم تلق استحساناً عند الناس، حيث أخبروني أنني أردت أن أجاري نجاح الشاعر آدم أولينشل جير الذي كان معروفاً بإرسال أفضل أعماله من خارج البلاد. حزنت كثيراً لحال هذه المسرحية، وأحب أن أتخيل في هذه السنوات الأخيرة بأنها تقرأ الآن أكثر وقد التقت ببقية أصدقائها من المسرحيات. على الرغم من ذلك، لقد كانت هذه المسرحية بالنسبة لي نقطة إيجابية، فقد أيقظت حبي للكلمات الشعرية الغنائية.

لقد أغلقت هذه القصيدة فصلاً في حياتي.

الفصل الخامس

في اليوم الخامس من شهر سبتمبر لعام 1833 تمكنت من عبور جسر سيمبلون الجبلي للوصول إلى إيطاليا، وفي مثل هذا اليوم منذ 14 عاماً وصلت فقيراً معدماً إلى كوبنهاغن. كانت تلك الفترة من أجمل فترات حياتي، فقد شعرت وكأن أشعة الشمس غسلت قلبي بإشراقها الدائم ووهجها المتألق، وغمرني الشعور حينها بأن الحياة ربيعية أبدية، وبدأت أتأمل الكرمات التي كانت تتدلى من الأشجار.

لم أكن قد رأيت إيطاليا بهذا الجمال من قبل، ولقد ذهبت إلى بحيرة ماجيوري وصعدت كاتدرائية ميلانو، وقضيت عدة أيام في مدينة جنوا كما تمكنت من مشاهدة الكثير من الجمال الطبيعي ومشيت على امتداد الشاطئ وصولا إلى مدينة كرارا الجميلة، ورغم أني رأيت المزيد من التماثيل الفنية في باريس إلا أنها لم تجذبني بقدر ذلك التمثال الرخامي البديع الذي رأيته في فلورانس والمعروف باسم فينوس دي ميديسي، كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي تنهمر فيها الدموع من عيني بغتة من فرط كل هذا الجمال.

انكشف أمامي ذلك العالم البديع من دون سابق إنذار، وقد كانت تلك التحف والآثار والتماثيل البديعة أشبه بفاكهة روحي خلال رحلتي تلك، وحينها فقط تعلمت كيف أفهم هذا النوع من الجمال الفني، و كشفت لي تلك الروح الآسرة الخالدة عن نفسها ولكن سرعان ما تبدل ذلك الشعور بالسعادة والراحة بعد أن استقبلت إحدى الرسائل التي يخبرونني فيها بأن قصيدتي «حوري البحر وآغنيت» التي قمت بكتابتها هنا وإرسالها إلى الديار لم تحظ بكل الاهتمام النقدي والجماهيري الذي كنت أتوقعه، وكذلك بعدها بأيام استقبلت خطابا آخر وصلني في روما، وكشف لي أن أمي ماتت! كبلتني الكآبة حينها وأثقلت روحي وأرهقتني، وشعرت أيضًا بأنني وحدي تمامًا في هذا العالم.

في ذلك الوقت تحديداً في روما كان لقائي الأول مع الشاعر والكاتب المسرحي الدنماركي الشهير هنريك هيرتز، وكنت في السابق قد استقبلت خطاباً من السيد كولين والذي طلب مني فيه أن أحاول أن أتعرف على الشاعر هيرتز، وقال إنه من دواعي سروره حقاً إذا أصبحت أنا وهيرتز أصدقاء

مقربين، وما حدث في الواقع أن الشاعر المرموق هيرتز أتاح لي فعلاً تلك الفرصة عندما صافحني وقدم لي خالص تعازيه لفراق أمي، لقد كان رجلاً عظيماً متحضراً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وتمكنا من خوض عدة نقاشات معاً تحديداً بخصوص ذلك الهجوم والحملات الانتقادية التي كنت أتعرض لها في بلادي كشاعر.

لقد قال لي الكلمات التالية والتي قد تركت أثراً عميقاً في نفسي: «إن مأساتك الحقيقة تكمن في أنك تضطر دائماً إلى طباعة ونشر كل شيء تقوم بكتابته، وبهذا فأنت تمنح للجمهور الفرصة الكاملة بمتابعتك خطوة خطوة، أؤمن حقا أنه إذا قام بذلك جوته نفسه لكان عانى نفس قدرك القاسي».

لاحقاً بدأ هيرتز في امتداح موهبتي الأدبية، وقال إن أبرز ما يميزني هو قدرتي على وصف كل ما يخص الطبيعة بأسلوب شاعري دقيق، وقد تطورت صداقتنا وباتت عميقة الجذور، وكانت لعلاقتي به نتائج إيجابية على مستوى إنتاجيتي الأدبية وكتاباتي وكذلك أرشدني إلى عدة أمور مفيدة في حياتي العملية، وكنت أشعر حينها حقاً أنني قد التقيت أخيراً ناقداً رحيماً كما أنني سافرت برفقته إلى نابولي وعشت معه في منزل واحد.

التقيت بالسيد بيرت تورفالدسن النحات وصانع الميداليات في روما. في الواقع، ما زلت أذكر أني قد التقيت به لأول مرة في كوبنهاجن عندما كنت مجرد صبي فقير يتجول بين الشوارع والطرقات، وكان حينها السيد تورفالدسن يزور بلاده لأول مرة بعد فترة طويلة من الغياب، وقد قابلنا بعضنا البعض في أحد الأزقة، وكنت أعرف جيداً أنه رجل بارز في مجال الفنون وانحنيت له احتراماً وتقديراً عندما رأيته هذه المرة، وحينها ابتسم لي وتقدم نحوي عدة خطوات وسألني إن كنا تقابلنا من قبل؟ وسردت له قصة التقائنا منذ فترة طويلة في كوبنهاجن، وحينها شد على يدي وقال: «كان من المفترض إذن أن تربطنا صداقة قوية منذ تلك اللحظة!»

قرأت له لاحقاً قصيدتي الجديدة، وقد أبهجته كلماتها للغاية، وقال إنه شعر وكأنه يمشي متجولاً بين غابات الدنمارك ويستمع إلى صوت بحيراتها، ثم قبلني بود.

في أحد الأيام التالية، التقاني السيد تورفالدسن وحينها لاحظ مدى كآبتي في ذلك الوقت، فسردت له ما حدث وتلك الحملة من الانتقادات التي قد وصلني صداها من الديار في مجموعة من الخطابات القادمة من الدنمارك في تلك

الفترة التي كنت فيها مقيمًا في باريس، زمجر الرجل عقب سماعه لتلك الكلمات وقال في غضب واضح:

«أجل! أعرف هؤلاء الناس يا عزيزي! فلو كنت أمضيت بقية حياتي هناك لما كنت تمكنت من المضي قدماً! في الواقع أنا أشكر الرب لأنني لم أعد بحاجة إليهم. إن هؤلاء الناس يعرفون كيف يعذبون الآخر وكيف يزعجونه!»

نصحني أن أتحلى بالهدوء والثقة، وأكد لي أن ذلك الأمر سوف يحفظني من الفشل، وكذلك حكى لي بعض الأسرار والجوانب المظلمة التي مر بها في حياته الخاصة عندما كان في نفس موقفي، وسرد لي كيف تعرض للانتقاد والتعنيف من قبل النقاد والعامة.

غادرت روما بعد انتهاء ذلك الكرنفال واتجهت إلى نابولي، ورأيت حينها الكهف الأزرق بإيطاليا، والذي تم اكتشافه حينها للتو، وقمت بزيارة المعبد الموجود في المدينة اليونانية الشهيرة بايستوم، وقد عدت مجدداً إلى روما في أسبوع عيد الفصح، وذهبت إلى فلورانس وفينيسيا وفيينا وميونخ.

لكن في واقع الأمر لم تكن لدي الرغبة في تأمل ألمانيا في ذلك الوقت، وعندما كنت أفكر في الدنمارك كان الخوف يتملكني بشأن مدى سوء استقبالي إذا وطأت أقدامي أرض الوطن، وعلى النقيض فقد كان عقلي مشغولاً بإيطاليا ومناظرها الطبيعية وحياة سكانها البسيطة، وشعرت بالود الحار لتلك الأرض الطيبة.

اندمجت ذكريات الطفولة مع الذكريات الحالية في رأسي وتشابكت أحداثها وامتزجت مكونة صورة شعرية، وجدت نفسي حينها مجبراً على كتابتها في الحال، وكنت أعرف أن ذلك من شأنه أن يورطني في مزيد من المتاعب لو أنني قمت بطباعتها هي الأخرى.

تمكنت بالفعل من كتابة الفصل الأول من روايتي «المرتجل» في روما في تلك الفترة. ما زلت أذكر أنه عند قيامي بإحدى زياراتي الاعتيادية لمسرح أودنسه عندما كنت صغيراً، وكانت العروض التمثيلية تقدم باللغة الألمانية، وكنت حينها قد شاهدت لأول مرة رقصة الفالس المعروفة باسم «دوناوويبشين» وحينها صفق الجمهور بحرارة للممثلة المسرحية بطلة العمل بصفة خاصة، وقاموا بتقديم التحية لها، وشعرت الممثلة المسرحية بالفخر الشديد الذي جعلني أحسدها على السعادة التي تشعر بها في تلك اللحظة.

بعد مرور عدة سنوات لاحقة، عندما كنت لاأزال طالباً، قمت بزيارة أودنسه، وصادف ذلك رؤيتي لإحدى غرف المستشفيات الخيرية التي كانت تمكث بها السيدات الأرامل، وحينها تأملت أسرتهن المتراصة المتلاصقة إلى جوار بعضها، كما وقعت عيني على صورة إحدى السيدات، والتي كانت محاطة بإطار ذهبي، وكانت تلك المرأة هي إميليا جالوتي بطلة مسرحية ليسينغ، والتي كانت تقطف بعض الزهور في الصورة، ذلك المشهد الذي بدا مناقضاً لمشهد الفقر العام من حولها.

«من تلك المرأة التي في الصورة؟» سألت إحدى السيدات الأخريات، «أوه! تلك هي المرأة الألمانية التي كانت يوماً فنانة شهيرة!» قالتها إحدى سيدات الدار العجائز.

في تلك اللحظة تحديداً تأملت وجه المرأة المغطى بالتجاعيد كما أنني أطلت النظر إلى فستانها الأبيض الذي كان أسود اللون يوماً ما! وحينها أدركت أن تلك المرأة العجوز هي ذاتها تلك الفتاة التي كانت مطربة شهيرة! والتي قدمت أغنية الفالس الشهيرة المعروفة باسم «دوناوويبشين» والتي صفق لها الجمهور بكل حفاوة وحرارة في السابق! لقد ترك ذلك المشهد أثراً عميقاً على نفسي.

استمعت إلى صوت المطربة الإيطالية ماريا ماليبران لأول مرة في نابولي، وأذهلني أداؤها وغناؤها الذي تفوق على كل شيء رأيته أو سمعته في السابق، إلا أنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بالحزن الشديد الآن كلما تذكرت أن تلك المطربة البائسة باتت نزيلة إحدى غرف المستشفيات الخيرية في مدينة أودنسه، اندمجت الشخصيتان في مخيلتي لتكون الشخصية النسائية في روايتي، وكانت إيطاليا المكان الذي استوحيت منه وبنيت الرواية عليه.

عدت إلى الدنمارك في أغسطس عام 1834، وكتبت الجزء الأول من كتابي في منزل أنجيمان في مدينة سورو، وأنهيته في كوبنهاجن، وفي تلك الفترة المحددة أخبرني أصدقائي المقربون أنهم لا ينظرون إلي الآن باعتباري شاعراً حقيقياً وأنهم أخطؤوا في تقدير موهبتي، حتى إنني وجدت صعوبة بالغة في الحصول على ناشرٍ ما، وحصلت على مبلغ مالي رمزي، وحينها نشرت رواية «الارتجالي» التي تم بيع عدد جيد من نسخها، وأعيد طبعها ونشرها مجدداً، من اللافت للنظر، أن النقاد صمتوا تماماً في تلك الفترة، وكذلك لم تصرح الصحف والجرائد بأي شيء بخصوص عملي هذا، وعلى الرغم من ذلك فقد سمعت أن هناك اهتماماً جماهيرياً كبيراً بشأن ذلك العمل الأدبي. في نهاية

المطاف، ومن المضحك، أن الشاعر كارل بيجر، الذي كان يعمل في ذلك الوقت رئيس تحرير إحدى المجلات الشهيرة، بدأ نقده لي بذكر الخطاب المألوف ضدي:

«اعتقدنا بأن أمر هذا الكاتب قد انتهى، وقد عفى عليه الزمن».

قام السيد كارل بإيجاز شديد بنقدي وتكرار ما قاله الناس عني في البداية، ثم اندفع في تعبيره بإعجابه الحار بموهبتي، وكتابي الجديد، وضحك الناس الآن وبكيت أنا. لكن هذه المرة كنت في سلام عقلي جعلني أبكي بحرية. شعرت بالامتنان الشديد للرب والإنسان.

قمت بكتابة إهداء كتابي على النحو التالي:

«أهدي هذا الكتاب للسيد كولين مستشار الدولة وزوجته المحترمة، إنني أفخر لكوني أعتبر نفسي جزءًا من تلك العائلة الكريمة، وأعتبر منزلهم منزلي».

بات الكثيرون ممن كانوا أعدائي في السابق أصدقاء لي الآن، وكان من بينهم أحد الأشخاص الذي أصبح صديقاً مقرباً لي في الوقت الراهن وهو الشاعر المرموق جوهانس كارستن هاوس.

كان جوهانس كارستن هاوس قد عاد إلى الوطن بعد أن أقام في إيطاليا لعدة سنوات، وخلال عودته هذه المرة كنت قد حققت نجاحاً ملحوظاً بعد صدور كتابي «رحلتي سيراً على الأقدام إلى آماك»، والذي قد حقق لي بعض الشهرة في المجتمع، في تلك الفترة دخل هاوس في جدال مع الشاعر هيبرغ بشأن كتاباتي وبشكل ما سخر مني.

كان هاوس حينها يراني شخصاً تافهاً أفسده المديح، وربما يرجع رأيه ذاك إلى تلك الآراء ووجهات النظر التي كان يستمع إليها من حوله بشأني على الدوام، لكنه لاحقاً عندما تمكن من قراءة روايتي «الارتجالي» شعر حقاً بأن هناك شيئاً مميزاً في أسلوبي، ثم أرسل لي حينها خطاباً ودياً شرح لي فيه أنه قد ظلمني في السابق عندما وصفني بأني كاتب مدلل قد أفسدته عبارات الإطراء والمديح، وكذلك عرض علي في خطابه هذا أن يتم الصلح والتوفيق بيننا، وبالفعل فمنذ تلك اللحظة على وجه التحديد بدأ هاوس في مراقبة مشواري في مجال الكتابة، وبدأ في تقييمي بشكل عادل رحيم، ثم لاحقًا أصبحنا أصدقاء مقربين، وقد حدث ذلك رغم تلك الأقاويل والحملات الانتقادية التي شنها عدد من الأفراد المجهولين في المجتمع الدنماركي والتي كانت تثرثر بشأن ذلكِ الظلم الذي مارسه الشاعر هاوس ضدي في السابق، وذلك لأنه

أصدر كتاباً يروي قصة شاعر أصابه الجنون جراء غروره، فتعرض لانتقادات لاذعة هاجمت روايته التي كتبها في هذا الوقت والتي كانت تحت عنوان «صورة كاريكاتورية لشاعر ما». لم يفهم الناس مدى عمق صداقتنا وحسن أخلاقه، ووجد نفسه مضطراً لكتابة أطروحة عني كشاعر، ليوضح رأيه عن مكانتي العالية كشاعر.

وإذا عدنا للحديث عن روايتي «الارتجالي»، سنجد أيضاً أن هذا الكتاب قد أعاد لي الحظ الجيد مرة أخرى، وقد جمع أصدقائي حولي من جديد، وكذلك مكنني من تكوين صداقات جديدة، شعرت للمرة الأولى أنني حقاً ذلك الكاتب الذي يملك معرفة ورؤية حقيقية، وقد ترجم كتابي إلى اللغة الألمانية على يد كروس، وعلى الرغم من أن العنوان الألماني «الحياة الشابة وأحلام شاعر إيطالي» لم يلق مني قبولاً حينها، إلا أن كروس أقنعني أن ذلك أمر ضروري حتى يتمكن من جذب انتباه القراء هناك.

كان بيجر كما ذكرت سابقاً أول من نقد كتابي، بعد مضي بعض الوقت ظهر انتقاد آخر أكثر لطفاً وهذا شيء لم أعتده، مع ذلك تم ذكر العديد من نواقص الكتاب وأخطائه كعدد الكلمات الإيطالية المكتوبة بشكل خاطئ. حينها أيضاً صدر كتاب الشاعر نيكولاي المعروف بعنوان «إيطاليا كما هي في الحقيقة»، وقال الناس إنهم سيفهمون أخيراً ما كنت أتحدث عنه، حيث إن نيكولاي سينقل صورة واقعية أوضح.

كانت ألمانيا هي ذلك البلد الذي انبعثت منه الاعترافات بأعمالي للمرة الأولى، وقد بالغوا في تقديرها حقاً، وأنا أنحني تقديراً واحتراماً للجميع، قلبي ممتن وممتلئ بالحب، فأنا لم أعد الآن ذلك الكاتب الذي انتقدته «مجلة الأدب الشهرية الدنماركية»، لكنني بفضل رواية «المرتجل» تمكنت من الحصول على كل هذا المديح المطبوع على صفحات الجرائد والمجلات، لاحقاً كتبت عني كل الصحف السويدية، وامتدحني رجال النقد في مقالاتهم هناك، كما أنني تلقيت نفس هذا الاستقبال الحار أيضاً من إنجلترا عندما قامت الشاعرة ماري هوييت بترجمة عملي الأدبي إلى اللغة الإنجليزية، كما حدث نفس الأمر عندما تمت ترجمة كتابي إلى اللغة الروسية والهولندية، فقد عبر الجميع في ذلك الوقت عن مدى روعة هذا العمل وبراعته.

إن في رأي العامة قوة تتعدى تلك التي يملكها النقاد. شعرت بأن موقفي في موطني أصبح أفضل، وانتعشت روحي بالفرح. ونتج عن هذه الأحساسيس بالفكاهة والبهجة كتابتي لروايتي «أو - تي» والتي اعتبرها البضع أفضل أعمالي، وهو تقدير لا أستطيع أن أعطيه لنفسي أو أتأكد منه. تحمل هذه

الرواية في طياتها لمحات من حياة القرية. شعرت في تلك الفترة من حياتي بدافع قوي للكتابة وكنت مؤمناً بأنني قد وجدت شغفي الحقيقي في كتابة الروايات.

في العام التالي، تمكنت من إنهاء روايتي الأخرى «مجرد عازف كمان» التي أمضيت الكثير من الوقت أتأملها وأعتني بتفاصيلها. إن الموهبة ليست بالشيء المميز إن لم يصاحبها الحظ الغامر. كان لكتابي هذا الكثير من المعجبين، وبرغم ذلك لم يظهر النقاد لي أي تعاطف. ينسى الكثير منهم أنه ومع مرور السنين يتحول الصبي إلى رجل، وأن الناس يستطيعون اكتساب المعرفة عبر طرق أخرى تختلف عن التي يتشبثون بها، ولا يستطيعون فصل أنفسهم الحالية عن قناعاتهم السابقة.

بينما كانت رواية «أو-تي» تخضع للطباعة، عرض علي بروفيسور جامعي إعداد هذا العمل لغوياً، كما عرض علي آخرون ذلك، وعلى الرغم من ذلك قال النقاد «نرى في هذا العمل نفس الأخطاء النحوية التي اعتدناها من آندرسون». كان ما أدى إلى زيادة الحدة في نقدي هو الكتاب الذي أصدره هيبيرغ آنذاك بعنوان «يومياتي» والذي كان مكتوباً بلغة ممتازة وخالياً من الأخطاء، ومن الأفضل للنقاد حتى يرفعوا من مكانتهم أن يبدو ثناءهم وإعجابهم بكتاب نجم ساطع في الأدب كهيبرغ.

على أية حال، كنت في ذلك الوقت قد تطورت كثيراً ولم أعد أشك بقدراتي الشعرية مطلقاً. ولكن من الجدير بالذكر أن النقاد الدنماركيين لم يتحدثوا عن مميزات كتاباتي غير الاعتيادية، إلا أنه وعندما بدأت الصحف السويدية بنقد أعمالي بطريقة محترفة ومهذبة وتحليل أسلوبي وكذلك فعلت الصحف الألمانية، قام حينها رجل واحد بكتابة مقال عني في الصحف الدنماركية وكان هو الشاعر هاوس، الذي امتدح أسلوبي في المقال الذي كتبه عني وذكرته سابقاً، وسلط الضوء على مزايا رواياتي، وقال فيه «ما يميز كتابات آندرسون هو أنها الأغنى خيالاً، والأعمق عاطفياً وهذا ما يجعل القارئ يعيش روح الشعر الحقيقية، ويقدر تلك الشخصيات التي يكتب عنها آندرسون وما تواجهه من مصاعب وكرب الحياة. كان هذا هو جوهر رواياته الثلاث، والتي تمحورت حول هذه الفكرة التي عانى منها آندرسون شخصياً. قد تكون هذه المعاناة الداخلية هي الحياة السرية للكثير من الشباب الموهوبين الطموحين، ويجب قراءة أعمال آندرسون بداية فهي تكشف لنا هذا الجانب من الحياة بشكل واضح. في رواياته الثلاث، لم يعبر آندرسون عن نفسه فحسب، بل عبر عن التضارب الداخلي الذي يمر به الكثير من الناس في مرحلة من حياتهم، ومن العدل أن نقول إن آندرسون كان يفهم هذه المعاناة حقاً، وهذا ما جعله يقدم لنا الحقيقة

كما هي دون وحي الخيال، وهذا ما جعل رواياته تلقى استحساناً وتقديراً عالمياً. وعلى الرغم من كل هذا، آندرسون ليس المدافع عن الموهوبين والأذكياء فحسب، بل عن كل من عانى من الظلم بأي شكل من الأشكال. وتجلت موهبته في سرد المأساة المبكية، وعند قراءة ذاك المشهد من رواية «مجرد عازف كمان» حين أشاح كلب صيد مدرب نظره باشمئزاز عن الأطعمة التي قدمت للشباب الفقراء كصدقة، ندرك أنه لا يوجد مغرور قد يكتب عن شيء كهذا، وأن كل ما يتحدث عنه آندرسون هو الطبيعة البشرية المجروحة أعماقها ومعاناتها».

وهكذا وأخيراً تم نقدي بشكل منصف في الدنمارك، بعد مضي تسع أو عشر سنوات من حياتي ككاتب، هكذا هو النقد كالنبيذ، يجب أن تمضي سنين عديدة حتى يصبح طعمه أفضل.

في السنة التي نُشر فيها «مجرد عازف كمان»، زرت السويد، وكانت تلك المرة الأولى التي توجهت فيها إليها، وقد ذهبت مباشرة حينها إلى ستوكهولم، وخلال تلك المرحلة لم يكن لدى أحد أي فكرة عن معنى «التعاطف الاسكندنافي»، حيث وُجد في تلك الفترة نوع من عدم الثقة التي خلفتها الحروب القديمة، والتي نشأت بين البلدين، حتى إن ذلك الأمر قد أثر بدوره على مجال الأدب والثقافة، فلم تكن لدينا المعرفة الكافية في الدنمارك بالأعمال الروائية أو الشعرية أو القصصية المشهورة في الأدب السويدي، وكذلك لم تكن لدى أفراد المجتمع الدنماركي القدرة على فهم اللغة السويدية، ولم يكونوا حتى على علم بأسماء أبرز الأدباء والشعراء السويديين.

في ذلك الوقت كان منزل السيد كولين في كوبنهاجن، والذي كان يعمل مستشاراً موقراً للدولة، هو منزلي الثاني، واعتبرت عائلة السيد كولين عائلتي، كما أنني عاملت أبناءه كما لو كانوا إخوتي وأخواتي. عاملني بلطفٍ واهتمام وتقدير وقدمني إلى تلك الأوساط والدوائر الاجتماعية المحترمة، كانت الحياة المدرسية في كوبنهاجن مختلفة عما شهدته في بعض المدن الألمانية، فقد كانت مليئة بالحياة وفريدة من نوعها.

أحببت حياتي المدرسية في الدنمارك حباً جماً، وعشقت ذكريات الكتابة داخل الفصول الدراسية المزدحمة بالأساتذة الكبار والطلاب الصغار، واستمتعت أيضاً بكتابة بعض المشاهد المسرحية بنفسي أثناء وجودي في المدرسة وقيامي بأداء بعض الأدوار الفنية على خشبة المسرح برفقة عدد من الزملاء أو المعلمين حيث كنا نتبادل القيام بتلك الأدوار وكنا نقوم بها بمنتهى الحرية والفخر.

إنني أدين بالفضل أيضاً إلى أفراد عائلة السيد كولين التي احتضنتني خلال تلك المرحلة الحساسة من حياتي، والتي مدت لي يد العون مما ساعدني على إنجاز بعض الأعمال الأدبية، ومن ثم فقد تطورت لغتي وأسلوبي بشكل واضح، وكذلك بدأت أتجه بشكلٍ صريح إلى الكتابة الفكاهية الساخرة لأول مرة. كان لابنة السيد كولين تأثير كبيرٍ علي، وقد انعكست روحها المرحة وذكاؤها على كتاباتي أيضاً.

لاحقًاً تم تصنيف كتاباتي كأحد أهم وأبرز الأعمال الأدبية في تلك الفترة، وبدأت تنهال عليّ الإشادات وعبارات الإطراء التي حصلت عليها من القراء والنقاد، وكذلك تمكنت في تلك الفترة من الحصول على مقابل مادي مرتفع. ولكن ولكون قراء الأدب محدودين في الدنمارك فلا يعتبر ذلك المبلغ كافياً للعيش، وقد كان السيد كولين، كما هي عادته على الدوام، مصدر المساعدة والدعم والمواساة لي. تعرفت فيما بعد على السيد كونراد رانتزاو، الذي كان أحد سكان هولشتاين وكان أيضاً يعمل في منصب رئيس الوزراء في ذلك الوقت.

توطدت علاقتي به لأني وجدته رجلا نبيلاً راقياً ذا تعليم عالٍ، وكذلك كان حسن الطباع، رقيق القلب، وكان السيد كونراد أيضاً مهتماً بشدة بالاطلاع على آخر تطورات الحركات الأسلوبية واللغوية في الأدب الألماني بصفة عامة والدنماركي بصفة خاصة، وقد سافر كثيراً في شبابه إلى أسبانيا وإيطاليا، كما أنه أعجب بروايتي «الارتجالي» وقال لي إنه ظل أسيراً لها لفترة طويلة من الوقت سمح خلالها لخياله بأن يحلق معها في تلك الفضاءات الواسعة، وقد امتدحها في كل مكان ذهب إليه، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد حيث إنه قام لاحقًا بدعمي مادياً وربطتني به صداقة عميقة.

وذات ظهيرة بينما كنت جالساً بمفردي في غرفتي الصغيرة، أتى إلي ذلك الرجل الودود ووقف قبالتي للمرة الأولى، فقد كان أحد هؤلاء الرجال الذين بمقدورهم إلهامك بالتحلي بالمزيد من الثقة، وطلب مني أن أقوم بزيارته، وقال لي إنه على أتم الاستعداد لتقديم العون المالي لي إذا كنت بحاجة إليه.

لقد أشرت له كم هو أمر بالغ الصعوبة أن يجد المرء نفسه مجبراً على الكتابة حتى يمكنه أن يوفر لقمة العيش، وسردت له بشيء من التفصيل مدى صعوبة أن يجد الإنسان منا نفسه مجبراً على التفكير في المستقبل وأن يكون قادرًا باستمرار على تطوير عقله وأفكاره، وحينها شد على يدي وأكد لي أنه سيكون صديقًا حقيقيا بالنسبة لي.

كانت هناك مؤسسة داعمة للحكومة الدنماركية لعدة سنوات تحت حكم الملك فريدريك السادس، وكان هذا الدعم بشكل خاص يتولى المنح المالية المقدمة للشباب من فنانين وأدباء. قدمت هذه المنح الحكومية لشعرائنا المميزين مثل أولينشل جير، أنجيمان، هيبيرغ، سي وينثر، والكثير من الشعراء الآخرين. وقد تلقى هيرتز في هذا الوقت معاشاً كافياً لتأمين مستقبله، وكنت أتمنى بشدة الحصول عليها أنا أيضاً، وقد حصل ذلك حين منحني الملك فريدريك السادس مائتي دولار، ذلك عنى لي أنني لن أجبر على الكتابة من أجل العيش، وبعدها كنت أقل اعتماداً على الداعمين لي وكنت ممتناً حقاً، شعرت أن فصلاً جديداً من حياتي قد بدأ.

الفصل السادس

شعرت أن تلك المرحلة هي أجمل مراحل حياتي على الإطلاق، فقد استسلمت كلياً لنور الشمس الآسر الذي ملأ قلبي وكياني، وبدأت أتأمل تفاصيل حياتي الماضية وذكريات طفولتي بكل راحة وامتنان، كما أنني شكرت الرب من صميم قلبي على توجيه كل ظروف الحياة لصالحي في نهاية المطاف بتلك الصورة وعلى هذا النحو المباغت المحبب إلى النفس، رغم كل هذا إلا أن أيامي الربيعية تلك لم تكن لتخلو من الجوانب المظلمة، فلم تسر الأمور على هذا النحو الهادئ لفترة طويلة، إذ حاصرتني بغتة رياح لا تهدأ. ما أدى إلى ذلك كان رسالة من صديق عزيز أخبرني فيها بأسلوبه المميز «إن اعتقادك بأنك مكروه في السويد هو نسج من خيالك، لأن ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق. أنت والدنمارك تتوافقان بشكل مثير للإعجاب، وكنت سترى هذا بنفسك إن لم يكن هنالك مسرح في الدنمارك، هذا المسرح الملعون! ألا تعني الدنمارك لك شيئاً إلا بمسرحها؟ هل أنت مجرد كاتب مسرحي؟» ما قاله هيراين كان حقيقة ثابتة.

ذلك أن المسرح الدنماركي كان بمثابة الكهف الذي خرج منه كل ذلك الشر الذي عصف بي سابقًا، كان أهل المسرح غريبين في طباعهم، ومختلفين عن طاقم المسارح في أماكن أخرى، مثل مسرح البدوين في ألمانيا، الذي يقدر كل العاملين في المسرح باختلاف مستوياتهم ومواهبهم. يعتبر المسرح الدنماركي مسرحاً جيداً، ويمكن مقارنة مكانته بمكانة مسرح بورغ في فيينا.

إلا أن المسرح الدنماركي يهتم بالمناقشات كثيراً، ويحتل المسرح مكانة مهمة في أوساط المجتمعات الدنماركية، مما يجعل الجميع معرضين للنقد بشكل مستمر، على الرغم من أن معرفتي قليلة بممثلي المسارح الأخرى، إلا أنني أعرف أن المسرح الدنماركي لا يملك الانضباط اللازم، تلك السمة التي أعتقد أنها في غاية الأهمية من أجل تشكيل تلك الصورة الفنية الموحدة على خشبة المسرح.

لقد أردت الإشارة إلى ذلك الآن، رغم أني أعرف أن ممثلي المسرح الدنماركي لديهم مشكلاتهم الخاصة، ومن أبرز عيوبهم أنهم يحاولون على

الدوام التدخل في العمل الخاص الذي يقوم به مديرو المسرح، وكذلك تجدهم يحاولون فرض سلطاتهم على المؤلف بشكل ملحوظ ومتكرر.

يمكنني أن أقول أيضاً إن إحدى سمات أهالي كوبنهاجن هو انفعالهم الدائم بالمسرح، وكذلك بتلك الأعمال الفنية والدرامية التي يتم تقديمها من خلاله. فعندما يطلعون على عمل أدبي ما، تجدهم يقولون مثلاً إن هذا العمل سيفشل فشلاً ذريعاً عوضاً عن قولهم نتطلع لرؤية هذا العمل، ودائماً ما تجد الجماهير تعول على شيء مهم واحد إذا كان العمل المقدم على خشبة المسرح عملاً ضعيفاً، فتجدهم في تلك اللحظة يلقون بكامل اللوم على عاتق مؤلف هذا العمل، لأنهم يرونه المسؤول الرئيسي عن العمل المسرحي من حيث المضمون الأدبي وكذلك ترتيب وتنظيم الأحداث والشخصيات خلال أحداثه، ولكن إن كان العمل المسرحي جيداً فإذا بالجماهير تهتف في حرارة وحماس تماماً كما السيدات الإسبانيات اللواتي يهتفن في فرحة وشوق خلال معارك مصارعة الثيران الشهيرة في بلادهم.

لكن أوضاع المؤلفين الدنماركيين كانت سيئة جداً في تلك الفترة الزمنية، وبناء عليه فقد قررت أن أعيد كتابة الأوبرالية التي ذكرتها سابقاً، والتي تم انتقادها بشدة، كما أنني أنتجت أعمالاً أخرى في مجال الكتابة من أجل تحسين وضعي المعيشي وكذلك أيضاً من أجل القيام بنشاط آخر في هذا المجال الإبداعي المكتوب.

في تلك الآونة لم يعد السيد كولين مديراً للمسرح، فقد غادر وحل محله ذلك الناقد الذي كان يضطهدني في السابق والذي يدعى مولبيك، وحينها بدأت فترة الطغيان الاستبدادي تظهر على هيئة تلك الأساليب التهكمية الساخرة المعتادة من جانبه، وقد حرص السيد مدير المسرح بدوره على انتقاد كل أعمالي الأدبية المقدمة للمسرح ورفضها تماماً، ومن دون وجود أية أسباب وجيهة لذلك ولم أجد أمامي إلا سبيلاً واحداً من أجل عرض أعمالي الأدبية على خشبة المسرح، وقد كان ذلك يتمثل في أن أقوم بتسليم أعمالي الأدبية المقترحة تلك للفنانين المسرحين الذين كانوا يقومون ببروفات تمثيلية خلال فترات الصيف على نفقتهم الخاصة. ففي صيف عام 1839 قمت بكتابة أحد نصوص مسرح فودافيل الهزلي، قصته مبنية على مشهد من أحد أعمالي السابقة التي لم تلق نجاحاً، وقد لاقى ذلك العمل المسرحي حفاوة وتقديراً لا مثيل لهما من جانب الجماهير العريضة التي أحبت العمل وتفاعلت معه، حتى إنني حصلت على موافقة مدير المسرح في ذلك التوقيت وقد تكرر عرض هذه المسرحية لفترة طويلة وبأشكال مختلفة وهو ما لم أتوقع حدوثه.

على الرغم من ذلك، لم يساعدني الاستحسان الذي حصلت عليه على المضي قدماً في أعمالي. حيث إن كل أعمالي الدرامية التي قدمتها قوبلت بالرفض. مع ذلك أقدمت على كتابة مسرحية مقتبسة عن مسرحية فرنسية مشهورة وجعلتها درامية أكثر، ولأنني سمعت مراراً عن عدم اجتهادي في كتابة أعمالي، عكفت بجد على إنهاء مسرحيتي بإتقان وأناقة كاملة من بدايتها وحتى نهايتها، وقد زينتها بالمقاطع الشعرية الغنائية والتي زادتها جمالاً. كان هذا العمل جاهزاً وقد تم تعديله وتنقيحه من قبل الخبراء، والأصدقاء، وحتى الممثلين الذين سيظهرون في هذا العمل، لكن ميلبوك رفض هذا العمل أيضاً، وكان من المعروف عنه أنه يقدس الأعمال السيئة ويفضلها على الجيدة، وفي ذلك وجدت عزائي.

كان مساعد المدير مستشاراً خاصاً للدولة يدعى أدلر، كان رجلاً ذا ذائقة رفيعة ومتحررة، وقد قرر أن يرعى مسرحيتي ليتم عرضها، وحيث إن المسرحية لقت استحساناً لدى الناس، تمت الموافقة على عرضها. أذكر أنني قمت بقراءتها أمام الملك وزوجته آنذاك واللذين استقبلاني بطيبة وود.

وصل يوم العرض، لم أستطع النوم من فرط حماسي وتوقعاتي، طبعت لوحة العرض، واحتشد الناس لشراء التذاكر، ولكن فجأة كان رسل الملك يركضون في الشوارع ورجال الدولة يتجمعون، وسمعنا دوي المدافع، لقد مات الملك فريدريك السادس في ذاك الصباح!

ولأكثر من شهرين، كان المسرح مغلقاً، وتم افتتاحه تحت حكم الملك كريستيان الثامن، وكان أول عرض هو مسرحيتي الدرامية «ذا مولاتو» والتي استحصلت على نقد رائع وأثارت إعجاب الناس، لكنني لم أشعر بالسعادة بشكل خاص على الفور، شعرت بالراحة من حماسي المستمر، واستطعت أن أتنفس الصعداء. لاقى هذا العمل الاستحسان بشكل مستمر، وقال بعض الناس إنه أفضل من بقية أعمالي ولا يقارن بها. تمت ترجمة المسرحية إلى السويدية وعرضها على المسرح الملكي السويدي، حيث تلقت الكثير من الهتافات والإطراء. قام الممثلون المتجولون بعرضها في المدن الصغرى كمدينة مالمو، ولمجموعة من طلاب جامعة لند، ووالذين قاموا بدعوتي إلى مدينتهم العريقة، حيث أقاموا مأدبة عامة لتكريمي، وألقوا الكثير من خطابات المديح، ثم قام الطلاب بالغناء ليظهروا احترامهم وتقديرهم لي، وهو ما غمرني بالتواضع والامتنان.

غمرتني حفاوة ترحيبهم تلك وأدهشتني وأغرقتني في بحرٍ من الفرح الممتزج بالحيرة، كانت نبضات قلبي تدق متسارعة وقد شعرت بشعور جيد، لقد

أحسست بالخجل الشديد بغتة وتساءلت إن كنت حقاً أستحق كل تلك الإشادة. شعرت بأني لا أستحق كل ذلك الإطراء الذي استمعت إليه، وأخذت أنظر إلى وجوه الجميع وأتأملهم في دهشة لا تغيب، وأخذت أسأل نفسي مجدداً هل أنا حقًا أستحق كل تلك الابتسامات الرقيقة والعبارات العذبة الطيبة التي أغرقتني بكرمها.

مضيت قدماً أمام هذا الحشد الواسع من الجمهور وأنا أفكر تماماً كما لو كنت قد اكتشفت العالم للتو، وبعد أن ملأت هتافات الجمهور وتصفيقهم آذاني وقفت جامداً في مكاني أستمع إلى تلك الكلمات الساحرة التالية التي قد قام أحد الطلاب بترديدها في الخطاب الذي ألقاه على مسامعنا جميعاً:

«أرجو أن يتذكر السيد آندرسون ذلك اليوم عندما يتم تكريمه من بلدته، وكذلك من كافة البلدان الأوروبية! أرجو أن تظل ذكرى تكريمه من طلاب مدينة لوند السويدية الأولى في رأسه إلى الأبد!»

لا زلت أذكر جيداً وجوه أولئك الأشخاص الذين ابتسموا لي حينها في حماس، ولا زالت أصواتهم الفرحة تسكن أذني حتى يومنا هذا. يمكنني أن أعترف أيضاً أن كل هذا الإطراء الذي استقبلته من الجماهير العريضة في ذلك التوقيت جعلني أكثر حساسية بالنسبة للنقد، فلم يكن بمقدوري احتماله كما كنت أفعل في بداية رحلتي في عالم الكتابة، وقد رأيت بشكل جلي حينها أن معظم تلك الأصوات الناقدة التي شنت ضدي حملات مختلفة بشعة في السابق لم تكن تقوم بذلك بدافع المصلحة العامة أو بدافع الاهتمام بجودة الأعمال الأدبية المسرحية وإنما كان ذلك فقط من أجل إهانتي وإذلالي.

حاولت أن أبقي عقلي يقظاً نشطاً في الفترات اللاحقة، فقد كنت أفكر في تلك المرحلة تحديداً في فكرة كتابي المعنون باسم «كتاب مصور من دون صور»، وبدأت في العمل عليها بكد واجتهاد، وقد صدر ذلك الكتاب فيما بعد، وكتبت حوله المزيد من التعليقات، وتم إصداره كذلك في طبعاتٍ مختلفة، وقد استطاع كتابي ذاك أن يحقق شعبية كبيرة في ألمانيا، وتمت ترجمته إلى اللغة السويدية، وقد قمت حينها بإهداء العمل إلى نفسي، ورغم تلك الشهرة والنجاح الذي استطعت تحقيقها في هذا التوقيت خارج البلاد، إلا أن الناس في بلادي كانوا لا يزالون يتحدثون فقط عن تلك القصة التي قد قمت بكتابتها في السابق وتم تقديمها على خشبة المسرح تحت عنوان «الخلاسي».

فكرت حينها على الفور في ضرورة إنتاج عمل أدبي آخر والذي من المفترض أن يجمع بين أهمية الموضوع وكذلك علامات التطور الفكري، وكان يتوجب

علي أن أقوم بطرح كل الأفكار الإبداعية طبقاً لرؤيتي الذاتية ومنظوري الخاص، تبلورت الفكرة في رأسي وبدأت أكتب عن تلك القصة الدرامية التي تدور حول فتاة مغربية، وتمنيت من أعماق قلبي أن أتمكن حينها من خلال تقديمي لذلك العمل من إخراس أفواه كل هؤلاء المنتقدين، وأثبت فعلا أنني شاعر درامي، وقد تمنيت أيضاً أن أستطيع أن أقوم برحلة حيوية بعد الحصول على أرباح ذلك الكتاب، وأتمكن حينها من السفر إلى اليونان وتركيا بدلاً من التوجه إلى إيطاليا وحدها.

حفزتني رحلتي الأولى خارج البلاد إلى التطور الفكري، وتعطشت حقاً للسفر عدة مرات أخرى من أجل كسب المزيد من المعرفة حول الطبيعة والحياة البشرية. في الواقع لم ينل عملي الأدبي الجديد إعجاب الشاعر هيبرغ، ومن الجدير بالذكر أيضاً القول إن كافة أعمالي المسرحية الدرامية لم تحظ بالقبول والاستحسان بالنسبة له وكذلك بالنسبة لزوجته الممثلة المسرحية التي رفضت تماماً أن تقوم بأحد الأدوار التمثيلية الخاصة بهذا العمل الذي قمت بكتابته.

جرحني هذا الأمر بشدة، وقد ذهبت لبعض الأصدقاء لأعرب لهم عن حزني الشديد حيال ما حدث، وسرعان ما استحال الشاعر هيبرغ خصمي بغتة بعد أن كان حليفي يوماً ما! ذلك الشخص الذي كنت أقدره كثيراً كما أني اعتبرت زوجته من أهم وأبرز الفنانات في بلادنا، ورغم ما حدث بيننا من خلافات وخصومة إلا أنني مازلت أعتبرها فنانة قديرة لا تتكرر، وأرى أيضاً أنها كانت قادرة على تحقيق سمعة أوروبية وشهرة كبيرة هناك لو كانت فقط لغتنا الدنماركية منتشرة على نطاق واسع مثل الألمانية والفرنسية.

كانت فعلاً فنانة رائعة مدهشة في الأعمال التراجيدية والكوميدية على حد سواء، وسواء أكنت مخطئاً أم لا، فلقد شعرت بالألم الشديد بناء على موقفهما سالف الذكر. حاصرتني المنغصات الداخلية وبدأت أحس بعدم الراحة في وطني.

قررت أن أترك عملي الأدبي ذاك لمصيره الخاص، ومن ثم فقد انطلقت مضطرباً حيث كانت ويلات المعاناة تمزقني من الداخل. قمت بكتابة مقدمة كتابي «فتاة مغربية» أثناء مروري بتلك الحالة النفسية السيئة، الأمر الذي زاد من إزعاجي وثورتي، فإذا أراد أحدهم حقاً أن يتعرف على تلك المرحلة الحرجة من حياتي، كان عليه لزاماً أن يقوم بدراسة وتحليل أبرز السمات الجمالية للأعمال المسرحية التي كنت أقوم بكتابتها خلال تلك الفترة، فلو كان

هناك شخصٌ ما قد حل مكاني وصادف تلك المواقف الصعبة القاسية لكان سقط أسيراً للمرض على الفور.

خلال ذلك اليوم الذي قررت فيه الرحيل قام عدد كبير من أصدقائي بدعوتي إلى مأدبة عشاء، وحينها أيضاً استقبلني السيد كولين، والشاعر المرموق آدم أولينشلاغر والسيد أوريستد، وقد كان استقبالهم الحار ذاك أقرب إلى اغتسال قلبي بأشعة الشمس المشرقة وسط تلك الحالة العامة من الكآبة، وبعد أن استمعت إلى المزيد من أغنياتهم الشعرية الصادقة، ودعت أصدقائي الأحباء وغادرت بلدتي في حزن واضح في شهر أكتوبر لعام 1840.

قمت بزيارة إيطاليا وروما للمرة الثانية، وقمت أيضاً بزيارة اليونان والقسطنطينية، ووصفت تلك الرحلة في كتابي المعنون باسم «أسواق الشاعر» ثم قضيت بعض الأيام في هولشتاين برفقة الكونت رانتزاو بريتنبرغ الذي قام بدعوتي من قبل وتمكنت لأول مرة في حياتي من زيارة قلعة أجداده.

كانت هولشتاين غنية بالمشاهد الطبيعية الخلابة، وكذلك رأيت المزيد من المستنقعات والأراضي البرية الشاسعة الممتدة، وقد غادرت مدينة نورمبرغ بسرعة متوجهاً إلى مدينة ميونخ، هناك حيث التقيت مجدداً بكورنيليوس، وشيلنغ، وقد تم استقبالي بكل حفاوة من قبل كولباخ، وتمكنت هناك من تأمل تلك الحياة الفنية الموجودة في ميونخ، ورغم أنني كنت أتنفس بعض المرح إلا أنني سقطت أسير حزني وعزلتي في معظم الأحيان، فلقد كنت أمتلك تلك الموهبة التي تجعل المرء يتشبث بالجانب المظلم الكئيب للأشياء، تلك التي تمكنه من انتزاع المرارة وتذوقها، لقد كنت أحد هؤلاء الأشخاص الذين يعرفون جيداً كيف يعذبون أنفسهم تحديداً عندما يستنزفون كل قواهم!

خلال فصل الشتاء عبرنا ممر بيرنر متوجهين إلى فلورنس، ثم قضينا هناك بضعة أيام، وقد مكثت فيها فترة أطول في السابق، لاحقًا وصلنا إلى روما بالتزامن مع موعد أعياد الميلاد، وهناك قد شاهدت كل تلك الكنوز الفنية والتقيت عدداً من أصدقائي القدامى، ولكني لم أكن وحدي من يشعر بالسأم والضيق في تلك الفترة، فقد كانت الطبيعة أيضاً ليست على ما يرام، فالصخور تحطمت كما زاد منسوب نهر التايبر وكاد أن يغرق الشوارع، وقد اندلعت الحمى التي قضت على حياة المزيد من الأشخاص حتى إن الأمير بورغيسي خسر زوجته وأطفاله الثلاثة خلال أيام معدودة، وكذلك كشرت الرياح عن أنيابها وتساقطت الأمطار بغزارة كما أني لم أستقبل أخباراً جيدة من الديار، فقد أخبرتني تلك الرسائل التي وصلتني حينها أن مسرحيتي «فتاة

مغربية» قد تم عرضها مرات عدة على المسرح إلا أنها لم تلق أي نجاح جماهيري وبناء على ذلك فقد قام مدير المسرح باستبعادها ووضعها جانباً، وقد أشارت بعض الرسائل الأخرى القادمة من كوبنهاجن أن مسرحية هيبرغ والتي كانت تمثل ملحمة شعرية والمعنونة باسم «شبح ما بعد الموت» حققت نجاحاً كبيراً وقد تغنى بها فرحاً كل أبناء المجتمع الدنماركي المحلي.

وصلتني العديد من الرسائل القادمة من موطني وتفيد بأن مسرحية هيبرغ حققت نجاحاً لا مثيل له وأن السبب الرئيسي في ذلك الأمر يعود إلى قيام الشاعر هيبرغ بجعلي أضحوكة في المسرحية.

في الواقع لم يخبرني أحدهم ما الذي قاله هيبرغ عني بالضبط، ولم يحدثني أحدهم مشيراً لي إلى جوانب التسلية والإمتاع وكذلك جوانب التهكم والسخرية في ذلك العمل، وقد شكل هذا الأمر في حد ذاته ألماً مضاعفاً بالنسبة لي! فلم أكن أعرف سبب ذلك، ولم يكن لدي أدنى فكرة لماذا قام هيبرغ بالسخرية مني على هذا النحو الذي يتحدث عنه الجميع! لقد شعرت وكأن قطعة من الرصاص المنصهر قد لامست يدي! أجل! إلى هذا الحد المميت كنت أتألم! وقد ظل الأمر هكذا حتى لحظة عودتي إلى الدنمارك، وحينها عندما قمت بقراءة ذلك الكتاب، وجدت أن ما قيل لي لم يكن حقيقياً أبداً! فما فعله الشاعر هيبرغ أنه قام باستخدام اسمي ضمن شخصيات ذلك العمل الأدبي ورغم أن أسلوبه العام كان تهكمياً ساخراً إلا أنه عندما أشار إلى بعض قصائدي وصفها بأنها جيدة، وهذا في حد ذاته جعلني أفكر أن أرسل له خطاباً مصحوباً بكلمات الشكر ولكني تراجعت عن تلك الفكرة خوفاً من أن يتم فهمي بشكل خاطئ.

لم أقرأ هذا الكتاب قبل ذهابي سابقاً إلى روما، ويجدر بالذكر القول إنني تلقيت عدداً من السهام القاتلة في تلك الفترة والتي تحسست آثارها العميقة بنفسي، لقد شعرت لاحقاً أن روما لم تكن تلك المدينة الجالبة للفرح والبهجة، فمازلت أتذكر أنني اختبرت أياماً صعبة قاسية في ذات المدينة عندما ذهبت إليها آخر مرة، كما أنني شعرت بالمرض حقاً لأول مرة في حياتي، لقد احتل الألم جسدي وحاولت أن أبذل قصارى جهدي للخروج من تلك المدينة.

التقيت الشاعر الألماني هانس بيتر هولست في روما، الذي كان قد حصل هذا العام على معاش السفر الذي ساعده على الانتقال خارج البلاد، وكان هولست قد كتب رثاءً للملك فريدريك السادس، والذي قد أشعل الحماسة في نفوس الجماهير وبدأت قصيدته تتردد على الألسنة وحملت كلماته تلك اسم «نهر الراين» في ألمانيا

عاش السيد هولست برفقتي في نفس المنزل، وعاملني بعطفٍ ولطف، واصطحبني لاحقاً إلى نابولي، حيث كانت الثلوج تتراكم على التلال، وغابت أشعة الشمس تقريبًا عن المشهد، وقد زاد شعوري بالحمى في تلك الفترة، وعانيت بشدة جسدياً ونفسياً، ولكن مالك المنزل اهتم بصحتي وأنقذ حياتي.

تحسنت صحتي كلياً بعد مرور بضعة أيام قليلة، وقد أبحرت إلى اليونان من خلال إحدى بواخر الحرب الفرنسية، وكان الشاعر هولست برفقتي على متن السفينة. شعرت حينها بأني على مشارف استقبال حياة جديدة مشرقة كما أني أعتقد أن هذا الأمر بدا جلياً من خلال كتاباتي الأخيرة والتي عكست بطريقةٍ ما أنني أصبحت أمتلك وجهة نظر أخرى في الحياة، وكان لتلك المرحلة أيضاً أثرها الواضح على تطوري الداخلي، فقد شعرت وكأن هناك هالة من النسيان قد غلفت عقلي وجعلتني أنسى تماماً كل تلك المرارة التي اختبرتها في الأيام الماضية.

شعرت بحالة من التجدد تسيطر على عقلي وجسدي وأفكاري والتي منحتني الشجاعة المطلقة لأن أرفع رأسي مرة ثانية وأواجه الحياة بكل تحدياتها.

في كل بلدة سويسرية كنت أصل إليها، أراها أكثر رقياً وبهاءً من البلدة التي سبقتها، ذلك البهاء الذي قد تفوق على نظيره الإيطالي. كان الجمال اليوناني أيضًا يفترش الطبيعة من حولي، غمرني كل هذا وترك عظيم الأثر على نفسي، فقد كنت أؤمن بشدة أنه ما من قصيدة شعرية مهما كانت درجة عظمتها أو دهشتها قادرة على استيعاب كل هذا النقاء الآسر، وشعرت حينها كذلك بمدى ضآلة تلك الفوارق اليومية الحياتية غير العادلة.

تدفقت بداخلي مملكة كاملة من الأفكار، تلك الرؤى المدهشة التي ظلت عالقة بروحي من دون أن تتجسد أي فكرة من بينها على الورق. كان لدي رغبة قوية في التعبير عن تلك الفكرة التي سكنت رأسي خلال تلك الفترة. بدأت أتصور فكرة الخلق الأولى والتي تتمثل في وجود الإله بنفسه على الأرض من أجل متابعة تلك القوانين والأهداف التي خلق من أجلها هذا الكون بأسره، ووجدت نفسي أفكر في قصة «اليهودي التائه» الشهيرة، ولمدة اثني عشر شهراً تولدت المزيد من الرؤى الإبداعية من بحر أفكاري الخاص، تلك الرؤى الداخلية التي ملأت نفسي وأمدتني بالحكمة والقوة، ففي بعض الأحيان، كنت أتخيل نفسي برفقة الكيميائيين خلال قيامنا باستخراج ذلك الكنز الخفي، لكن هذا الشعور التخيلي بالانتصار لم يكن ليستمر فترة طويلة فسرعان ما كان يغيب بغتة وكان اليأس يتملكني كلياً ويشعرني بأنه ليس بمقدور أي أحد إخراج ذلك الكنز إلى النور.

وجدت أنه ينبغي علي أولاً أن أتمكن من اكتساب أكبر كم ممكن من المعلومات المتنوعة المختلفة التي تشمل ميادين شتى حتى أتمكن من التوصل إلى فكرتي الإبداعية الخاصة.

مازلت أتذكر أنني عندما كنت في الديار، كنت مضطراً لسماع المزيد من عبارات اللوم والتوبيخ بخصوص ما يطلقون عليه «الرغبة في الدراسة»، وكنت حينها أجلس وسط الليل البهيم أدرس تاريخ فلسفة هيجل، ورغم أني كنت صامتاً على الدوام، ورغم أنني كنت أحاول أن أدرس بجد واجتهاد لا ينتهي إلا أنه ذات يوم قد أخبرتني إحدى السيدات المتعلمات في بلدنا أن الناس يقولون إنني لا أملك أية قدرات تؤهلني لتلقي المزيد من التعليم.

أخبرتني تلك المعلمة ذات مرة أن كتاباتي الشعرية الأدبية لا تشتمل على أية أساطير على الإطلاق، وأن قصائدي بأكملها تخلو تماماً من صورة أي إله! وأنه يتوجب علي أن أستعين بأي حكايات قديمة وأساطير في كتاباتي، ونصحتني أن أقرأ لراسين أو كرونيه، وقالت إن لكل شخص منا كاتباً يمثل قدوة ومثلاً أعلى له ومن هنا تحديداً تأتي سمة التعلم.

قمت بالفعل بمحاولة تنفيذ ذلك عندما تفرغت لقراءة المزيد والمزيد عن شخصية أوزوريس المذكورة في الكتاب المقدس حتى أتمكن من كتابة قصيدة شعرية عنها إلا أنني لم أتمكن من القراءة بشكل مفصل لأن المادة نفسها تم تقديمها باللغة اليونانية، ورغم ذلك العناء إلا أنني بذلت قصارى جهدي لكتابة قصيدة شعرية صادقة موزونة أردت أن أتركها كعمل شرفي ليقرأها أولئك الأطفال ويشاركوني حلمها الخيالي.

سافرت لاحقاً إلى أثينا، وهناك تم استقبالي بحفاوة من قبل الأستاذ روس أحد أبناء مدينة هولشتاين، و استقبلني آخرون بكل ود وألفة وغمرتني البهجة عند وصولي إلى بروكيش أوستن حتى أن الملك والملكة استقبلوني بكل ترحاب ومحبة، وقد احتفلت أيضاً بعيد مولدي في مدينة أكروبوليس ثم أبحرت من أثينا متجهاً إلى مدينة سميرنا، ويمكنني القول إن ذلك الفرح الطفولي الذي كان يغمرني في كل مرة أسافر فيها خارج البلاد كان قد غادرني في رحلتي تلك وحل محله ذلك الشعور بالولاء والتفاني الذي شعرت به عندما كنت طفلاً صغيراً ودخلت الكنيسة لأول مرة في حياتي في أودنسه، وحينها فكرت في المسيح الذي نزف على تلك الأرض من أجلنا، وفكرت أيضاً في هومر الذي غمرت كلمات أغنيته الخالدة أرجاء الأرض، وكذلك شواطئ آسيا والتي بدت وكأنها تلقي على مسامعي خطبة وعظية أكثر سحراً وإبداعاً من أي خطبة كنسية دينية، قضيت أحد عشر يوماً في القسطنطينية، وحسن حظي يلازمني

في السفر على الدوام، إذ صادف ذلك اليوم ذكرى مولد النبي محمد خلال إقامتي هناك، وقد رأيت حينها تلك الاحتفالات النورانية المدهشة التي أعادتني إلى ذكريات ألف ليلة وليلة.

عاش سفيرنا الدنماركي على بعد عدة أميال من القسطنطينية، ورغم أنه لم تكن لدي أية فرصة لرؤيته من قبل لكنه قد تم استقبالي بحفاوة من سفير الفاتيكان النمساوي فون ريمر، والذي اصطحبني إلى منزله الألماني برفقة أصدقائه، وبينما كنت أفكر خلال تلك الأثناء في أن أقوم برحلة العودة الخاصة بي عن طريق البحر الأسود وصولاً إلى نهر الدانوب، لكن حالة الاضطراب التي كانت تحتل البلدة في تلك الفترة أربكتني، فقد قيل إنه تم قتل عدد كبير من المسيحيين، وحينها أقنعني رفاقي في تلك الرحلة أن أعدل عن فكرة العودة عبر نهر الدانوب التي كنت أتوق حقاً للقيام بها، ومن ثم فكان يتعين علي حينها العودة عن طريق اليونان وإيطاليا، لقد كان الأمر أشبه بالنزاعات الحادة بين الأطراف المتشابكة، ورغم ذلك يمكنني الاعتراف بكل صراحة أنني لم أكن أحد هؤلاء الأشخاص الذين ينتمون إلى قسم الشجعان، فقد كنت أشعر بالخوف والقلق على الدوام تحديداً في تلك الأخطار الصغيرة، حتى في تلك المشكلات الكبيرة، ورغم أنني كنت أرتجف خوفًا كما هي عادت،ي وكان القلق يعصر تفكيري إلا أنني في كل الأحوال كنت أحاول القيام بالأمر اللائق مهما كلفني الثمن.

في الواقع لا يتملكني الشعور بالخجل لأنني أعترف بنقاط ضعفي الآن، على النقيض فأنا أؤمن بأنه يتوجب على المرء أن يتمسك بذلك الشعور في بعض الأوقات، فإنه يتوجب عليه القيام بدور الوصاية الحذرة في ذلك الحين، فتلك الصفة هي ما تجعل الإنسان منضبطاً في تصرفاته وسلوكياته ولا تجبره على التصرف على نحوٍ أهوج كما أني أيضاً لا أوافق على ذلك الرأي الشائع الذي يقول إن الخوف هو نقيض الإيمان وذلك لأن الخوف شعور فطري، ومن ثم فإني لا أجد أي عيب في شعور الإنسان بالخوف في بعض الأحيان ما دام يقوم بواجبه على النحو الصحيح. كانت لدي رغبة قوية في التعرف على كل الأنحاء الداخلية لتلك البلدة، وكذلك أردت أن أعبر نهر الدانوب ذو الامتداد الشاسع.

خضت صراعات عدة مع نفسي، وصورت لي مخيلتي أبشع الصور وأكثرها رعباً، وقد قضيت ليلة قاسية مؤرقة في صباح اليوم التالي قمت باستشارة سفير الفاتيكان النمساوي السيد ريمر بشأن إمكانية قيامي بتلك الرحلة من عدمه، وحينها رأى السيد ريمر أنه يتوجب علي القيام بذلك بالفعل ومن ثم فقد عقدت العزم من أجل ذلك، ومنذ تلك اللحظة تحديدًا اعتمدت كلياً على الحماية الإلهية.

لم يحدث لي أي شيء، لقد كانت الرحلة ممتعة ومزدهرة، على الرغم من قضاء فترة الحجر الصحي على الحدود، ذلك الأمر الأكثر إيلاماً بالنسبة لي، وبعدها تمكنت من الوصول إلى فيينا في اليوم الحادي والعشرين من الرحلة، وحينها غمرت البهجة قلبي بمجرد رؤية أبراجها العالية العتيقة، وكذلك عند التقاء عدد كبير من المواطنين الدنماركيين، ذلك الأمر الذي أشعرني أني في الديار بغتة ولكن لم تدم سعادتي طويلاً فسرعان ما تذكرت تلك الآلام والأحزان التي اعتدت أن أعيشها في بلادي.

في شهر أغسطس لعام 1841 عدت مجدداً إلى كوبنهاجن، وهناك كتبت عن ذكرياتي تلك خلال أسفاري ورحلاتي المختلفة، وقد قمت بتدوينها تحت اسم «أسواق الشاعر»، تألف الكتاب من عدة فصول واشتملت على بلدان مختلفة متعددة، وكذلك أهم الأشخاص الذين التقيت بهم، وقد عبرت عن تعلقي الواضح بتلك الأماكن جميعها فأنا أؤمن أن الشاعر تماماً كالطائر يجد لذته في الانتقال بين السماوات المفتوحة لينفرد بإطلاق أغنيته الإبداعية التي يعكف على التغريد بها على الدوام.

تمت ترجمة هذا الكتاب لعدة لغات على مستوى العالم، وكذلك لاقى نجاحاً حقيقيا في الدنمارك، رغم أنه نادراً ما كان يحدث أمر كهذا في بلادي، فقد كان يتم انتقاد أعمالي بصفة مستمرة، ولكن هذا العمل على وجه التحديد المعنون باسم «أسواق الشاعر» حقق مستوى قراءة مرتفعاً في بلادي، حتى إنه ولأول مرة لم يقم أي ناقد بمهاجمة العمل، ماعدا ناقداً واحداً كان شاباً في مقتبل العمر، كنت أعرفه مسبقا حين تواصل معي لأنه أراد التعبير عن حبه وإعجابه بكتاباتي. كنت أكن الود لذلك الشاب ومازلت أفعل، وأعتقد أنه رأى في كتابته لنقد ساخر عني فرصة لزيادة شعبيته عند القراء الدنماركيين، ولم يفكر في الألم الذي قد يسببه هذا لي.

إن أحد أبرز عيوب النقاد الدنماركيين هي أنهم لا يملكون أعيناً مفتوحة بمقدورها أن تتأمل فلسفة الطبيعة وأوجه جمالها، حتى أكثر أولئك النقاد ثقافة وتحضراً تجدهم يفتقدون إلى تلك الميزة.

ذات يوم انتقدتني إحدى تلك المجلات الأدبية الشهيرة والتي وجهت لي اللوم والتوبيخ لأني قمت ذات مرة بوصف قوس قزح خلال وقت الغسق في إحدى قصائدي الشعرية المنشورة، وقد قالوا حينها إن تصوري الخيالي ذاك أمر مبالغ فيه ومصطنع، حتى إنني مازلت أتذكر أيضاً أنهم انتقدوا إحدى العبارات

التي استخدمتها في كتابي المعنون باسم «أسواق الشاعر»، والذي أحكي فيه عن رحلاتي وأسفاري بين البلدان المختلفة، وتلك العبارة تحديداً كانت تقول:

«لو كنت رساماً لأردت حينها أن أرسم ذلك الجسر العتيق، لكنني شاعر لذا يتعين علي أن أتحدث عن جماله».

لقد قال النقاد بخصوص تلك النقطة ما يلي: «إنه شخص مغرور جداً، فهو يرغب من خلال عبارته تلك أن يخبرنا أنه شاعر!»

في الواقع، لقد كان هذا النقد مثيراً للشفقة إلى الحد الذي لا يمكن أن يجرح أحداً، لكنني كنت معتاداً خلال وجودي في المسرح الدنماركي لفترات زمنية طويلة على الاستماع إلى أحاديث مشابهة لذلك الهراء.

في تلك الأثناء حقق كتابي «أسواق الشاعر» نجاحاً كبيراً في الدنمارك لأول مرة، وقد تواصل معي الكثير من أولئك الأفراد الذين ينتمون إلى أكثر ميادين الثقافة رفعة في بلادي، وأرسلوا لي المزيد من عبارات الإطراء والتشجيع، وقد أمدتني تلك الرحلة بالقوة الجسدية والفكرية، وبدأت تظهر عدة مؤشرات بشأن توجهي للبحث عن غرض أكثر متانة ونقد أقوى، وأصبحت أكثر انسجاماً مع نفسي ومع البشر من حولي.

تطورت الحياة السياسية في الدنمارك في تلك الفترة بشكل ملحوظ، وقد أنتجت تطورات تلك الحياة بعض الثمار الجيدة والفاسدة على حد سواء، حيث شهدت حركة الحريات في ذلك المجتمع ازدهاراً واضحاً، مكّن الجميع من تناول كل الموضوعات المجتمعية والإنسانية بحرية كاملة بدلاً من تلك الحالة السابقة التي كان تشهد تكميماً للأفواه وقيوداً مفروضة على المناقشات العامة.

في الواقع، كان لي رأي مختلف في تناول تلك المسائل السياسية، لم أكن أدمج نشاطاتي تلك مع الأنشطة السياسية المجتمعية، لقد كنت أعتبر أن الحركات السياسية التي تمارس استعراض القوى تؤثر بشدة سلباً على حركة الشعر ومكانة الشعراء، حيث إنه في واقع تلك السياسات تم استغلال الشعر وتحجيمه بطريقة محددة ثم امتداحه قليلاً ثم نسيانه إلى الأبد، ففي أيامنا تلك كان كل فرد يرغب أن يحكم البلاد!

تطلع الجميع إلى المشاركة في الأعمال والحركات السياسية وحدها، لقد بدا الأمر وكأن الجميع يرغب في أن يقف على أعالي الشجرة من دون أن يتأمل جذورها الممتدة! كل ما كان يفكر فيه أفراد مجتمعنا في تلك المرحلة الحرجة هو أن ينحني أحدهم قبالة الآخر المسيطر أو المهيمن. لم تكن السياسة تعنيني، فلقد آمنت أن الرب قد زودني بمهمة أخرى كان يتوجب علي إنجازها وتأديتها على أكمل وجه.

التقيت لاحقاً بأفراد تلك العائلات المرموقة الغنية، وصادقت عدداً من أصحاب القلوب الطيبة الرقيقة والعقول المستنيرة المفكرة الذين قد وضعوا كامل ثقتهم في شخصي، واستقبلوني بكل تقدير واحترام في دوائرهم الاجتماعية وسمحوا لي بمشاركتهم السعادة في منازلهم وقاموا بدعوتي إلى منازلهم الصيفية لقضاء العطلات برفقتهم هناك. شعرت بالمحبة والاستقلالية، وتمتعت أيضاً بسبل الاستمتاع بالطبيعة، وتلك النزهات الانفرادية الهادئة التي كنت أقوم بها في الغابات وحدي، ولقد شعرت بكل ألوان البهجة خلال تلك الفترة المهمة، وقد راقت لي حياة الريف البسيطة بكل صورها وملامحها الشاعرية حيث إنني عشت هناك وسط تلك المناظر الطبيعية الخلابة، وقمت بكتابة عدد ضخم من حكاياتي الخيالية في تلك الأجواء، هناك على ضفاف تلك البحيرات الهادئة وسط الغابات الواسعة حيث المروج العشبية الخضراء، وذلك المرح الذي يغرد في الآذان المفتوحة وحيث يحلق طائر اللقلق البهي ذو الأرجل الحمراء، وسط تلك الأجواء الخلابة الشاعرية لم أكن أعير انتباهي للسياسة بكل أخبارها، ولم أكن أهتم أبداً بالمجادلات والمشاحنات، ولم أكن أسمع أحدهم يتدرب على ممارسة وصياغة فلسفة هيجل.

حاصرتني الطبيعة من كل اتجاه، فقد كانت تتحدث إلي من الداخل وكأنها تهمس سراً إلى روحي المعذبة، وقد قضيت أسعد أيامي في قلعة جيسلفيلد في أحد الأديرة العتيقة والتي كانت تقع في منطقة منعزلة كلياً ومحاصرة بالبحيرات والتلال. كانت الكونتيسة العجوز السيدة دانيش أولد هي إحدى راهبات الدير الموجود في تلك المنطقة، وكانت امرأة مدهشة عاملتني كشخص معروف محترم في المجتمع، فلم أكن في تلك الفترة الزمنية ذلك الطفل الفقير المعذب الذي يشفق عليه الجميع.

مازلت أتذكر مشهد أشجار الزان التي باتت تغطي قبرها الآن، كان ذلك المنظر الطبيعي محبباً لنفسي في السابق. بالقرب من قلعة جيسلفيلد، وفي أحد المواقع الطبيعية الجميلة تواجدت ملكية بريجنتود والتي كانت تخص

الكونت مولتك وزير المالية الدنماركي الشهير حينها، الرجل الموقر الذي أبهجتني استضافته لي في منزله في تلك الفترة المحددة من حياتي.

ربما تبدو كتاباتي على هذا النحو على أنها محاولة لذكر أسماء بعض الأشخاص في الصدارة وذلك من أجل استغلال تلك المسألة على نحو جيد، أو أنني أقوم بذلك محاولاً أن أقدم استعراضاً واضحاً بذلك أو قد يعتقد البعض أنني أقوم بهذا تحديداً من أجل توجيه عبارات الشكر والثناء لأولئك الأشخاص المحسنين إليّ أو من قاموا بتقديم الدعم المادي من أجلي خلال رحلتي الطويلة، ولكن حقيقة الأمر أن أولئك الناس ليسوا بحاجة إلى ذلك أبدًا، وكذلك لو كانت تلك هي نيتي في الأساس لكان لزاماً علي حينها أن أذكر أسماء المزيد من الأشخاص.

ذهبت لاحقاً إلى منزل البارون ستامب، الذي كان أحد أشهر الأماكن في ثورفالدسن، وعشت هناك برفقة النحات الشهير وسرعان ما تعرفت فيما بعد على أحد أعز أصدقائي اليافعين، والذي أصبح مالكاً مستقبلياً لهذا المنزل.

كان لمعرفتي الشخصية بتلك الدوائر الاجتماعية بالغ الأثر على نفسي، فعلى الرغم من التقائي بعددٍ هائل من الأمراء والملوك والنبلاء والفقراء إلا أنني لاحظت أننا جميعًا نشبه بعضنا الآخر في سمة واحدة وهي «السمو الإنساني»، تلك الصفة التي هي أكثر قيمة وأهمية في رأيي.

كنت أحرص على قضاء فصل الشتاء في الدنمارك، والذي يمتاز بسماته الطبيعية المميزة التي تختلف عن البلدان الأجنبية الأخرى، مكثت خلال ذلك الفصل في كوبنهاجن في منزل السيد كولين، واستمتعت جداً بقضاء وقتي هناك برفقة أبنائه وبناته وأطفالهم الرائعين، وفي كل عامٍ كانت صداقتي تتوطد أكثر من السابق مع الملحن المبدع الموهوب هارتمان، وقد كان كولين هو مستشاري في الحياة العملية بينما كان أوريستد هو مستشاري في الشؤون الأدبية كما شكل المسرح بالنسبة لي إذا جاز التعبير مكانة أقرب إلى النادي الخاص، فقد اعتدت على زيارته كل مساء، وفي هذا العام على وجه التحديد حصلت على قاعة متواضعة داخل المسرح لتقديم أعمالي، وكنت أعرف جيداً أنه على المؤلف أن يعمل على ذلك وأن يبذل قصارى جهده من أجل إنتاج وكتابة المزيد من الأعمال التي يلتمس تقديمها على المسرح، وعندما يقبل عمله الأول على سبيل المثال، فإنه يبدأ بالتأهب للدخول إلى ردهة المسرح، وبعد أن يحقق عمله الثاني نجاحاً يبدأ في الوجود في ذلك المكان الذي يوجد فيه الممثلون، وبعد أن يقوم بإنتاج وكتابة ثلاثة أعمال

مسرحية ناجحة تجد الشاعر يبدأ في تحقيق سلسلة من النجاحات المتلاحقة، والتي تجعله يتقدم ويصل إلى أفضل الأماكن وأكثرها رقياً، وعلى هذا النحو برز أهم وأنجح شعراء الدنمارك.

وفي عام 1840 استطعت الحصول على مكانٍ جيد في المسرح بعد أن قمت بكتابة وإنتاج سبعة أعمال، واستمعت لاحقاً بكتابة أحد أبرز الشعراء الدنماركيين لنقد إيجابي حول الأعمال التي كنت أقدمها وكذلك كنت أتشرف جداً بجلوسي إلى جانب عدد من كبار القامات الفنية المسرحية خلال تلك الأثناء.

مر الوقت سريعاً جداً في تلك الفترة المليئة بالنجاحات والبهجة والإشراق، وكنت أجلس وسط الجمهور في حالة من الدهشة الممتزجة بالفرح تماماً كما كان يتملكني ذلك الشعور عندما كنت طفلاً صغيراً أجلس مستمعاً إلى حكايات الآباء والأجداد الخرافية الأسطورية، وكنت أنحني تحية للجمهور على خشبة المسرح وأنا أردد سراً صلواتي.

في الواقع، لم أكن أتخيل يوماً أنني سأقف أمام ذلك الحشد المكون من هؤلاء الرجال البارزين العظماء الذين جاؤوا من أجل امتداحي والإشادة بموهبتي التي باتت جلية أمامهم في تلك الأعوام المحددة، وقد كان أحد النقاد الذي كتب عني مقالات قاسية في السابق، ذلك الرجل الذي شن ضدي المزيد من الحملات يجلس إلى جانب هؤلاء الكتاب والشعراء الدنماركيين البارزين الذين كانوا يسجلون كامل إعجابهم بي في تلك اللحظات، ولقد تأملت وجهه ووجدت الغرور والجهل يسكنه وشعرت أنه ربما أحس في تلك اللحظات أنه قد أخطأ في تقييم أدائي خلال الفترات السابقة المنقضية.

تمكنت حقاً من معرفة الشاعر والأديب الدنماركي البارز الشهير آدم أولينشلاغر حق المعرفة، فتلك الصورة التي يراها الجميع عنه في الدوائر الثقافية والفكرية والاجتماعية لم تكن مشبعة بالنسبة لي لذا حاولت أن أتقرب إليه أكثر ووجدته شخصاً هادئاً طيباً أقرب إلى الطفل الوديع الذي لا يمكن للمرء أبداً مقاومة إغراء صداقته.

كان له تقريباً نفس تلك المكانة التي احتلها جوته في ألمانيا بالنسبة لنا في الشمال، وقد لعب أولينشلاغر دوراً عظيماً في تطور الحركة الشعرية والمسرحية في المجتمع الدنماركي، وقد تمتع بقدرته التفصيلية على اختراق روح الشمال والتعبير عنها، تمكن كذلك من الارتقاء بالذوق الجماهيري العام بطريقته الفنية الخاصة، ربما تلك المكانة الهائلة البارزة لم يكن أولينشلاغر

ليحظى بها في البلدان الأجنبية الأخرى، ومن أبرز الأعمال التي شكلت شهرته «كوريجو»، و «علاء الدين»، ولكن قصيدته المعنونة باسم «الآلهة الشمالية» كان لها الدور الأكبر في شهرته والاعتراف به كأبرز رواد الشعر في الدنمارك فقصيدته تلك تعد بمثابة الإلياذة بالنسبة لنا، كانت تمتاز بالتجديد والقوة، ولا يمكن لي حقاً أن أعبر عن مدًى روعتها بتلك الكلمات التقليدية المحدودة.

أحسست أن موهبة آدم أولينشلاغر تشهد عظمة هائلة نشأت في داخله أولاً ثم كان لها أن تظهر للجميع في هيئة قصائد شعرية عظيمة، فتلك الشخصيات الأسطورية الخيالية التي تحدث عنها ووظفها من خلال أعماله المسرحية الشعرية سوف تعيش إلى الأبد، وقد قدرته الدنمارك والنرويج والسويد بشدة، وقاموا بتكريمه مراراً للإشادة بروعة أعماله الأدبية المرموقة.

لقد كان شاعراً حقيقياً منذ ميلاده، ودائما ما كانت الحيوية والشباب يظهران على وجهه وملامحه الطيبة رغم أنه كان أكبر الشعراء سناً، وكان آدم يستمع بصدق إلى نصوص مسرحياتي الشعرية كما أنه لقبني بالشاعر الذي يؤلف حكايات خيالية.

توطدت علاقة صداقتي أيضًا بالنحات الدنماركي الشهير بيرت تورفالدسن، وقد اقتربت منه جداً ورأيت عن قرب أبرز عاداته وتفاصيل حياته حيث إنه كان من أكثر الأشخاص المؤثرين في شخصيتي بصفة عامة، فقد كان فنه أيضًا يعتمد أساساً على تأمل الطبيعة ومن ثم فقد تأثر بها تماماً كما كان الحال معي كشاعر شديد التأثر بالطبيعة.

كنت ألاحظه أثناء الاستماع إلى ألحان الموسيقى بعد تناوله العشاء، وكيف كان يغلق عينيه متلذذاً بالانغماس في تلك البهجة، وكذلك كان بيرتل تورفالدسن ينتشي بسعادة عندما كنا نلعب معًا لعبة اليانصيب الشائعة في تلك الفترة كما لو كان طفلاً بريئاً لا تشغله هموم الحياة ومصائبها، وقد كان دائمًا يحاول أن يصغي للآخرين بكل اهتمام، وكذلك كان يحاول أن يتعلم مهارات اللعب من غيره، كل تلك الصفات كانت تبرز في حد ذاتها كم كان تورفالدسن شخصاً عظيماً.

على الرغم من أن تورفالدسن كان يتعامل مع الجميع بمحبة ودفء إلا أنه كان عنيفاً بعض الشيء فقد كان في كثير من الأحيان ما يسيء الظن بعدد من أولئك الذين أحبوه وأخلصوا له بشدة، وفي اعتقادي الخاص أنه لم يكن يتعمد فعل ذلك إلا أنه فعل هذا بتلقائية ومن دون قصد، حتى إنه في يوم من الأيام ظلم المرأة التي أحبته حباً جماً وأخلصت له ولم يكن يعنيها إلا سعادته فقط.

في تلك الفترة على وجه التحديد شرعت في تأليف حكايات الأطفال الخيالية الخاصة بي، والتي كان من بينها «فرخ البط القبيح»، وفي تلك الأثناء كان أفراد العائلات المرموقة يجلسون في دوائر برفقة أطفالهم وكانوا يستمعون بشغف إلى تلك الحكايات، وقد شجعني تورفالدسن كثيراً في ذلك الوقت، استمع إلى حكاياتي بدهشة كما أنه امتدحني على الدوام، وكان يجلس برفقة الأطفال في الحدائق المفتوحة التي كنا نجلس فيها سوياً ثم يبدأ بالتصفيق بحرارة وحماس مطالباً أن أقوم بتأليف حكاية أسطورية أخرى.

احتفلنا معاً بعيد مولده الأخير في الريف بين أحضان الطبيعة الخلابة، وكتبت له بهذه المناسبة أغنية مبهجة جداً، وقمنا بالغناء، حيث ذهبت إلى منزله برفقة الأصدقاء في الصباح ودُقت الأجراس وتم العزف على عدد من الآلات الموسيقية احتفالاً بتلك المناسبة السعيدة، وأحضرنا المزيد من الحلوى وزجاجات النبيذ، وحينها خرج لنا تورفالدسن بثياب النوم وأخذ يرقص ويدور فرحاً في كل أرجاء الغرفة مرتدياً قبعته، لقد عكس مرحه مدى قوة وبهجة هذا الرجل.

جلست برفقته في آخر أيام حياته، وكان حينها سعيداً بطريقة غير معتادة وأخذ يتحدث بمرح ويلقي بعض النكات والقفشات الساخرة التي كان قد قرأها في مجلة «القرصان الدنماركية»، التي كانت أحد أبرز وأشهر المجلات في ذلك الحين، وتحدث عن تلك الرحلة التي يود القيام بها الصيف المقبل إلى إيطاليا، وبعد أن افترقنا ذهب تورفالدسن إلى المسرح بينما عدت أنا إلى المنزل.

في صباح اليوم التالي كان النادل قد أخبرني أثناء وجودي في الفندق أن تورفالدسن قضى نحبه بالأمس! وحينها صرخت في هلع:

«تورفالدسن! لا! لم يمت! لقد تناولت معه العشاء بالأمس!»

«يقول الناس إنه مات بالأمس أثناء وجوده في المسرح!»

شعرت بالهلع والحزن الشديد، وفكرت أنه ربما كان مريضاً فحسب، وحينها شعرت بالتوتر الشديد وهرعت مباشرة إلى منزله، حيث كانت جثته ممددة على الفراش، واكتظت غرفته بعددٍ هائل من الأشخاص الغرباء. وقفت جامداً في مكاني أرتعد في خوف، وكان البارون ستامب جالساً إلى جواره يبكي في مرارة، وقمت بكتابة كلمات من أجل رثاء صديقي، لحّنها السيد هارتمان، وغناها بعض الطلاب الدنماركيين في جنازته.

الفصل السابع

في صيف عام 1842 قمت بكتابة قطعة أدبية صغيرة من أجل عرضها في المسرح الصيفي، نشرت تحت اسم «الطائر فوق شجرة الكمثرى»، وأدي العديد من مشاهدها فوق شجرة كمثرى. اعتبرته عملاً درامياً بسيطاً، لكيلا يتوقع أحد مسرحيةً مبهرة أو عملاً ذا طابع متقن. كانت مسرحية قصيرة، وتم عرضها عدة مرات، وحازت على تصفيق حار لدرجة أنه تم قبولها من إدارة المسرح. حتى إن السيدة هايبرغ، وهي المفضلة لدى الجمهور الدنماركي، أرادت المشاركة في أدائها. استمتع الجمهور وأثنوا على جودة الموسيقى، وعرفت أن المسرحية حازت على ترحيب النقاد والناس، وبدأ التصفيق يجوب الأفق، ومنذ تلك اللحظة تحديداً تم اعتماد اسم هانس آندرسون كأحد أبرز المسرحيين الدنماركيين.

أخبرني أحد العاملين في المسرح عن تلك الأصداء التي لاقاها العرض المسرحي الخاص بي، في الواقع لم يكن لدي أدنى فكرة في ذلك الوقت عما يجري. توجهت في اليوم التالي إلى منزل أحد أصدقائي، وكنت حينها أعاني من صداع شديد، وقد استقبلتني سيدة المنزل بودٍ، وأخذت بيدي وقالت: «أعتقد أن الأمر يستحق حقاً أن تفخر به يا سيد آندرسون! لقد كان المسرح بالأمس يصدح بالتصفيق والقبلات وعبارات الإشادة والامتنان!»

«حقاً؟ هل أحب الجمهور مسرحيتي فعلاً؟» لقد بدا موقفي مضحكاً بعض الشيء، حتى إن أحد الحضور أقسم لي أن الجمهور كان يصفق ويهتف باسمي في قاعة المسرح المزدحمة! انطلقت حينها متحدثاً بكل حماسة ونسيت أمر الصداع تماماً، وسألت كل من كان في الحفلة عن عدد الأشخاص الذين هتفوا باسمي، وحينها قال عدد منهم إن العدد قد تجاوز العشرات! جلست أتأمل كل تلك الأخبار السارة في حيرة ودهشة غير مسبوقة. لقد أخبرني أحد الحضور أن عدد أولئك الذين أشادوا بتلك المسرحية التي ألفتها كان هائلاً فعلاً، وأكد لي أن الأجواء كانت محفزة على الإشراق، لقد تمكنت خلال تلك الفترة من توفير مبلغٍ معقول من المال، وقررت أن أخصص ذلك المال من أجل القيام برحلة

جديدة إلى باريس، وقد وصلت إلى هناك في شتاء 1843 وانتقلت إلى مدينة دوسلدورف عبر بلجيكا.

كتب الشاعر الفرنسي زافير مارمبير مقالاً عني بعنوان «حياة الصديق»، نُشر وطبع في مجلة باريس دو ريفيو الشهيرة حينها، وكذلك قام بترجمة عدد من قصائدي إلى اللغة الفرنسية، وقد وصل اسمي إلى آذان عدد بارز من أهم وأشهر الكتاب والشعراء الفرنسيين، واستطعت حينها أن أكتسب مكانة وشهرة في العالم الأدبي، وتشرفت أيضاً بدعوة قدمها لي فيكتور هوجو، وقد ذهبت إلى المسرح أيضاً لمشاهدة إحدى مسرحياته التاريخية. فتح السيد والسيدة أنشيلوت منزلهما لي، وهناك قابلت مارتينيز ديلا روزا وأبرز الرجال المرموقين في تلك الفترة، وبدأنا نتناقش في عدد من الموضوعات الفكرية والفلسفية الكبيرة التي يهتم بها المجتمع في تلك الأثناء.

ذهبنا إلى ما هو أبعد من ذلك وقمنا بدراسة عدة قضايا ووضع مقترحات محتملة لها كفنانين وكتاب وسياسيين ومؤرخين، وقد كنت دائماً أعبر عن بالغ أسفي واعتذاري نظراً لتحدثي بلغة فرنسية سيئة، ولأنهم أيضاً لم يكونوا قادرين على فهم اللغات الشمالية، والتي كان معظمها قد اندثر في السنوات الأخيرة، فيما عاد بعضها بلهجات جديدة أضافت نكهة جديدة للآداب عموماً. التقيت هناك أيضاً بالكاتب الفرنسي الشهير ألكسندر دوما، الذي اعتدت على رؤيته جالساً في فراشه على الدوام، ممسكاً بقلمه وورقته وحبره الخاص، ويكتب أحداث مسرحياته، وفي أحد الأيام بينما كان جالساً يتأهب لإنهاء عمله الدرامي الأحدث، رآني بغتة فأومأ لي وقال على الفور: «اجلس لبعض الوقت، فقد زارني إلهامي وأخشى أن يختفي سريعاً إن لم أستغله».

تابع السيد ألكسندر كتابته ثم هتف فرحاً فجأة وقفز من فراشه وقال: «رائع! لقد أنهيت الفصل الثالث!». اصطحبني ذات مساء في جولة ممتعة إلى عدد من المسارح المختلفة، حيث بمقدوري رؤية الحياة خلف الكواليس، تجولنا معاً على امتداد قاعة البوليفارد المبهجة.

أعتقد أنه يتعين علي أيضًا أن أشكره لأنه عرفني على السيدة راشيل، والتي لم أشاهد أداءها على المسرح من قبل، حينها سألني إن كنت أرغب بالتعرف عليها. رافقني دوما إلى خشبة المسرح ذات مساء وقال لي إننا سنتوجه إلى هناك لمشاهدة أداء راشيل لدور فايدرا على خشبة مسرح آتري فران آيس.

بدأت المسرحية لتوها، وقد لاحظت وجود لوح قابل للطي يوجد خلف كواليس المسرح، قام بتشكيل ما هو أشبه بالغرفة، حيث كانت توجد هناك إحدى

الطاولات المزودة بالمقبلات، وكذلك احتشد حولها بعض الرجال العثمانيين، وهناك أيضًا جلست تلك الفتاة اليافعة التي قال عنها أحد المؤلفين إنها قادرة على بث الحياة من جديد في روح التماثيل المرمرية الهاربة من أعمال راسين وكورتييه. كانت نحيلة ممشوقة القوام، وقد بدا الصبا جلياً في ملامحها.

رأيتها هناك، وتحديداً عندما ذهبت إلى منزلها، في صورة حداد، كفتاة صغيرة بكت لتوها من شدة الحزن، وها هي الآن تفتح الطريق أمام أفكارها تلك حتى تغادرها بهدوء، لقد ناقشتنا بصوتها القوي الملهم، وخلال مناقشتها مع دوما نسيت وجودي تماماً، حينها وقفت جامداً في مكاني شاعراً بأن وجودي لا ضرورة له، لاحظ دوما ذلك الأمر وبادر بالتحدث عني بشكلٍ جيد، وحينها تجرأت على المشاركة في ذلك الحوار، على الرغم من أني أمتلك -حقاً- شعوراً داخليا بالكآبة لأنني كنت أقف إلى جوار أكثر شخصين قادرين على التحدث باللغة الفرنسية بكل طلاقة.

غمرتني السعادة والبهجة خلال تلك الأثناء، فعلى الرغم من أني لم أر راشيل من قبل، إلا أنني أخبرتها أنني كنت أود حقاً أن أدفع أرباح عملي الأخير من أجل دعمها فنياً، وأخبرتها أيضاً أنني كنت قد خصصت ذلك المبلغ من أجل القيام برحلة ممتعة إلى باريس، وفي الختام اعتذرت لها عن لغتي الفرنسية السيئة فابتسمت لي وقالت «عندما تقول أي شيء مهذب كالذي قلته للتو، لأي امرأة فرنسية، فستعتقد دائماً أنك تتحدث بشكل جيد».

عندما أخبرت راشيل بعد ذلك عن شهرتها الفنية في الشمال، عبرت عن نيتها للذهاب إلى بطرسبرغ وكوبنهاجن، وقالت لي:

«عندما أذهب إلى بلدتك، ستكون أنت المدافع الأول عني، فأنت الشخص الوحيد الذي أعرفه، ولكي نتعرف على بعضنا أيضاً، وعندما تأتي إلى باريس من أجلي، كما تقول، يجب علينا رؤية بعضنا بشكل متكرر، وسوف أرحب بوجودك على الدوام. بالمناسبة أنا أقوم بدعوة أصدقائي إلى منزلي كل يوم خميس. والآن اسمحوا لي بالمغادرة فهذا هو نداء الواجب كما تعرفون، قالتها راشيل وصافحتنا بود ثم وقفت على المسرح. في تلك اللحظة التي صعدت فيها راشيل إلى المسرح بدت أكثر طولاً وأشد هدوءًا، وبدأت التعبيرات الدرامية تظهر عليها.

شعرنا بتلك الأجواء المبهجة تلفنا. يمكنني الاعتراف أنه باعتباري أحد أبناء الشمال فلم أكن معتاداً على مشاهدة ذلك النمط من الأداء الفرنسي المسرحي الدرامي، ولكني ذهلت حقاً عندما عكفت على مشاهدة أداء راشيل

الفني والذي جعلني أشعر وكأنها هي من تقوم بالأداء الأصلي الذي لا غبار عليه، وكأن الجميع يقومون بتقليدها! لقد كان أداؤها طبيعياً تلقائياً لا اصطناع فيه ولا تكلف. شعرنا جميعاً بأن أداء راشيل أقرب إلى الكنز الطبيعي الحقيقي وأن أي أداء آخر ما هو إلا محاولة بائسة لأحد الأشخاص العاديين.

آمنت الجماهير العريضة أنه يتوجب على باقي الفنانين المسرحين تنفيذ نفس ذلك الأداء الفني الأقرب إلى المثالية الذي كانت تقوم به راشيل، لقد آمنوا بصدق أن ما تفعله هو النموذج الواجب تقليده واتباعه والامتثال إلى قواعده الخاصة. كان منزلها بديعاً فاتناً، ومن الممكن أن أقول أيضاً إنه كان ممتلئاً بكل صور وأشكال البهجة، فالغرفة الكبرى كانت واسعة جداً وتم طلاؤها باللون الأزرق المائل للخضرة، وكانت مزودة بعدد من القناديل والظلال المنعكسة على جدران الغرف، وكذلك كان هناك عدد ضخم من تماثيل الكتاب الفرنسيين، كما كان اللون السائد في غرفة الصالون هو اللون الأرجواني الذي ميّز كلاً من السجاد والستائر ورفوف الكتب.

كانت راشيل نفسها ترتدي ثوبًا أسود اللون وبدت في غاية التأنق وكأنها صورة لأحد تلك التماثيل الإنجليزية المزينة بالنقوش والزخارف، وكان العدد الأكبر من ضيوفها من أعظم الفنانين ورجال العلم، تعرفت على بعضهم عندما قام الخدم بإعلان أسمائهم لحظة وصولهم إلى المنزل، وحينها كان الجميع يحتسي الشأي، وكذلك كان يتم توزيع المشروبات والمقبلات، وقد كان الطابع العام يغلب عليه السمة الألمانية أكثر من الفرنسية.

أخبرني فيكتور هوجو بأن راشيل تفهم اللغة الألمانية لذا تحدثت معها قليلاً بالألمانية، وقد قدمت لي نسخة من مسرحية «سافو» للكاتب فرانز جريلبارزر ثم أكملنا محادثتنا باللغة الفرنسية تلقائياً، وقد عبرت لي عن كامل امتنانها لأدائها دور «سافو» في تلك المسرحية، ثم تحدثت لاحقاً عن مسرحية «ماري ستيوارت» التي قدمها فريدريش شيلر والتي جسدت خلالها تلك الشخصية في النسخة الفرنسية من ذلك العمل المسرحي، لقد شاهدت أداءها لذلك الدور الفني تحديداً، وآمنت أنها تألقت حقاً في ذلك الدور على خشبة المسرح، رغم أن هذا العمل يعد أقل الأعمال جماهيرية بالنسبة لها من قبل الجمهور الفرنسي.

قالت لي: «في الواقع إن أهالي بلدي ليسوا معتادين على ذلك الأداء المسرحي، كذلك فهم ليسوا من مشجعي هذا الأسلوب الفني على وجه التحديد، لكني أعتقد أن هذه الطريقة هي السبيل الوحيد لأداء ذلك الدور وتقديمه على خشبة المسرح على ذلك النحو، لأنه لا يمكن أبداً للمرء أن يهذي

من دون أن ينكسر قلبه وتحتل الكآبة نفسه، لا يمكن لأي إنسان أن يقول تلك الكلمات الثقيلة المحمومة من دون أن ينشد توجيهها من أجل توديع أصدقائه وأحبائه إلى الأبد».

كانت غرفة الصالون الخاصة بها مزينة بالكتب في معظم أرجائها وتم تنظيمها على رفوف أنيقة خلف الزجاج. كانت هناك أيضاً لوحة فنية معلقة على جدار الغرفة تحتوي على مشهد لراشيل داخل أحد المسارح الإنجليزية في لندن حيث كانت تقف على خشبة المسرح بينما تحيط بها الزهور وأكاليل الورد أثناء وجودها إلى جانب فرقتها الموسيقية، وأسفل تلك الصورة كان يوجد رف كتب صغير، تزيّنه أسماء من أعتبرهم أهم الشعراء في العالم وهم جوته، شيلر، كالدرون، وشكسبير.

سألتني أسئلة عديدة حول ألمانيا والدنمارك والفنون والآداب، وشجعتني بعد أن رسمت ابتسامة هادئة حول فمها على أن أمضي قدماً متحدثاً باللغة الفرنسية، وعندما توقفت لوهلة محاولاً فيها استجماع شتات نفسي، قالت لي: «تحدث فقط، لقد سمعت العديد من الأجانب يتحدثون لغتي الأم بشكل أفضل؛ لكن محادثتهم لم تكن مثيرة للاهتمام مثل محادثتك. أنا أفهم معنى كلماتك تماماً، وهذا هو الشيء الجوهري الذي يثير اهتمامي بك».

في آخر مرة افترقنا فيها، كتبت الكلمات التالية في ألبومي: «الفن هو الحقيقة! آمل ألا تبدو هذه الحكمة متناقضة بالنسبة لكاتب مميز مثل السيد أنديرسن».

تعرفت لاحقًا على النحات ديفيد، وقد لاحظت مدى التزامه وأخلاقياته الراقية وسلوكه المستقيم، مما ذكرني بشدة بكل من بيرتل تورفالدسن، وبيسن، ولم نلتقي مرة أخرى حتى نهاية إقامتي في باريس. ولقد وجه لي ديفيد اللوم والتوبيخ على ذلك، وقال لي إنه سيقوم بصناعة تمثال صغير لي إذا كنت أود أن أظل هناك لفترة أطول، وعندها قلت له على الفور: «لكنك لا تعرفني كشاعر، وفي الواقع لا أعرف صدقاً إن كنت أستحق أن تصنع من أجلي تمثالاً أم لا!».

نظر إلي ديفيد متأملا وجهي ثم ربت على كتفي وقال: «أعرفك جيداً يا عزيزي، لقد تمكنت من قراءة روحك ويمكنني إخبارك الآن بكل صراحة ووضوح أنك شاعر حقيقي».

ذهبت لاحقاً إلى منزل الكونتيسة، وهناك التقيت المؤلف والأديب الشهير أونوريه دي بلزاك، وكذلك لمحت امرأة عجوزاً تجلس في تلك الأمسية، وقد تجمع حولها عدد كبير من الحضور، شعرت بأن وجهها مألوف بالنسبة لي بعض الشيء، وقد جذبت ملامحها اهتمامي حقاً، فقد كانت امرأة ودودة مفعمة بالحيوية، وقد قدمتني الكونتيسة إليها وعرفت حينها بأنها مدام شارلي ريبود مؤلفة كتاب «حطام السفن»، تلك القصة الصغيرة التي قمت من قبل بالاقتباس منها في مسرحيتي الشعرية «الخلاسي». أخبرتها بكل شيء حول ذلك الأمر، وكذلك عرضت عليها مقدمة ذلك العمل المسرحي التي حازت على اهتمامها جداً، ومنذ تلك اللحظة أصبحت مدام شارلي ريبود أحد رعاة موهبتي الأدبية في فرنسا.

خرجنا معاً بعد ذلك ذات مساء وبدأنا في تبادل الأفكار سوياً، وقد صححت لي بعض مفرداتي وعباراتي باللغة الفرنسية وطلبت مني أن أكرر خلفها تلك الكلمات التي نطقتها بشكل خاطئ. لقد كانت حقاً امرأة مثقفة تمتلك رؤية قوية ثاقبة لهذا العالم، ولقد أظهرت لي حناناً أمومياً أثناء تعاملها معي.

التقيت هاين هناك، والذي تزوج بعد آخر مرة التقيته فيها، ولكني قد وجدته هذه المرة مريضاً. على الرغم من ذلك كان مليئاً بالطاقة وكذلك عاملني كما هي عادته بكل ألفة وود، ولم أكن أخجل أبداً من الكشف عن نفسي ومكنون ذاتي أمامه، وقد قدمني لاحقاً إلى زوجته، وكان قد حكى لها عن قصتي المعنونة باسم «جندي الصفيح الصامد» وقال لها هذه المرة: «هذا هو هانس كريستيان آندرسون مؤلف حكاية جندي الصفيح الخرافية».

قمت بمصافحة زوجته الشابة الجميلة والتي تجمع حولها مجموعة من أطفال الجيران الذين كانوا يلعبون معاً وقد شاركناهم كذلك اللعب في الغرفة بينما كان هاين منشغلاً بنسخ إحدى قصائده الجديدة من أجلي، لطالما لاحظت أن هاين هو ذلك الشاعر المرموق الذي لم تظهر عليه علامات الألم يوماً، بل على العكس تماماً، كان يتحلى بتلك الابتسامة التهكمية الساخرة على الدوام حتى في أحلك الظروف والمواقف. كنت أستمع من خلال كتاباته الأدبية دوماً إلى موسيقى ذلك القلب الألماني النابض بالأغنيات السعيدة تلك التي تعزف ألحان انتصاراتها تحت اسم «يجب أن نعيش».

تعرفت على عدد لا حصر له من الأشخاص المرموقين هناك، ومن بينهم على سبيل المثال الملحن وعازف البيانو الشهير فريدريش كالكبرينر، ومن ثم فقد كانت إقامتي في باريس مبهجة إلى أبعد حد، فلم أشعر بأني شخص غريب عن تلك البلدة أثناء وجودي هناك. لقد تم استقبالي بكل ترحاب وحفاوة من

قبل عدد من أبرز وأهم الشخصيات العالمية، ولقد بدا لي الأمر أقرب إلى قيام أولئك الأشخاص العظماء بالاستثمار في موهبتي الأدبية الخاصة وكأنهم كانوا يدفعون الثمن مقدماً مكافأة لي على ذلك، وبناء عليه فإن كل ما كنت أفكر فيه حينها أن أثبت حقاً أنهم لم يكونوا على خطأ.

عندما كنت في باريس خلال تلك الفترة تلقيت خطاباً من ألمانيا، حيث تمت ترجمة العديد من أعمالي وقراءتها هناك، وكانت دليلاً رائعاً ومشجعاً على الصداقة. لقد قرأت واحدة من أكثر العائلات الألمانية لطفاً وعراقةً كتاباتي باهتمام، خصوصاً السيرة الذاتية المختصرة التي كانت في بداية رواية «مجرد عازف كمان»، وأشادوا بها وامتدحوني على نحو نادر الحدوث فلم تكن هناك أي علاقة شخصية أو معرفة فعلية تربط بيني وبين أفراد تلك العائلة الألمانية التي تتألف من مجموعة من أبرز المفكرين والمثقفين، وقد عرضوا علي قبول دعوة الإقامة في منزلهم إذا رغبت في زيارتهم قبل عودتي للوطن.

في الواقع لقد كان هذا المديح هو السبب الرئيسي في بهجتي خلال تلك الفترة التي كنت أقيم خلالها في باريس، والذي جاء مناقضاً كلياً للخطاب سالف الذكر الذي استقبلته من الدنمارك في عام 1833، عندما وصلت إلى باريس لأول مرة.

وعلى هذا النحو شعرت بأن تلك العائلة الألمانية المرموقة تبنت كتاباتي الأدبية والمسرحية الشعرية، ووجدت نفسي فرداً داخل تلك العائلة التي لم تحبني فقط كشاعر بل كإنسان أيضاً.

من الجدير بالذكر أيضاً القول إني لم أكن معتاداً على المعاملة بكل هذا التقدير والاستحسان في كافة البلدان الأجنبية التي كنت أقصد زيارتها باستثناء عائلة أخرى كانت تعيش في منطقة ساكسونيا. كانت عائلة غنية مرموقة، وكانت السيدة ربة المنزل قد قرأت روايتي الرومانسية «مجرد عازف كمان» وتأثرت بها كثيراً إلى الحد الذي جعلها تقسم أنه في حال التقت طفلاً فقيراً يمتلك مواهب موسيقية حقيقية في حياتها، فلن تسمح بهلاكه كما هلك عازف الكمان المسكين. سمعها أحد الموسيقيين تقول ذلك وعندها أحضر لها بعد مرور وقت قصير طفلين من الفقراء ولكنهما يمتلكان موهبة موسيقية حقيقية مذكراً إياها بوعدها السابق، وبالفعل قامت تلك المرأة الراقية باستقبال الطفلين في منزلها وبذلت قصارى جهدها من أجل تعليمهما وتثقيفهما، وقد التحقا الآن بمعهد الكونسرفاتوار، وقام أصغرهما سناً بعزف إحدى مقطوعاته الموسيقية أمامي مباشرة، بدت البهجة والسعادة جلية على ملامحه، ربما كان من الممكن أن يحدث نفس الشيء حتى لو لم أقم بتأليف كتابي «مجرد

عازف كمان»، ولكن ما يهم الآن وبغض النظر عن أي شيء آخر أن تلك السيدة الطيبة قامت بذلك العمل النبيل تأثراً بتلك الرواية التي قمت بكتابتها يوماً وبطريقة ما أصبح كتابي بمثابة صلة وصل.

خلال عودتي إلى الوطن من باريس، مررت بمحاذاة نهر الراين. علمت أن فرديناند فريليجراث الشاعر والمترجم الألماني قد حصل على منحة مادية من ملك بروسيا ليساعده على الإقامة في إحدى مدن الراين، لقد أبهجني حقاً تصويره الشعري البديع، وتمنيت فعلاً أن أتحدث إليه يوماً.

ذهبت إلى مدن الراين بحثاً عنه، وقد اصطحبني أحدهم إلى زانكت غوار، المنطقة التي كان يوجد فيها المنزل الذي يعيش فيه، وعندما ذهبت إلى هناك وجدته جالساً حول طاولة الكتابة الخاصة به، وقد بدا الانزعاج جلياً على ملامح وجهه حينها لأني بدوت غريباً بالنسبة له، فأنا لم أذكر اسمي ولم أقم بتقديم نفسي إليه. قلت له فقط إنه ليس بمقدوري المرور إلى جوار زانكت غوار من دون أن أرسل تحياتي وتقديري للشاعر المرموق فرديناند فريليجراث، فرد عليّ بنبرة باردة: «أشكرك، هذا لطف منك». ثم سأل عن هويتيف فقلت له: «في الواقع لدينا صديق مشترك وهو السيد أدلبرت فون كاميسو»، وبمجرد أن استمع فريليجراث لتلك الكلمات قفز من مكانه فرحاً ثم قال: «هل أنت آندرسون؟!» وألقى ذراعه حول رقبتي وعيناه الصادقتان تتوهج فرحاً، «ستمكث في منزلي بضعة أيام». أخبرته أنني لا أستطيع البقاء سوي ساعتين، لأنني أسافر مع بعض أبناء وطني الذين ينتظرونني.

فقال: «لكنك تملك أيضاً المزيد من الأصدقاء في منطقة زانكت غوار، لقد مر وقت قصير منذ أن قرأت روايتك «أو-تي» أمام عدد كبير من الناس، من بينهم مجموعة من الأصدقاء، ويجب عليك رؤية زوجتي، كان لك دور رئيسي في كوننا متزوجين الآن!».

سرد لي فريليجراث لاحقاً كيف أثرت روايتي «مجرد عازف كمان» على حياته العاطفية، وكيف أحب شريكة حياتي، وكيف بدأ كلاهما في كتابة الرسائل للآخر على شاكلة ذلك العمل، وكيف انتهى بهما الأمر زوجين، كما أنه قدمني إليها وبمجرد أن ذكر لها اسمي ارتسمت ابتسامة عريضة على محياها. كانت لحظات لا تعوض من السعادة، لحظات انغمس فيها قلبي في بحرٍ من البهجة واللذة. أحب تلك الأوقات التي لا أجد لها تفسيراً أو وصفاً ملائماً سوى أن أقول إنها رحمة من الرب.

تذكرت تلك الأيام الجميلة المشرقة على الدوام، لم تفارقني تلك الوقائع والأحداث التي كان مذاقها الحلو لا يغيب عن نفسي والذي تشربته بكل لذة وابتهاج.

كنت أتذكرها بشكل دائم كما تلك الذكريات المحزنة الأخرى والتي تتعلق بكل تلك الآلام وصور الإذلال والإهانة واليأس والبؤس، كل تلك الذكريات بكل صورها وأشكالها تركت أعمق وأبلغ الأثر على نفسي، وقد يعتقد البعض أن اعترافي بكل ذلك التقدير والإعجاب الذي حصلت عليه خلال وجودي في الخارج خلال رحلاتي وأسفاري إلى بلدان غربية وشرقية أخرى هو نوع من أنواع الغرور أو التباهي بالنفس، ولكن هذا أمر غير حقيقي على الإطلاق، فأنا أعرف أيضاً ما يدور في الديار، وأعرف أن سكان وطني يتساءلون في معظم الأوقات هل معنى هذا أن آندرسون لم يتلق أية هجمات انتقادية في تلك البلدان الأجنبية؟ والإجابة هي: لا! لم يهاجمني أحد على الإطلاق، باستثناء أحد تلك الانتقادات التي تم تدبيرها من جهة ألمانية تعود جذورها إلى الدنمارك، والتي بدأت في شن حملاتها ضدي منذ اللحظة الأولى التي وصلت فيها إلى باريس.

قام السيد بواز بجولة في اسكندنافيا وكتب كتاباً عن ذلك الموضوع. قام بدراسة للأدب الدنماركي ونشرها في صحيفة دي غرينزبوتن وتم التعامل معي في تلك الدراسة بقسوة بشكل شخصي وكشاعر أيضاً. وكان هذا حال بعض الشعراء الآخرين أيضاً مثل كريستيان وينتر. استمد السيد بواز معلوماته من الشائعات البائسة التي كان يسمعها وأثار عمله الجدل في كوبنهاغن ولم يسمح أي أحد بوصف نفسه كمصدر المعلومات للسيد بواز. وحتى الشاعر هولست، وكما ذكر في الدراسة، سافر مع بواز إليّ السويد واستقبله في منزله في كوبنهاغن، ولكنه نشر مقالاً في صيحفة مشهورة بعد تلك الحادثة أنه لا علاقة له بالسيد بواز.

كان للسيد بواز مجموعة من الأصدقاء تتألف من بعض الشباب، وسمع أحاديثهم طوال الوقت يتحدثون عن الشعراء الدنماركيين وكتباتهم، ثم عاد لبلده وكتب كل ما سمعه ونشره على أنه عمله الخاص. ولوصف ما حدث بعباره بسيطة، كان ذلك غير منطقي. إن لم تعجبه بعض رواياتي، فذلك يعتمد على ذوقه الأدبي وهو شيء أقبله، ولكن لو أنه نشر هذا الكلام في ألمانيا وظن الناس أنه صحيح فعلاً، فسيتم التعامل معي في ألمانيا تماماً كما يتعاملون معي في بلدي. ولقد خصصت ألمانيا بالذكر لأن فيها الكثير من الراقين، وذلك يسبب لي جرحاً عميقاً فوق ما يتخيله. قام بواز فقط بنقل صوت أولئك الشاب الذي كان عدائياً جداً إلى بلدان أخرى. بالإضافة لكونه غير

صادق فيما قاله، فقد تعامل مع الظروف على أنها حقائق، رغم عدم حدوثها أبداً.

لم يكن ما كتبه في الدنمارك ليجرحني ولكن كتابه وصل إلى ألمانيا التي لي في جمهور وقراء. يمكنني القول إنه كان مخطئاً جداً في نظرته إلى الأدب الدنماركي والشعراء والكتاب الدنماركيين، وخصوصاً أن الدنماركيين يعرفون جيداً من أين استمد معلوماته وكيف تمت صياغة تلك الدراسة.

بعد أن عبرت عن رأيي إزاء هذا الموضوع، فأنا مستعد لمصالحة السيد بواز وإن زار الدنمارك فسأستقبله في بيتي. أعلم أنه لن يستطيع الحكم علي بتلك القسوة لو كنا نعرف بعضنا، ولن تكون الحال نفسها لو كان بيننا معرفة. جاء إلى الدنمارك بعد سنة وتغيرت الأمور جداً. انقلبت الموازين لصالحي في تلك الأثناء فقد كنت نشرت مجموعة قصص للأطفال انتشرت بشكل واسع في بلادي وغيرت الرأي العام بكتاباتي.

بدأت ردات الفعل تظهر عندما طبعت النسخة الأولى من مجموعتي القصصية في عيد الميلاد سنة 1843 وبدأ الاعتراف بمكانتي وجهودي يظهر في الدنمارك. ومنذ ذلك الوقت لم يكن هناك داعٍ للتذمر فقد حصلت في بلادي على ما أستحق وربما أكثر.

وسأنتقل الآن إلى تلك القصص التي قرأها الجميع في الدنمارك وكان الإقبال عليها أكثر من أي شيء آخر كتبته.

في عام 1853 بعد مرور بضعة أشهر إضافية، بعدما قمت بنشر روايتي المعنونة باسم «المرتجل»، قمت أيضاً بنشر مجلدي الأول من قصص الأطفال الخيالية والحكايات الأسطورية، وتلقيت المزيد من الهجوم والحملات الانتقادية جراء إصدار ذلك الكتاب الخيالي، وكانت أبرز تلك الانتقادات تتمثل في أنني لم أقدم أي جديد في هذا العمل الأدبي، وأنني مازلت متمسكاً بذلك الخيال الأحمق الذي لم يحقق لي أية فائدة ولم يضمن لي نجاحا بعد صدور روايتي «المرتجل»، وأنه ما من قراء يفضلون قراءة ذلك النوع من الحكايات الأسطورية، وكذلك قد هاجم عدد كبير من النقاد ما قمت بكتابته في ذلك الإصدار قائلين إنها صور طفولية لمخيلة كاتب أحمق! حتى إن عددا كبيراً من أصدقائي الذين أحبهم جداً وأكن لهم كل التقدير والاحترام حاولوا مواساتي عقب ذلك الفشل الذريع، ونصحوني أن أمتنع على الفور عن كتابة الحكايات الأسطورية والقصص الخيالية الشعبية، وحاول بعضهم أن يبدو أقل غلظة فنصحني بقراءة القصة الخيالية الفرنسية ومحاولة تقليدها إن وجب الأمر.

ذكرت في مجلدي الأول مجموعة حكايات أسطورية خيالية، قمت بنشرها لأول مرة، وكنت سمعت بعضها من المحيطين والأقارب والجيران عندما كنت طفلاً صغيراً. اختتمت قصص ذلك المجلد بقصة أصلية إبداعية كان لها أثر كبير، وتضمنت علاقة قوية وثيقة بأعمال هوفمان. لم أتوقف عن كتابة ذلك النوع من الحكايات الخيالية، وبالفعل فقد زاد عدد تلك القصص الأسطورية بشكل لاحق، وقد نفذت ما أرغب به حقاً وقمت باختراع عدد من القصص معتمداً على مخيلتي الخاصة من دون اقتباس من قصص وأعمال الآخرين أو تلك الحكايات الشعبية التراثية.

في العام التالي قمت بإطلاق مجلدي الثاني، ثم قمت بإطلاق المجلد الثالث بعدها بفترة وجيزة، من خلال هذا الكتاب تحديداً تمكنت من إطلاق العنان لمخيلتي بشكل كامل وقمت بتأليف أطول قصة أسطورية «حورية البحر الصغيرة»، والتي كانت من وحي خيالي. جذبت تلك القصة تحديداً انتباهاً كبيراً وحققت نجاحاً متفرداً، ثم قمت بكتابة قصة خرافية أسطورية تزامناً مع كل عيد ميلاد مجيد، حتى ارتبطت احتفالات الأعياد بقصصي الأسطورية، ولم يكن أحدهم ليعلق شجرة عيد الميلاد من دون أن يقوم بقراءة أعمالي.

حاول عدد بارز من فناني المسرح الهزليين بعدة محاولات من أجل تجسيد قصصي على خشبة المسرح، لقد كان تحولاً جذرياً من الشعر اللفظي المسموع.

عُرضت حكاياتي الخيالية التالية والتي كان على رأسها: الجندي الصامد، مربي الخنازير، وحكاية الكرة الزجاجية السحرية، على المسرح الملكي، فيما عرض بعضها على خشبة المسارح الخاصة، ونالت تلك الأعمال الترحيب بحفاوة.

لقد رأيت البهجة جلية على وجوه المشاهدين والقراء، وربما يعود سبب ذلك إلى تلقائية تلك الحكايات لأني حاولت سردها من دون أي تكلف، لقد أردت أن أحكيها إلى هؤلاء الصغار تماماً كما كان يحكيها لي أجدادي وآبائي. ما وجدته لاحقاً لم يكن يتمثل فقط في إعجاب الصغار بتلك الحكايات الأسطورية الخيالية وإنما وقوف آبائهم أيضاً على المغزى والحكمة المستهدفة من كل قصة بين هذه القصص العجائبية.

عندما استقبلت تلك الإشادات من قبل الكبار والصغار وجدت أنه لا ينبغي علي تخصيص الأطفال فقط كجمهور عام لتلك الأعمال الخرافية لذا قمت بتعديل تلك الكلمات التي كتبتها أسفل العنوان الرئيسي للمجلد الأول والتي كانت

تقول «قصص للأطفال» وقمت بكتابة «قصص جديدة» بدلاً من العبارة السابقة.

كنت أنا من قمت باختراع تلك القصص وتأليفها من وحي خيالي الخاص وتعمدت ألا أقتبس شيئاً من الكتاب الآخرين، وكذلك أردت ألا أعتمد في سرد حكاياتي الخيالية تلك على بذور أفكار قصص شعبية تراثية كما يفعل البعض على مر التاريخ.

آمنت بأصالة فكرة العمل الإبداعي وضرورة تفرده. امتدحت الجماهير العامة تلك الأعمال الأسطورية واستقبلوها بحفاوة غير مسبوقة، غمرتني الأجواء بالسعادة الأجواء وشعرت بفرحٍ لا مثيل له. لم أكن معتاداً على هذا في الواقع وتحديداً في الدنمارك.

يتعين عليّ الاعتراف بأنني لم أكن أبداً أتمنى ما هو أكثر من ذلك، ولقد سكنني القلق واحتل التوتر جسدي في تلك الفترة الحرجة خوفاً من أن أفشل في كتابة وابتكار قصص خيالية أسطورية أخرى تسير على هذا النحو المدهش وتحصل على تلك الإشادة المحفزة للمزيد من الخلق والإبداع.

غمرت البهجة قلبي، وأحسست بالشجاعة والمرح والرغبة لإنتاج المزيد ولتطوير إمكانياتي في هذا الاتجاه المحدد في عالم الكتابة والخيال، وأخذت أفكر في التفرغ للقراءة بشكل مفصل أكثر عن ذلك النوع من الأدب، وكذلك كنت مهتماً بتأملات الطبيعة والبحث عن مصادر أكثر طبيعية للإلهام يمكنني الاعتماد عليها من أجل إثراء حكاياتي وقصصي المكتوبة.

حاولت أن أتلمس سبل التطوير الأدبي لعملية الكتابة الإبداعية من خلال الطبيعة الخلابة الساحرة، وأخذت أفكر في مسألة تطور عملية التفكير والخلق وكذلك مسألة العمل على فكرة ما وإخضاعها للتجربة والاحتمالات، لقد أخذت أبحث إن جاز التعبير عن نغمة طبيعية صحية أكثر.

التقيت في تلك الفترة من حياتي عدداً من أبرز الشخصيات المهمة والأكثر تأثيراً علي في الجوانب الثقافية والفكرية، كما أنني تعرفت إلى كل هذا الكم من الشخصيات العامة الذين التقيتهم بصفتي شاعراً، إلا أنه من بين كل هؤلاء كانت هناك شخصية واحدة لها عميق الأثر على نفسي، تلك السيدة التي يمكنني أن أسلم نفسي كلياً لها حتى أذوب في عالمها الخاص، تلك المرأة التي استطعت عند اقترابي منها أن اكتشف معنى الفنون.

وبالحديث عن ذلك، يمكنني العودة إلى عام 1840، ففي يوم من الأيام خلال تواجدي في أحد فنادق كوبنهاجن لمحت اسم جيني ليند بين عدد من الغرباء القادمين من السويد، وقد كنت مدركاً في ذلك الوقت أن جيني كانت أول مطربة في ستوكهولم، لقد كنت برفقتها في نفس العام في بلدة مجاورة وقد تم استقبالي هناك بكل تقديرٍ واحترام، وفكرت حينها أنه ربما يكون من غير اللائق أن أزور تلك الفنانة الشابة، رغم أنها كانت في هذا الوقت غير مشهورة إلا داخل نطاق السويد فقط لذا قد فكرت حينها أنه ما من أحد يعرفها سوى عدد قليل جداً من أبناء مقاطعة كوبنهاجن.

استقبلتني بطريقة رسمية فاترة للغاية، وأخبرتني أنها جاءت إلى هنا في زيارة مع والدها إلى جنوب السويد وأنها ستمكث في كوبنهاجن لبضعة أيام من أجل زيارة معالم المدينة. افترقنا مجدداً بكل فتور، وكان لدي حينها ذلك الانطباع أنني قد التقيت لتوي مجرد امرأة عادية وأنه سرعان ما سوف تتلاشى صورتها من عقلي.

في خريف عام 1843 جاءت جيني ليند مرة أخرى إلى كوبنهاجن، وعلمت بوصولها من أحد أصدقائي المقربين الذي كان يدعى أغسطس بورنفيل أستاذ الباليه الدنماركي والذي كان متزوجاً من امرأة سويدية وكانت إحدى صديقات جيني ليند وقال لي أيضاً إنها تتذكرني جيداً، وأنها قرأت كتاباتي. حثني بورنفيل على الذهاب والتحدث إليها وأن استخدم كل لباقتي وقدراتي اللغوية حتى أجعلها تقوم ببعض الأدوار التمثيلية على خشبة المسرح الملكي.

ذهبت إلى هناك لالتقائها لكنها لم تعد تعاملني كشخص غريب، بل عاملتني بكل ود ومحبة، وقد مدت لي يدها حتى أقوم بمصافحتها، وتحدثت عن كتاباتي وكذلك ناقشت أعمال الكاتبة الشهيرة السيدة فريدرك بريمر والتي كانت إحدى صديقاتها المقربات، وقد اعترفت لي جيني ليند أنها ترتعد خوفاً تأهباً لظهورها على خشبة المسرح في كوبنهاجن.

«في الواقع لم أقم سابقاً بأي عرض غنائي خارج السويد، فجميع أفراد وطني يعاملوني بكل ود وطيبة، أخشى حقاً ألا ترحب بي جماهير كوبنهاجن ويشرعون في الهتاف ضدي!». في الحقيقة لا أجرؤ على القيام بذلك! قلت لها أن ذلك أمر صحيح، فأنا نفسي لم أسمع عنها من قبل ولم أر أداءها الغنائي المسرحي في السابق، وليس لدي أدنى فكرة كيف سيكون. ولكني أقنعتها أن ما يهم هو جودة صوتها حقاً وأن تقوم بتقديم ذلك الصوت الجيد بشكل جيد.

استطاع أغسطس بورنفيل أن يشعل انتباه جماهير كوبنهاجن بموسيقاه، وكذلك بروعة تصميم رقصات البالية على خشبة المسرح الاستعراضي بشكل غير مسبوق، وقد ظهرت جيني ليند لأول مرة على المسرح الدنماركي بثقة وخفة تماماً مثل شخصية أليس في مسرحية روبرت الشيطان، وازدهر صوتها وتألق في مختلف النواحي ونجح في اختراق قلوب المستمعين.

ترك ذلك العرض الفني الحساس أثراً لا يزول على أرواح الحضور، وفي أحد الحفلات الغنائية تمكنت جيني ليند من تقديم أغنياتها السويدية الساحرة، لاحقاً بدأت الهمهمات النسائية تغزو قاعة الغناء والرقص، وقد اتسمت الأجواء بطابع السحر.

لأول مرة في تاريخ جماهير مسرح كوبنهاجن، قام التلاميذ الدنماركيين بالغناء رداً على أغنيات جيني ليند بكل بهجة وقاموا باستقبالها لاحقاً في أحد منازل الضيافة العتيقة البديعة، وحينها رأيتها بنفسي تغني من جديد ثم ركضت مسرعة إلى إحدى الزوايا المظلمة لتبكي من دون أن يراها أحد تأثراً بالمشهد العاطفي.

تأملتها في تلك اللحظة وحينها نظرت إلي في رقة وقالت: «أجل! سوف أعمل بجد! سوف أصقل مواهبي! سوف أبذل قصارى جهدي إلى حد التعب والإنهاك حتى أكون جديرة بالغناء على مسرح كوبنهاجن في المرة القادمة!»

تألقت جيني ليند على خشبة المسرح، وتفوقت على جميع من حولها. وفي المنزل، في غرفتها الخاصة تحديداً، استحالت إلى تلك الطفلة البريئة الحساسة. شكل تواجدها في كوبنهاجن نجاحاً بارزاً في تاريخ الأوبرا في الدنمارك. لقد تمكنت حينها من رؤية الفن بكل صوره وعجائبه وجنونه المحبب للنفس.

فتحت جيني ليند عيني على زاوية أخرى من العالم الواسع ثم عادت الفنانة الشابة إلى ستوكهولم مرة ثانية، وقد أرسلت لي الكاتبة الشهيرة والناشطة النسوية فريدركا بريمر خطاباً قالت لي فيه ما يلي:

«هل ترى مدى توافق الفنانة الشابة جيني ليند مع أفكارنا يا عزيزي آندرسون؟ إنها تقف في شموخ على خشبة المسرح ممتلئة بالأصالة والبهجة متحدثة عن الفنون على طريقتها الخاصة، تلك الفتاة الجميلة التي سوف تندهش إذا ناقشتها في القضايا الفكرية والثقافية فستجدها تمتلك عقلاً واسعاً غير محدود، - من فضلك - تحدث معها عن فنها الفاتن الساحر، وحينها ستجد

ملامحها تتوهج بالإلهام، تحدث معها عن الرب والأديان وستجد الدموع تنهمر من عينيها، إنها فنانة عظيمة فعلاً إنسانة رائعة نقية لا تعوض».

في العام التالي، ذهبت إلى برلين وهناك تحدثت مع جياكومو مايربير مؤلف الأوبرا الألمان عن جيني ليند والذي كان قد استمع إلى أغنياتها السويدية، وحينها سألني:

«ماذا عن أدائها الفني في الدنمارك؟» وحينها أجبته على الفور بأن أداءها كان مدهشاً وأن الجمهور قد تفاعل معها، تأملني قليلا وقال إنه من الممكن أن يحدد موعد حضورها إلى برلين.

لاحقاً تمكنت جيني ليند من تكوين سمعة فنية جيدة في البلدان الأوروبية بشكل عام، فلم تعد شهرتها قاصرة على السويد لكنها استطاعت أن تحقق ذلك القدر من التنوع الغنائي والتفوق الفني، وقد اتجهت إلى عدد كبير من المسارح المختلفة حيث لاقت قبولاً جماهيرياً واضحاً كما أنها تمكنت من تقديم دور المغنية الحزينة التي هي بطلة مأساة مسرحية «نورما» وقد قامت بهذا الدور على أكمل وجه، وتمكنت من جذب أعين النقاد والجماهير إليها، بالإضافة إلى ذلك أنها قد قامت بزيارة أخرى إلى كوبنهاجن و حققت من خلالها نجاحاً منقطع النظير.

حرصت جيني ليند خلال وجودها في كوبنهاجن على المشاركة بدورها في مسرحية «نورما» وحينها كثفت كل جهودها من أجل إظهار تلك المأساة التي مرت بها البطلة من خلال أغنياتها المختلفة خلال العرض الغنائي المسرحي الاستعراضي ورغم أنها قامت بتقديم مقطوعاتها الغنائية باللغة السويدية إلا أن باقي المطربين من حولها حرصوا على تقديم أغنياتهم الأخرى باللغة الدنماركية، ومن ثم فقد امتزجت اللغة السويدية مع نظيراتها الدنماركية وانسجما معاً من خلال تلك المعزوفة الموسيقية التي أظهرت روعة الغناء وعبرت عن أن الفن لا يعرف لغة محددة.

لقد أظهر ذلك العرض الغنائي الاستعراضي مدى قوة الفنون، وتأثير ذلك الدور المحوري الذي تقوم به، بل إن ما أظهرته تلك الموسيقى الممتزجة بالشعر والأدب والأداء التمثيلي أظهرت أن الرب يتجلى في الفنون! وهنا تحديداً استسلمت أرواح الحضور لجمالية المشهد، وضحكوا وبكوا وتفاعلوا تماماً مع ما يشاهدونه.

قال ميندلسون متحدثاً عن جيني ليند: «لن يكون هناك على مدى قرنٍ كامل شخص موهوبٌ مثلها» وكانت كلماته تلك رأيي أنا أيضاً. تشعر عندما تراها

واقفة على المسرح أنها إناء نقي وسيخرج منه ينبوع يصب إلينا.

لا شيء يضاهي عظمة جين على المسرح إلا شخصيتها الفريدة في المنزل، فهي ذكية ومرحة كطفلة. إنها مشرقة وهادئة وتحب الفن بروحها وترى نفسها جزء منه. لا يمكن للإطراء أن يعطي جين النبيلة حقها. مرة واحدة فقط سمعتها تعبر عن فرحتها بمهارتها وأنها مدركة لما تملك من مواهب. كان ذلك في زيارتها الأخيرة لكوبنهاغن. ظهرت كل ليلة إما في الأوبرا أو في الحفلات. كانت مطلوبة جداً. سمعت جين بجمعية تنوي مساعدة الأطفال الفقراء الذين تركوا علائلاتهم التي تسيء معاملتهم واضطروا إما للتسول أو للسرقة، وقررت دعمهم وتأمين ظروف أفضل لهم. شارك بعض محبي الخير بمبالغ مالية لدعمهم ولكنها كانت قليلة.

قالت جيني: «أليس لدي أمسية إضافية؟ سأقدم عرض الليلة لأولئك الأطفال الفقراء ولكن سعر التذكرة سيكون مضاعفاً».

قدم العرض وكانت عائداته كبيرة وعندما علمت بذلك وأن عدداً من الأطفال سيستفيدون من ذلك لعدة سنوات، أشرق وجهها وملأت الدموع عينيها وقالت: «من الجميل أن أستطيع الغناء لهكذا سبب».

أحترمها جداً كأختٍ لي وأشعر بالسعادة لكوني أفهم روحها وأتمنى أن يمنحها الله الراحة والسلام الذي تتمناه لنفسها.

بدأت أشعر بالقدسية التي يحملها الفن من خلال جيني ليند، وأيضاً أن الفن يخدم كل ما هو مقدس. لم يكن هناك أثر قوي على كشاعر مثل أثر جيني ليند ولذلك تحدثت عنها بشغف ومطولاً هنا.

وصلت عن طريق التجربة إلى أني فهمت الفن والحياة بوضوح وتسلل ضوء الشمس إلى روحي. ما كل هذا التعويض عن أيامي البائسة السابقة! توطدت الراحة والثقة في قلبي. يمكن لتلك الراحة أن تتحد مع الحياة المتغيرة في السفر. أرى نفس في كل مكان في بلدي مرتبطاً أكثر بالناس من حولي ويعطونني بالمقابل الثقة والمحبة.

زرت ألمانيا مجدداً في صيف 1844 وقامت عائلة أولدنبيرغ اللطيفة بدعوتي لقضاء بعض الوقت في منزلهم. ذكر الكونت فو رانتزو برايتنبيرغ مراراً كم هو مرحب بي لديه. انطلقت في رحلتي وكانت تلك رحلتي الأطول والأمتع.

رأيت الأرض الخصبة في قمة بهائها في الصيف وقمت ببعض النزهات القصيرة الممتعة مع رانتزو. تقع برايتنبيرغ في وسط الغابات على نهر ستير وتعطي الرحلات بالقوارب البخارية طابعاً جميلاً للنهر الصغير. إن المناظر رائعة والحياة في القلعة نفسها جميلة.

يمكنني أن أكرس نفس للقراءة والشعر لأني كنت حراً كطير في السماء. رحبت بي تلك العائلة جداً وكأن بيننا صلة قرابة. للأسف كانت تلك المرة الأخيرة التي جئت فيها إلى هذا المكان. كان الكونت رانتزو مدركاً لموته العاجل. التقينا يوماً في الحديقة فأمسك بيدي وشدها، وعبر عن سعادته كونه تم الاعتراف بمواهبي في الدول المجاورة، وعن سعادته بصداقتنا، وقال: «أجل يا صديقي، الله وحده يعرف إن كان في هذه السنة آخر لقاء لنا. ستنتهي أيامي قريباً». نظر إلي نظرات جدية لامست قلبي، ولكني لم أستطع قول شيء. كنا قريبين من الكنيسة، فتح البوابة الصغيرة ووقفنا في حديقة صغيرة حيث كان هناك قبر بشاهدة وكرسي بجانبه.

«ستجدني هنا عندما تأتي في السنة القادمة إلى برايتنبيرغ»، قالها لي بحزن. مات في الشتاء التالي في ويزبادن. لقد فقدته كصديق وكمدافع عني وكقلبٍ نبيل رائع.

عندما ذهبت إلى ألمانيا للمرة الأولى قمت حينها بزيارة منطقة الهارتز وكذلك ذهبت إلى سويسرا، وفي تلك الأثناء كان الشاعر جوته لايزال على قيد الحياة، وكنت أتحرق شوقاً لرؤيته، وعلى الرغم من أن المسافة من منطقة الهارتز إلى منطقة الفايمر لم تكن كبيرة إلا أنه لم يكن بحوزتي في ذلك الوقت أي خطابات تعريفية، ولم تترجم أية كتاباتٍ لي إلى اللغة الألمانية.

وصف لي الكثير من الناس الذين التقيتهم في السابق شخصية الشاعر المرموق جوته، وقالوا لي إنه رجل معتد بنفسه كثيراً، وحينها على وجه التحديد تساءلت في حيرة وقلق إن كان سيرغب جوته في استقبالي، وفي الواقع، لم أكن واثقاً من هذا الأمر، وقررت ألا أذهب إلى منطقة الفايمر الألمانية حتى أكتب بعض الأعمال التي ستجعل اسمي مشهوراً في ألمانيا. وعلى الرغم من أني قد نجحت في تحقيق تلك المهمة إلا أن الشاعر جوته كان قد قضى نحبه.

تعرفت لاحقاً على زوجة ابنه السيدة فون جوته، التي ولدت في بوجويتش، في منزل مندلسون بارتولدي. وقد حدث ذلك خلال عودتي من القسطنطينية،

ورحبت بي تلك السيدة وعاملتني بمنتهى الرقة واللطف، وأخبرتني أن ابنها والتر كان صديقاً وفياً لكتاباتي منذ فترة طويلة جداً، وأنه كان شديد التعلق بأعمالي الأدبية منذ أن كان طفلاً صغيراً، وأنه قام خلال تلك الفترة باقتباس فكرة عمله الخاص من روايتي «المرتجل»، وأنه بالفعل تمكن من تمثيل عمله ذاك في منزل جوته، وقالت إن والتر قد تمنى ذات يوم أن يذهب إلى كوبنهاجن حتى يتعرف علي! وهذا يعني أنه قد أصبح لدي الآن أصدقاء في منطقة الفايمر الألمانية!

تملكتني رغبة شديدة في أن أتجول في أرجاء المدينة كلها حتى أرى تلك الأماكن التي عاش فيها جوته، وشيلر، ومارتين فيلاند، ويوهان هردر، التي سطع منها ضياؤهم ليجوب العالم. وصلت إلى تلك الأرض التي قدسها لوثر، بسبب صراع مينيسينغر في وارتبورغ، وبذكرى العديد من الأحداث النبيلة والعظيمة.

في يوم 24 من شهر يونيو والذي كان يتزامن مع عيد مولد الدوق الأكبر، وصلت كشخص غريب إلى تلك البلدة المحبوبة التي عاملني سكانها بكل لطف ومودة، وقد أظهر كل شيء تلك الأجواء الاحتفالية التي شهدتها المدينة بأكملها، وكذلك عكست مدى تلك الحفاوة التي تم بها استقبال الأمير الشاب عند اعتلائه للمسرح حيث تم تقديم أوبرا جديدة.

في الواقع لم أكن أعرف كم عدد هؤلاء الأشخاص الذين سأصادقهم عقب تلك الاحتفالية الرائعة، فلم أكن أعرف حينها أنني على وشك مصادقة عدد كبير من هؤلاء الأشخاص البارزين المدهشين حقاً ممن يوجدون حولي الآن، لقد شعرت فعلاً أن ألمانيا هي بلدي الثاني، ودعيت لاحقاً عن طريق صديق الشاعر جوته المقرب، والذي كان يدعى المستشار مولر، واستقبلت حينها بكل حفاوة وكرم.

التقيت تشامبرلين بوليو دي ماركوناي عن طريق الصدفة، والذي كنت التقيته في أولدنبورغ في السابق، فقد بات يعيش في منطقة الفايمر الآن، وقد قام بدعوتي من أجل الانتقال إلى منزله، وفي غضون دقائق معدودة كنت قد أصبحت بالفعل أحد نزلاء منزله، وحينها شعرت بحفاوة الاستقبال وحرارته، وتأكدت حقاً أنه من الجيد أن أوجد هنا.

كان هناك ذلك النوع من الأشخاص الرائعين المدهشين الذين قد يتطلب الأمر أياماً قليلة فقط من أجل أن يتعرف المرء عليهم ويحبهم، وقد استطعت خلال

وجودي في قرية بوليو أن أكتسب صديقاً مخلصاً استمرت علاقتي به طوال العمر.

قدمني صديقي إلى عائلته، وقد استقبلني سيادة المستشار مولر بكل حفاوة ومحبة، ذلك الرجل الذي كنت أظن عندما التقيته لأول مرة أنه رجل شديد البؤس بسبب بقاء السيدة فون جوته وابنها والتر في فيينا لفترة طويلة من الوقت، ورغم ذلك إلا أنهم كانوا من أكثر الناس شهرة في منطقة الفايمر وتلقوا معاملة راقية في كل الدوائر والأوساط الاجتماعية.

واستقبلني أيضاً الدوق الأكبر الحاكم وزوجته الدوقة أروع استقبال، مما ترك أثراً عميقاً على نفسي، وبعد أن تم تقديمي لهم، تمت دعوتي لتناول وجبة العشاء، وكذلك للقاء الدوق الوريث وزوجته، اللذين كانا موجودين في أحد مقرات الصيد في إيتسبيرغ، والذي كان يقع في منطقة مرتفعة بالقرب من إحدى الغابات الواسعة الشاسعة.

أدهشتني رؤية الأثاث المنزلي القديم العتيق، وكذلك أسرتني رؤية تلك المناظر الطبيعية الخلابة لمشهد جمال منطقة الهارتز والتي قد تركت أجمل الأثر على نفسي.

تجمع العديد من الفلاحين اليافعين في القلعة من أجل الاحتفال بعيد مولد الدوق المحبوب حاكم بلادهم، غنوا معاً ورقصوا على أنغام الموسيقى، وابتهجوا في سعادة أسفل أغصان الشجر وأوراقه المزدهرة.

أحب الزوجان اليافعان بعضهما البعض بكل صدق، ولقد ظهرت تلك المشاعر جلية عليهما، وفي تلك الأثناء غمرتني البهجة لوجودي برفقة الدوق كارل ألكساندر حاكم منطقة الفايمر الألمانية المرموقة، لقد كان رجلاً لطيفاً للغاية، وقد عاملني بكل نبل وتقدير، وشعرت حقاً بالسعادة لوجودي لفترة من الوقت في منطقة إيتسبيرغ السعيدة البديعة، كما اصطحبني الدوق الشاب إلى الحديقة التي شهدت إحدى أشجارها ذكريات لا تنمحي لشعراء ألمانيا المرموقين أمثال جوته، وشيلر، كريستوف مارتين فيلاند.

رافقتني السيدة فون جروس (إيميليا وينتر) وكذلك المستشار فون مولر الذي كان قادراً على استحضار كافة تلك المواقف والذكريات التي تجمع بينه وبين الشاعر المرموق جوته، والذي كان قادراً على شرح أبرز مسرحيات جوته الشعرية المعنونة باسم «فاوست»، وكذلك كنا برفقة السيد يوهان بيتر

إيكرمان الشاعر والكاتب والذي يعد أحد أعضاء المجموعة في إيتسبيرغ، وقد قضينا أمسياتنا كما لو كانت حلماً جميلاً لا يمله المرء، فقد بادر أحدنا بقراءة أحد الأعمال الأدبية البارزة بصوت مرتفع في حضرة الجميع، وقد تجرأت في ذلك الحين على قراءة إحدى حكاياتي الخيالية الأسطورية المعنونة باسم «حكاية جندي الصامد» والتي قمت بقراءتها لأول مرة بلغة أجنبية أخرى والتي لم تكن لغتي الأم.

اصطحبني المستشار فون مولر إلى المقابر وهناك كان كارل أوجست يرقد في سلام مع زوجته الرقيقة الوقورة، ووليس بين شيلر وجوته كما كنت أعتقد حين كتبت «لقد صنع الأمير لنفسه مجداً مشرقاً، بينما كان يقف بين الشمس والشلال المتدفق». هناك حيث تدلت أكاليل الغار الذابلة فوق التوابيت والنعوش البنية، بعيداً حيث كتبت تلك الأسماء الخالدة من أمثال «جوته»، و «شيلر»، أولئك الذين كانوا يسيرون جنباً إلى جنب أثناء حيواتهم، ها هم الآن صاروا متلاصقين بعد أن وافتهم المنية، ووجدتني أقف في ذلك المكان الذي يسوده الصمت وأردد تلك الصلوات التي لا يسمعها غير الرب.

مكثت في منطقة الفايمر ما يزيد عن الثمانية أيام، وشعرت حينها وكأنني قد عشت طويلا في تلك المدينة كما لو أنني قضيت سنوات عمري في بلدتي وبأنني الآن مضطر لأن أغادرها.

عندما صعدت إلى السيارة التي قادتني إلى خارج البلدة، أخذت أتأمل الجسر والطاحونة، وتأملت أرجاء المدينة الواسعة والقلعة الممتدة وحينها شعرت بنوع من الكآبة والحزن يحتل روحي، ولقد بدا لي الأمر وكأني لن أشعر بأية بهجة أخرى في حياتي المستقبلية بعد أن غادرت الفايمر.

حفرت تلك الذكرى بصماتها في أعماق نفسي، وأخذت أتذكر ذلك الحمام الزاجل ووضعه المشابه لي، وكذلك ذلك الضوء المتدفق الذي غمر روحي في فايمر ومدى تأثيرها الإيجابي القوي على حياتي كشاعر.

بعدما غادرت فايمر توجهت إلى لايبزيغ، هناك حيث كان السيد روبرت واشمان ينتظرني لقضاء أمسية أدبية شاعرية، ولقد فاجأني الملحن العظيم بأنه قد قام بابتكار لحن موسيقي لأربع من أغنياتي الشعرية، وقامت زوجة الدكتور فريج بغنائها، وقد أبهجني ذلك الحفل الموسيقي الفني للغاية وأنعش روحي، وكذلك كانت السيدة كلارا واشمان برفقتنا وتبادلنا الأفكار مع بعضنا البعض وهذا بدوره جعل الوقت يمر بسرعة عجيبة.

التقيت لاحقاً بالسيد بروكهاوس في أحد اللقاءات الرسمية الأخرى التي كنت معتاداً عليها بشكل شخصي، وقد تعرفت كذلك على المزيد من الأصدقاء داخل تلك الدوائر والأوساط الثقافية الألمانية.

قابلت عدداً من الأصدقاء الآخرين القدامى في درسدن والذين كانت تملؤهم روح الشباب والحماسة، والتقيت الرسام النرويجي القدير دال والذي كان قادراً على خلق المزيد من المعجزات الفنية، ورسم تفاصيل ثرية مثيرة للعين وجاذبة للروح والوجدان، والتقيت الرسام الشهير كارل كريستيان فوغل فون فوغلشتاين والذي قام برسم صورتي ضمن مجموعة الصور الملكية الشخصية وقد كان هذا تكريماً كبيراً لي، وتعرفت على مدير المسرح السيد هير فون ليتشي والذي حرص أن يزودني كل مساء بمقعد في القسم الخاص بمديري المسرح وكبار الزوار كما أني تعرفت على البارونة فون ديكين والتي عاملتني بإخلاص وصدق تمامًا كما لو كنت ابنًا لها واستقبلتني بكل حفاوة وود وقدمتني لأصدقائها المرموقين.

كم هو رائع ذلك العالم وكم البشر رائعون

إن تلك متعة للعيش وبدأت تظهر بوضوح لي

جاء الشقيق الأصغير لبيليو يوماً من ثاراند وكان ضابطاً في الجيش، حيث كان يقضي أشهر الصيف في ثاراند. اصطحبته لأماكن عديدة وقضيت أوقاتاً سعيدة مع وجود مشهد التلال الرائع واستقبلتني العديد من العائلات هناك.

قمت بزيارة الرسام الشهير موريتز ريتش للمرة الأولى برفقة البارونة ديكين والذي كان قد نشر في السابق الخطوط العريضة للشاعر الألماني جوته وكذلك للشاعر الإنجليزي ويليام شكسبير، وقد عاش نوعاً من الحياة الأركيدية بين حقول العنب على الطريق المؤدي إلى ميسين.

كان يقدم هدية لزوجته كل عام في عيد ميلادها، لوحة جديدة، ودائماً ما تكون واحدة من أفضل رسوماته. كبرت مجموعة اللوحات على مدار سنوات حتى أصبحت مجموعةً قيمةً، وكانت زوجته تنوي نشرها إن مات قبلها. في الواقع تميز الرسام موريتز ريتش بجودة أعماله الفنية ومدى روعتها ودقتها، وكان على رأس أعماله الفنية المتميزة تلك اللوحة المعنونة باسم «الهروب إلى مصر أو رحلة العائلة المقدسة» التي كانت تمثل رحلة السيدة مريم برفقة يسوع ويوسف النجار من بيت لحم إلى مصر، كانت اللوحة تصف ليلاً، كل من فيه نيام، بمن فيهم مريم ويوسف النجار، باستثناء الطفل يسوع الذي كان يراقب ويبعث الضياء من حوله من خلال وجهه المستدير.

بعد أن رويت له إحدى قصصي، تلقيت منه لوحة جميلة تصور فتاة جميلة تختبئ خلف قناع امرأة عجوز، وكان ينبغي عليها أن تبرز من وراء ذلك القناع القديم للحكاية الخيالية. كانت صور ريتش عميقة بأفكارها وممتلئة بالجمال والروح العبقرية.

استمتعت حقاً بالحياة الريفية برفقة فريدريش أنطون سير وزوجته الرائعة الطيبة وكذلك سعدت للغاية بالإقامة في منزلهم الأنيق المدهش في مارين، في الواقع لا أعتقد أن هناك شخصاً ما في العالم قد حظي بمثل هذا النوع من حفاوة الاستقبال والترحيب الذي حظيت بها من قبل تلك العائلة.

مكثت هناك برفقتهم لمدة تتجاوز ثمانية أيام، وتعرفت خلال تلك الفترة على يوهان جورج كول الجغرافي الشهير وكاتب أدب الرحلات، وكذلك تعرفت على المؤلفة المرموقة كونتيس فون هانٍ هانٍ، تلك المرأة شديدة الثقة والألق التي تعرفت عليها في ذلك الحين وكنت شديد الإعجاب بشخصيتها الملهمة المستقلة، وعندما تم استقبالي بذلك الشكل اللطيف حينها شعرت بأني حقا في وطني ولم أعد أشعر أبدًا بالاغتراب والوحدة.

لقد كان أمراً حقيقياً أن انسجامي مع هؤلاء الناس بشكل طبيعي كان له بالغ الأثر على كتاباتي وأسلوبي الأدبي لاحقاً.

تعلمت من خلال إقامة تلك العلاقات الاجتماعية والصداقات أن شكل المرء ومظهره الخارجي ليس إلا شيئاً ضئيلاً جداً ضمن تقييمه الفعلي لأن ما يهم حقاً هو مقدار تلك الحكمة التي يكتسبها المرء خلال رحلته الطويلة في الحياة، وأن يكون المرء قادراً على استيعاب تلك الحكمة المختبئة بين السطور.

عدت إلى المنزل سالكاً طريق برلين الذي لم أمر به منذ سنوات عديدة، وفي تلك الأثناء تحديداً كان صديقي الأعز كاميسو قد قضى نحبه.

سافرت حينها على الفور إلى النصف الثاني من الكرة الأرضية، وقد رأيت أطفال صديقي الراحل كاميسو، أولئك الذين باتوا الآن يتامى بلا أم ولا أب، لكنهم لم يعودوا أطفالاً! فأولئك الصغار الذين كانوا يلعبون أمامنا في الحديقة ذات يوم باتوا شباباً يحملون خوذة ودرعاً لأنهم يعملون في خدمة الجيش البروسياني الآن.

تأملتهم حينها بعد أن غابت السعادة عن أعينهم وأدركت كم كبروا وكم كبرت أنا الآخر! وأدركت حينها فقط كيف تغير كل شيء من حولنا من دون أن نشعر، وكم خسر المرء خلال تلك الأثناء العديد من الأشياء!

استقبلوني بحفاوة هناك، وذهبت مباشرة إلى منزل الوزير كارل فريدريش فون سافيني، حيث تعرفت على السيدة بيتينيا الموهوبة المتفردة وابنتها الرائعة.

تمكنت تلك المرأة من التحدث بكل فصاحة وبلاغة إلى الحد الذي جعلني أقف مكتوف الأيدي أمامها، لقد أحسست أني فقدت لساني وأصبحت أخرسا عندما استمعت إليها تناقش المزيد من القضايا والأمور بكل فطنة وذكاء وخفة ظل.

كانت كلماتها تعكس مدى الثراء والثقافة التي تملكها، وفي الواقع رغم أن العالم أجمع كان مدركا ومقدرًا لموهبتها في الكتابة إلا أنني اكتشفت بمحض الصدفة أنها تمتلك موهبة أخرى في الرسم والتي لم يكن أحد يعلم عنها شيئا. فقد لاحظت أنها قامت برسم حادث وقع قبل فترة قصيرة. شاب في مقتبل عمره قتل بواسطة النبيذ. رسم وهو ينزل شبه عارٍ إلى القبو، مستديراً نحو عبوات النبيذ التي بدت كالوحوش، رقص الباشانال والباشانتس تجاهه، وأمسكوا بضحيتهم ودمروه! علمت بعد ذلك أن ثوروالدسن والتي عرضت عليها ذات مرة جميع رسوماتها، كانت مندهشة جدًا من الأفكار التي احتوتها.

ذهبنا إلى منزل السيد وايز والذي كان منزلاً مدهشاً للغاية حيث احتل السكون أرجاء المنزل وأطلت نوافذه على المناظر الطبيعية الشاعرية، شعرت حينها أنني أرتمي بين أحضان الطبيعة الكونية، وهناك تعرفت على عدد كبير من الأصدقاء فقد التقيت مثلا كرينيليوس من روما، والتقيت فريدريك فيلهيلم شيلن الشاعر والفيلسوف الألماني الشهير، وقابلت هنريك ستيفنز الشاعر والفيلسوف النرويجي، وتعرفت على لودفيج تيل الشاعر والمترجم الألماني، والذي كنت التقيته في بادئ الأمر وكانت علامات التحفظ تبدو جلية عليه إلا أن الحكمة بدت واضحة عليه الآن وقد صافحني بود ومحبة، وشعرت أنه يتوجب علي لاحقاً زيارته في بوتسدام، هناك حيث كان يعيش بأريحية وتلقائية شديدة، ورافقت شقيقه النحات في موعد تناول العشاء.

لقد عرفت من لودفيج تيل مدى إعجاب الملك وزوجته الملكة بأسلوبي وكتاباتي، وكان قد حكى لي أن جلالة الملك وزوجته أحبا روايتي المعنونة باسم «مجرد عازف كمان» حباً جماً، وأنهما حاولا أن يعرفا الكثير من

المعلومات عني، بالإضافة إلى رغبتهما في مقابلتي بشكلٍ شخصي، إلا أنهما قد انشغلا خلال تلك الأثناء في مغادرة البلاد لأمرٍ ضروري.

عدت إلى كوبنهاجن في أجواء رعدية وكنت حينها أقضي بعض الوقت الجيد برفقة أصدقائي المقربين، بعد مرور عدة أيام استقبلت خطابًا من الكونت رانتزاو بريتنبرغ والذي قال لي فيه إن ملك وملكة الدنمارك يوجهان لي دعوة رسمية من أجل الإقامة معهم في جزيرتهما الموجودة في بحر الشمال والتي لا تبعد كثيرًا عن ساحل سليسويك.

في تلك الأثناء كنت قد استمتعت بوجودي في جزيرة هاليجن الألمانية، وغيرها من الجزر الساحرة التي كان قد أبدع في وصفها الكاتب الألماني الشهير يوهان كريستوف بيرناتزكي في رواياته.

غمرتني السعادة حقا لوجودي هناك برفقة الملك والملكة. من الجدير بالذكر أنه قد مر خمسة وعشرون عاماً على تلك المرة الأولى التي سافرت فيها بمفردي إلى كوبنهاجن عندما كنت فتى فقيراً، وها أنا الآن أحتفل بمرور تلك الأعوام الطويلة في منزل جلالة ملك الدنمارك وزوجته الوقورة، تلك العائلة الراقية التي أحببتها حقاً من كل أعماق روحي. لقد تركت تلك التفاصيل الممتزجة بالطبيعة والإنسانية آثارها العميقة على نفسي.

شعرت بتلك السعادة النادرة التي تغمر المرء بدورها بعد أن يتذكر مرور خمسة وعشرين عاماً على كل هذا الجهد والكفاح الذي بذله ثم يجد الحظ الطيب يربت على أكتافه بعد أن تمكن من بلوغ مقصده، فالأمر حقاً يتجاوز مرحلة الأحلام الجميلة.

سافرت من مدينة فين إلى فلنسبورغ الموجودة على امتداد الخليج المحاط بكم هائل من الغابات والتلال والذي يطل على المستنقعات الواسعة المنعزلة، وفي ظل تلك الأجواء تمكنت من السفر متشبعاً بضوء القمر، ورغم أن تلك الرحلة كانت مملة مضجرة بعض الشيء إلا أنه سرعان ما اختفت السحب وتلاشت، وقد تجاوزنا المستنقعات التي كانت تحرسها أسراب الطيور.

وصلنا إلى الأراضي البرية، وقد أثر هطول تلك الأمطار المستمرة على المروج، حولت بدورها حقول الذرة إلى بحيرات هائلة، وكذلك تلك الجسور التي كانت أشبه بدبس السكر والخيول التي كانت تلاصقها، وتلك العربات المزودة بالمصابيح والأضواء التي كان يجرها الفلاحون.

مرت الساعات الطويلة هناك حيث كان البحر وجزره البديعة قبالتي، وقد كان الساحل بأكمله يشكل جسراً ممتداً تغطيه أكوام هائلة من نسيج القش.

وصلنا في وقتٍ لاحق، وبدت الرياح محببة للنفس بعض الشيء، ووصلنا إلى المكان الذي قصدناه بعد مرور ساعة أو أقل، وحينها بدت لي تلك الأرض التي وطأتها أقدامنا وكأنها أرض خيالية ساحرة، مما جعلني أنسى على الفور عناء تلك الرحلة ومشقتها.

في مدينة ويك الواسعة، لاحظنا أنه تم بناء المنازل والحمامات العمومية تمامًا على الطراز الهولندي كما لو كانت أي مدينة محلية. كانت المساكن مكونة من طابق واحد ومزودة بأسطح منحدرة، وتلك الأزقة الضيقة التي استحالت شوارع واسعة.

قادني العابرون وكذلك مكنني اتجاه فناء المحكمة من التعرف على الشارع الرئيسي للبلدة، على الرغم من أنه كان هناك المزيد من الغرباء إلا أن الكثير من الوجوه المألوفة كانت تطل من كل منزل وقد رفرف العلم الدنماركي، وصدحت الألحان الموسيقية.

حرص الملك وزوجته على إرسال دعوة يومية لي لتناول وجبة العشاء برفقتهم، في العديد من الأمسيات قرأت للملك والملكة مجموعة قصصي القصيرة المعنونة بعنوان «المسيرة» بصوت مرتفع، وقد عاملني كلاهما بكل رقة وشاعرية. كان من الجيد أن تكشف الطبيعة البشرية النبيلة عن نفسها في حين أن المظاهر المادية هي ما تتراءى للعامة؛ مثل تاج الملك وعباءته الأرجوانية. قليل من الناس بإمكانهم التعامل مع الآخرين بودية في حياتهم الخاصة أكثر من أصحاب الجلالة الدنمارك الحاليين. حفظهم الرب وأسعدهم كما أسعدوني!

أبحرت في سفينتهم الخاصة إلى جزيرة هاليجن، هناك حيث كانت أمواج المحيط المتلاطمة تنقل رسالاتها الكونية في صخب وثورة على بعد تلك الأميال التي تفصلنا عن الشاطئ.

لقد حول ثوران البحر اليابسة إلى جزر، وقسمت العديد من أجزائها مرة أخرى، ودفن العديد من الرجال والقرى سنة بعد سنة تتلاشى أجزاء جديدة، وفي غضون نصف قرن لن يبقى شيء سوى البحر. أصبحت الهاليج الآن عبارة عن جزر منخفضة فقط، مغطاة بالعشب الداكن، وترعى عليها القليل من الماشية. وعندما يهيج البحر ويرتفع، تتوجه الماشية إلى ساحات المنازل، وتنزلق الأمواج فوق أراضيها التي تبعد أميالاً عن الشاطئ.

قمنا بزيارة جزيرة أولاند، التي بدت كمدينة صغيرة تقترب فيها المنازل من بعضها البعض بشكلٍ متلاصق، ظهر مشهد المباني وكأنها تعانق بعضها البعض، اتسمت تلك المساكن بوفرة النوافذ الصغيرة محددة الشكل، كما كانت توجد غرفة صغيرة منعزلة في مقصورة السفينة، هناك حيث جلست الزوجة برفقة فتياتها.

وفي إحدى الزوايا، كانت توجد مجموعة من الكتب، وهناك عثرت على أعمال مكتوبة باللغة الدنماركية والألمانية وغيرها، وقد شرع الناس في القراءة والعمل بينما كان البحر يحاصر المنازل من كافة الجهات.

في عام 1825 عصف تيار المد الجارف بالناس والمنازل، وقد جلس الأهالي نصف عراة طيلة فترات الليل والنهار أسفل أسطح منازلهم، وكان الجميع يلجأ إلى البر الرئيسي كمحاولة يائسة للنجاة من ذلك الخطر الكبير، ولحق الدمار الشامل بساحة الكنيسة وانجرفت آلاف التوابيت.

استقبلنا رجل وحيد كان لا يزال يقيم في الجزيرة، عرفنا لاحقاً أن بقية أهالي الجزيرة قد رحلوا من هذا المكان بعدما وقع لهم ذلك الحادث البشع، وعلى الرغم من ذلك فقد جاء هذا الرجل مصطحباً عدداً قليلاً من النساء اللواتي كن يحملن الزهور، وقد عبرن عن امتنانهن لنا وسعادتهن بوجودنا هناك على جزيرتهن.

تأثرت الملكة بشدة عندما أرغمت على قطف شجيرتهم الوحيدة، شجيرة الورد، لوضعها فوق مكان مستنقع كان عليها عبوره. كانت الفتيات جميلات، ويرتدين الأزياء الشرقية. كان منبع أصل هؤلاء الناس من الإغريق. يقومون بإخفاء نصف وجوههم، وتحت شرائط الكتان التي توضع على الرأس تترأسها قبعة يونانية، تماماً فوق الشعر المظفر.

عند عودتنا تناولنا العشاء على متن السفينة الملكية، وأبحرنا لاحقاً بينما كان شروق الشمس يحتل المشهد، وفي تلك اللحظة على وجه التحديد تحول رصيف السفينة إلى قاعة للرقص، هناك حيث تمايل الشباب مع العجائز، وقفز الخدم من مكان إلى آخر في ابتهاج وفرح برفقة كؤوس النبيذ والمقبلات، وقد وقف البحارة إلى جوار صناديق التجديف الخاصة بهم يدندنون في حماس كاد أن يخترق أعماق البحار.

ارتفع القمر الضخم المستدير حولنا كاشفاً عن سلسلة جبال الألب المغطاة بالثلوج والتي كانت تعد أبرز معالم المكان.

قمت بزيارة تلك التلال الرملية الكئيبة الموحشة، وفي تلك الأثناء كان الملك قد خرج من أجل صيد الأرانب، وحكى لي أنه منذ سنوات طويلة ماضية قد تحطمت إحدى السفن التي كان على متنها أرنبان، ومن هذا الزوج ولد الآلاف وتم وضعهم هناك.

أخذت أتأمل الرمال البيضاء وذلك الأفق الأزرق المدهش الذي جعلني أشعر بأن حجمه مضاعف لحقيقته. لقد انتشر كل شيء حولنا كما لو كانت كافة التفاصيل متصلة ببعضها البعض. أشرقت الشمس كما لو كانت تغرق الكون بنورها لأول مرة، وقد توهجت أشعتها بين التلال الرملية البيضاء، وبدا الأمر وكأننا قمنا للتو برحلتنا الأثيرة عبر صحراء أفريقيا البديعة.

بمجرد انتهاء رحلتنا البحرية تلك توجهنا على الفور إلى إحدى الطاولات الملكية، هناك حيث مكثنا نستمتع بتلك الحفلة الموسيقية الرائعة ثم ذهبنا إلى المنتزه بعد أن غمرنا ضوء القمر، كنا معاً في ذلك المكان الذي بدا أقرب إلى قاعة بوليفارد صغيرة والذي اقتربت أجواؤه من أجواء إحدى الحكايات الخيالية، كان تبايناً فريداً.

أثناء جلوسي حول تلك الطاولة الملكية في الذكرى السنوية الخامسة والعشرين المذكورة آنفاً، وتحديداً في الخامس من سبتمبر. رأيت ذكرياتي تمر أمام عيني مباشرة وكأن تلك الأحداث التي تنتمي إلى الماضي، والتي قد حدثت في السابق، تجسدت أمامي مرة أخرى.

بذلت قصارى جهدي حتى أمنع نفسي من البكاء بحرقة أمام الحضور.

هناك أوقات محددة يشعر خلالها المرء بضرورة الامتنان إلى الخالق وشكره على كل تلك النعم التي منحه إياها، وقد كان هذا الشعور يتملكني في تلك اللحظة على وجه التحديد، لقد شعرت أني مررت بأزمات لا تعد ولا تحصى، وكذلك تذكرت كل صور الفقر والعوز التي كبلتني كلياً وجعلتني أشعر بالسجن داخل ذاتي، وكيف تحولت حياتي بعد كل هذه التطورات والتحديات المريرة إلى تلك المرحلة التي أصبحت فيها كاتب الحكايات الخيالية والأسطورية الذي بات قادراً على الجلوس إلى جوار الملك والملكة من أجل تناول وجبات الطعام برفقتهما.

عرف رانتزاو كم كان هذا اليوم ممتعاً بالنسبة لي. وبعد العشاء، تمنى لي الملك والملكة السعادة؛ وهذه كلمة بائسة تحتوي على الكثير من التعاطف. لقد تمنى لي الملك السعادة لما تحملته وحققته بالفعل.

مازلت أذكر تلك المحادثة التي دارت بيني وبين الملك في تلك الأثناء عندما سألني جلالته إن كان هناك معاش سنوي مخصص لي يدعمني ويساعدني على المضي قدماً في مجال الكتابة الإبداعية وكذلك في حياتي الخاصة، وحينها أخبرته بمقدار المبلغ المالي الذي أحصل عليه سنوياً من الدولة، ولكنه قال لي في دهشة إن هذا المبلغ غير كافٍ!

لكني كنت أراه مبلغاً كافياً، كما أن مبيعات كتبي تحقق لي قدراً من الرضا. بدأ الملك يسألني بلطفٍ عن المزيد والمزيد بخصوص ظروفي وأحوالي الخاصة، وقد أنهى حديثه قائلاً:

«على أية حالٍ أرجوك إذا كنت بحاجة لأي دعم مادي من أجل مساندة جهودك الأدبية تحدث إلي على الفور!».

في إحدى الأمسيات التالية، وبعد أن استمتعنا بالحفل الموسيقي تكررت تلك المحادثة مرة أخرى، وحينها همس بعض الحضور إلي وقالوا:

«ها هي الفرصة قد جاءت إليك على طبق من ذهب يا سيد آندرسون! ها هو الملك بنفسه يعرض عليك تقديم الدعم المالي لجهودك الأدبية!».

لكني في واقع الأمر لم أستطع القيام بذلك، ولم أرغب أن أطلب من الملك شيئًا كهذا، وقلت «إذا علم الملك أني أحتاج إلى المزيد، فسيعطيني إياه من دون طلبي»، ولم أكن مخطئاً. وما حدث أنه في العام التالي قام الملك كريستيان الثامن بزيادة ذلك المبلغ السنوي الذي كنت أحصل عليه من قبل القائمين على الدولة من أجل دعم جهودي في مجال الأدب والثقافة، وحينها شعرت أنه بمقدوري أن أعيش بكرامة ولا أحتاج إلى الدعم.

منحني الملك تلك المساعدة المالية التي أضاءت عالمي، ولعبت دوراً مهمّاً في تصفية عقلي، وفي تلك اللحظة تمكنت من التفرغ التام لإنجاز كتبي في مجال الشعر والمسرح والرواية، ويمكنني القول إن أبرز الدوافع التي جعلت الملك كريستيان يقوم بهذا الدور هو ولعه وعشقه بالعلوم والفنون بكل أشكالها وأنواعها.

كان يوم الخامس من سبتمبر هو يوم سعادتي وفرحي حيث تم الاحتفال بي برفقة عدد من الزائرين الألمان، وقد ذهبنا معًا لاحتساء النبيذ في قاعة الرقص، وفي تلك الأثناء كان الجميع يتحدثون عن الملك، ومنهم من قال إن هذا الرجل بلا فائدة، وإنه لا يبذل جهوده من أجل خدمة البلاد بشكل ملموس، وهناك من قال إن الرجل قام بالفعل بتكريس جهوده من أجل رفعة شأن

البلاد والاهتمام بجوانبها الثقافية والحضارية، وبعد الانتهاء من تلك المناقشات الشعبية مرت الملكة إلى جوارنا وأهدتني خاتماً قيماً مميزاً ليكون بمثابة ذكرى لتلك الفترة التي أقمت فيها معهما في منزلهما المطل على الجزيرة الألمانية.

غمرني الامتنان من رأسي إلى أخمص قدمي، ورغم اختلاف الآراء الشعبية والسياسية حول الملك كريستيان الثامن وزوجته في الدنمارك. إلا أنني أعترف بأنه كان لتلك العائلة فضل كبير علي تحديداً فيما يخص كل أشكال الدعم المادي والمعنوي التي قاموا بتقديمها لي بشتى الطرق.

لاحقاً التقيت دوقة أوغوستنبورغ، وقد كانت في هذا الوقت برفقة اثنتين من فتياتها، وقد وجهن لي المزيد من الدعوات من أجل الانضمام إليهن خلال رحلة عودتي. انضممت إليهن فيما بعد، وقد مكثنا معاً في أحد المنازل المطلة على أجمل جزر بحر البلطيق، كانت تلك المنطقة أقرب إلى إحدى الحدائق الصغيرة المزدهرة، والتي كانت تشتمل على حقول الذرة والهندباء وكذلك ثمار البندق والنباتات البرية، وتلك الغابات والتلال، وكذلك تلك المشاهد المطلة على المحيط.

كانت قلعة أوغوستنبورغ مذهلة حقاً، وكانت حديقتها ممتلئة بالأزهار الجميلة الملونة، التي انتشرت على امتداد شواطئ خليج السربنتين، ولقد تم استقبالي بكل حفاوة حينها، ووجدت أن الحياة الأسرية أكثر ودية في الدائرة الدوقية، وقضيت هناك حوالى أربعة عشر يوماً، وحضرت عيد ميلاد الدوقة التي استمرت احتفالاتها لمدة ثلاثة أيام، ومن بين هذه الاحتفالات كان السباق الذي بسببه امتلأت المدينة والقلعة بالناس.

تلك الحياة المنزلية السعيدة كانت أشبه بمساء صيفي جميل، فقد ملأت تلك الأجواء الطيبة نفسي بالصفاء والمحبة والسلام، وشعرت بقلبي يهمس سرّاً: «من الرائع أن أكون هنا».

الفصل الثامن

في ربيع عام 1844 كنت قد أنهيت كتابة مسرحيتي الدرامية المعنونة باسم «زهرة الحظ»، وقد كانت فكرة ذلك العمل الأدبي تتمثل في أن السعادة لا تتحقق إذا نجح الفنان في اكتساب اسم فني خالد، ولا تتمثل في مدى روعة ذلك التاج الذي يرتديه الملك، لكنها تتمثل في أشياء أكثر بساطة من ذلك، وهي أن يرضى الإنسان بالقليل، ويتعلم أن يتكيف مع ذلك الأمر، وكذلك لا يتحقق هذا الشعور على أرض الواقع إلا إذا منح الإنسان الحب لغيره وبات محبوباً من جانبهم أيضاً.

كان النمط والأسلوب الدنماركي الخالص يسيطر على تلك القصة الأدبية، التي كانت تدور في إطار من المثالية حول ذلك النوع من الحياة المشرقة، التي تبدو أكثر قرباً من النعيم، ولكن مع هذا تظهر فيها بعض التحديات المؤلمة التي تجعل الصورة تزداد قتامة، وقد كانت القصة تدور بين الشاعر الدنماركي غير المحظوظ والأمير بوريس، الذي حكت عنه أغنياتنا الشعبية وقصص بلادنا البطولية.

أردت حقاً أن أظهر للأجيال القادمة تشريفاً وتكريماً لهذه الفترة المهمة من تاريخنا، حيث كانت الأزمنة والعصور حالكة الظلام مربكة للغاية، وكيف كان يرجع الفضل لعددٍ من الشعراء البارزين إلى إضاءة تلك الفترات بفنونهم وعلمهم.

لم يحظ عملي الأدبي بالنجاح في تلك الأثناء، فالبروفيسير هيبرغ، الذي تم تعيينه رقيباً على الأعمال الأدبية والفنية، كان قد أعلن بنفسه أنه ضد استقبال أعمالي الأدبية، وخلال السنوات التالية اللاحقة تمت معاملتي بكل كراهية وعداء من جانبه، وقد اعتبرت ذلك بمثابة سوء نية شخصية، وقد سبب لي هذا ألماً لا يحتمل، ويتفوق على ذاك الشعور الذي يغمر المرء إذا تم رفض كل أعماله.

شعرت بالظلم لوجودي في ذلك المكان الذي وقفت فيه مكبل الأيدي، ووجدت نفسي مضطراً للبحث عن تبريرات لتصرف ذلك الشاعر، الذي كنت أحترمه وأقدره، لقد فعلت في السابق كل ما في وسعي من أجل صداقة ذلك الرجل، وقد قمت بمحاولة أخرى حيث إنني قررت أن أكتب خطاباً للسيد هيبرغ عبرت له فيه عن مشاعري، وطلبت منه أن يخبرني بالأسباب التي جعلته يرفض أعمالي وكذلك طلبت منه تفسيراً لسوء نيته تلك تجاهي.

زارني السيد هيبرغ لاحقاً، لكني لم أكن موجوداً في المنزل حينها، وبناءً عليه ذهبت إليه في وقتٍ لاحق وقد استقبلني جيداً، ورغم أن زيارتي له لم تكن متوقعة على الإطلاق بالنسبة إليه، إلا أنني تعمدت القيام بذلك لأني أردت أن أحصل على تفسير منطقي لتعاملاته السابقة تلك، وأردت أن أفهم المستقبل بشكل أفضل.

عرض السيد هيبرغ أفكاره ووجهات نظره التي تتعلق برفضه لعملي الأدبي سالف الذكر، وقال لي إنه لا يرى أي خطأ في آرائه تلك، وإنه يؤمن أنها شديدة الصحة وعميقة المنطق، ولكننا في واقع الأمر لم نتوصل إلى اتفاق ملموس خلال مناقشتنا تلك، ورغم هذا فقد صرح السيد هيبرغ أنه لا يحمل أي نية سيئة تجاهي، وأنه مدرك لحجم موهبتي الأدبية، ولا يشكك في قدراتي على الإطلاق، وفي تلك اللحظة ذكرت له عدد تلك المرات التي شن خلالها هجمات انتقادية ضدي، وأنه قد شكك في عدد من قدراتي بالفعل، وعلى رأسها -على سبيل المثال- قدراتي على التخيل وصناعة عوالمي الخيالية الخاصة، حيث صرح أنه من المستبعد أن تكون قصصي ورواياتي من ابتكاري الخاص، وحينها قلت له على الفور: «على الرغم من أنك يا سيد هيبرغ لم تقرأ أعمالي من قبل، وقد صرحت لي بذلك الأمر بنفسك في مناسبة سابقة!».

فقال: «أجل، هذا حقيقي فأنا بالفعل لم أقرأ أياً من أعمالك حتى الآن، لكني سأحاول أن أقوم بذلك في المستقبل!».

رددت قائلاً: «ومع ذلك فقد قمت بتوجيه ذلك النقد الساخر والتوبيخ لكتابي المعنون بأسواق الشاعر، وكذلك هاجمت المجلد الخاص بحكاياتي الأسطورية! انتقدت أيضاً أحد الأمور التي ناقشتها في كتابي الذي يتحدث عن أسفاري ورحلاتي في أوروبا، وقد وجهت لي اللوم -على حد قولك- لأنني قمت بوصف مضيق الدردنيل بأنه رائع، وفي حقيقة الأمر أنا لم أتحدث أبداً عن مضيق الدردنيل في هذا الكتاب فما تحدثت عنه هو مضيق البوسفور! وهذه في حد ذاتها إشارة إلى أنك لم تقرأ الكتاب من قبل! أليس كذلك؟».

ابتسم الرجل ساخرًا ثم قال: «هل كان مضيق البوسفور حقاَ؟ في الواقع كما ترى فأنا لا أتذكر موضوع كتابك الذي قمت بانتقاده على وجه التحديد، فالناس تنسى تلك الأمور بطبيعة الحال، ولكن يبقى الهدف الأساسي منها وهو تسديد طعنة للمؤلف!».

لقد بدا اعترافه ذاك تلقائياً جداً، ولم أجد أمامي حلاً سوى أن أبتسم له.

بعد مرور بعض الوقت بدأت أتناقش مع الرجل في عدة قضايا وموضوعات مختلفة، وقد شعرت حينها بالمزيد من الحرية والحيوية، وقد قال لي في نهاية المطاف عدة أشياء جيدة، منها أنه أعجب ببعض قصصي القصيرة بشدة، وأنه يدعوني إلى زيارته مجدداً، ولا أعرف تحديداً سبب ذلك، لكنني بدأت أشعر بالتكيف مع طبيعته المزاجية المتقلبة تلك، وآمنت أنه ربما سيتفهمني في يومٍ من الأيام.

تعرفت على السيد هيبرغ جيداً خلال السنوات اللاحقة، ورغم أننا كنا شخصين مختلفين، إلا أن كلاً منا كان يسعى لتحقيق هدفه في تلك الحياة، ولقد اصطحبني إلى مرصده الفلكي الخاص الذي يتمكن عن طريقه من تأمل النجوم والعوالم الفلكية الخفية، وقال لي بإن هذا العالم هو عالمه العزيز، وصرح لي أنه يعيش من أجل الاستمتاع بالشعر والفلسفة وعلم الفلك.

تم عرض عملي الأدبي في نهاية المطاف على خشبة المسرح، وقد وصلت عدد مرات عرضه إلى سبع مرات خلال الموسم الواحد.

كلما كبر الناس وكلما تنقلوا في هذا العالم

هناك مكان واحد يعتبرونه وطنهم

حتى الطير لديه مكان محدد وثابت يسرع إليه

كان ذلك المكان بالنسبة لي هو منزل صديقي كولنز

أصبحت فرداً من أفراد العائلة

وعاملوني كابن لهم

كان بيننا علاقة وطيدة

كان بمثابة موطن لي

سقطت حلقة من تلك السلسلة

وفي ساعة حزينة اكتشفت كم أنا متأثر

فقد اعتبرني كواحد من أولاده

لو كان علي إعطاء مثال عن زوجة كرست نفسها لزوجها وأطفالها

لكانت السيدة كولنز

كانت معي كالأم في الحزن والفرح

في السنوات الأخيرة من حياتها أصبحت صماء

إضافة إلى ذلك فقدت بصرها

قامت بإجراء عملية جراحية لعينيها وتكللت بالنجاح

وتمكنت من قراءة الرسائل في الشتاء

وكان هذا مصدر سعادة لها

تاقت لرؤية الربيع بشدة

في حديقة منزلها

ذات مساء غادرت المسرح بكل مرح وسعادة، وقد أيقظني الخادم في صباح اليوم التالي، وقد كان برفقته رسالة من السيد كولين صديقي، قال فيها: «زوجتي مريضة والأولاد جميعهم مجتمعون هنا».

فهمت مضمون الرسالة على الفور، وأسرعت ومضيت قدماً إلى منزلهم، وهناك وجدتها ترقد على فراشها بكل هدوء وسكون، لقد بدت وكأنها تتأهب لنومة أبدية لا تعرف أي مشتتات أو مصادر إزعاج زائلة، وفي اليوم الثالث كانت السيدة كولين قد قضت نحبها، وبدا وجهها أكثر شحوباً وصفاءً.

في الواقع يمكنني أن أعترف أنني لم أكن أتوقع يوماً أنه بمقدوري أن أودع أحدهم على هذا النحو. فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي لم يغمرني حينها الشعور بالذنب أو الحزن، ولكن على النقيض شكل ذلك الحدث نقطة مهمة كانت قد عززت إيماني بالرب، وأدركت في تلك اللحظة التي تأملت فيها زوجة صديقي كولين وهي ترحل وكأنها تسافر إلى عالم آخر بأن هناك حياة أبدية لا نعرف عنها شيئاً.

كان الجميع يلتف حول جسد المرأة الساكن في هدوء وبؤس، وقد كانت تلك هي حالة الاحتضار الأولى التي أشاهدها عن قرب، فلم تتح لي تلك الفرصة من قبل، حتى أولئك الذين رحلوا عن عالمي منذ أن كنت طفلاً صغيراً لم أكن قد رأيتهم يحتضرون على فراش الموت.

في نهاية يوليو، وبالتزامن مع الكشف عن النصب التذكاري الخاص بالملك فريدريك الثاني في سكاندربورج في منتصف أرض جوتلاند، قمت هناك بكتابة كلمات أنشودة الاحتفال بناء على طلب عدد من القائمين على ذلك الحفل الرسمي، وقد قام هارتمان بتأليف اللحن الموسيقي لتلك الكلمات التي كتبتها، وقام بغنائها الطلاب الدنماركيون، وتمت دعوتي إلى هذا المهرجان الذي كان بمثابة نزهتي الصيفية.

كانت سكاندربورج تقع في واحدة من أجمل مقاطعات الدنمارك، وقد ارتفعت تلك التلال الشاهقة المغطاة بأشجار الزان وتلك البحيرة الهائلة التي تزين البلدة من الداخل، بالقرب من الكنيسة التي تم بناؤها على أنقاض قلعة قديمة، وقف النصب التذكار الذي نحته ثوروالدسن.

كانت أجمل لحظة، بالنسبة لي في هذا المهرجان، في المساء، بعد أن تم الكشف عن النصب التذكاري، حيث تلألأ المكان من حوله وانعكست الأضواء على البحيرة.

قام الحضور بإضاءة أكبر عدد من الشموع، والتف الجميع حول التمثال الفني في حماس وبهجة. اشتعلت النيران في نفس اللحظة حول التلال، وبداخل الغابة، وبدت في الليل كالنجوم الحمراء. انتشرت في المكان رائحة صيفية نقية لم تكن معتادة في الشمال، تحديداً في ليالي الصيف الجميلة. انعكست ظلال الحاضرين الذين مروا بين النصب والكنيسة على طول جدرانها الحمراء، وكأنها أرواح شاركت في المهرجان.

عدت إلى الديار في وقتٍ لاحق، وخلال ذلك العام تمت ترجمة روايتي «المرتجل» إلى اللغة الإنجليزية على يد المؤلفة الشهيرة ماري هوييت، وقد

تم استقبالي بكل حفاوة من قبل سكان بلدتها من الإنجليز، وكذلك تمت ترجمة روايتي «مجرد عازف كمان» في العام التالي، وبعد ذلك ظهرت الترجمة الهولندية والروسية لروايتي «المرتجل».

شعرت بسعادة بالغة في تلك المرحلة من حياتي، فأنا لم أكن أتخيل يوماً حدوث أمر كهذا، وبدأت أشعر أن أعمالي الأدبية باتت تحلق في سموات الحظ المفتوحة، وقد وصلت إلى أرجاء مختلفة من أراضي ذلك العالم الممتد.

في الواقع علي الاعتراف أنه على الرغم من شعوري الكامل بالسعادة والفخر لقدرتي على تحقيق تلك الإنجازات، إلا أن الخوف قد سكن نفسي واستمرت ويلاته من دون رحمة، وذلك لأنه ليس هناك ما هو أشد هلعاً وذعراً من انتشار أفكار المرء بكل سهولة إلى هذا الحد الذي يجعلها تسافر بين البلدان من دون أن تعرف أي حدود أو عوائق، فالأمر كان مخيفاً بالنسبة إلي.

شعرت بذلك الشعور الذي تمتزج فيه الفرحة بالقلق والخوف، ودعوت الرب أن يستقبل هؤلاء الناس أعمالي وكتبي الخيالية بكل ود.

يعد السفر بالنسبة لي أكبر دافع لتحفيز العقل وتنشيطه، لقد كان أشبه بمشروبٍ سحري يمكنه بكل بساطة أن يجعل المرء شاباً مرة أخرى بعد أن أثقلته خبرات العمر وتجارب الحياة.

في الواقع شعرت حينها برغبة متجددة في البحث والسعي والشروع في كتابة عمل أدبي جديد، فكما قال النقاد في السابق، عندما قاموا بمناقشة كتابي المعنون باسم «سوق الشاعر»، الذي كنت أتحدث فيه عن رحلاتي وأسفاري إلى بلدان مختلفة عبر العالم، وانطباعي عن كل مكان ذهبت إليه وكيف تركت تلك الأماكن أثراً في أعماق روحي، حين أكدوا أن السبب المباشر وراء ظهور مادة الكتاب بتلك الطريقة الثرية هو أنني شخصياً كنت أعيش تلك الحالة، وأنني كنت أتطلع لمعرفة المزيد والكشف، فعندما يعيش المؤلف تلك التجربة الذاتية تجده يبدع في كتابة أعماله، فإن شغفه وسعيه الدؤوب للمعرفة يظهر بشكل جلي في تلك الأعمال والكتابات.

ويمكنني القول إن الحياة قصيرة جداً، وإن الإنسان لن يبقى شاباً إلى الأبد، لذا تجده بحاجة إلى تجديد روحه وإنعاشها من وقت إلى آخر، ومن ثم فإن تجربة السفر بالنسبة لي هي واحدة من أبرز التجارب وأهمها على الإطلاق، التي كنت أشعر خلالها أن رحلاتي تلك تنعش روحي كلياً وتغسلها وتعيدني شاباً أكثر قوةً وطموحاً.

خططت للقيام بتلك الرحلة، وقررت الاعتماد على نظام اقتصادي حكيم، من خلال عائدات أعمالي، وبالفعل تمكنت من القيام بعدة رحلات متلاحقة خلال العام الماضي.

حاولت في تلك الأثناء أن ألتزم بتجربة الكتابة يومياً، وكنت أقوم بإنجاز عدد معين من الصفحات، ورغم أني بذلت قصارى جهدي من أجل الادخار وتوفير المال للمتطلبات الضرورية، وكذلك على الرغم من أني كنت أحرم نفسي من عدة أشياء حتى ألتزم تمامًا بتنفيذ تلك الخطة الاقتصادية النظامية، إلا أنني شعرت بسعادة لا توصف لأنني استطعت تحقيق ذلك.

تمنيت أن أزور إيطاليا للمرة الثالثة، وأن أقضي هناك الصيف، حتى يتسنى لي التعرف على الجنوب في موسمه الدافئ، وأن أعود عن طريق أسبانيا وفرنسا، حاولت أن أخطط لتلك الرحلة، وغادرت كوبنهاجن في نهاية أكتوبر 1845. وأخذت أفكر في مدى بهجتها وروعتها! لكن ذلك الحلم لم يكتمل، حيث إنني شعرت بالتوتر والقلق كما هي عادتي على الدوام، وأخذت أفكر فيما يمكن أن يحدث خلال تلك الفترة التي أخطط خلالها لأن أسافر خارج البلاد، وأصبحت قلقاً على أصدقائي بغتة، وتساءلت في ذعر ماذا لو جاءت عربة الموتى وحملت أحدهم فجأة؟ وأخذت أسأل نفسي ترى من سيكون الاسم القادم في عالم الموتى؟ شعرت برجفة وأحسست بالبرودة تحتل أطرافي، وتذكرت تلك المقولة الدنماركية القديمة التي تقول: «إذا شعرت بتلك الرجفة الباردة بغتة فاعلم أن الموت في طريقه إلى أحد أحبابك».

قضيت عدة أيام في منزل الكونت مولتك في جلوروب، وهناك كان الفنانون يتأهبون لتأدية أحد العروض الأدبية وتمثيلها على خشبة المسرح في أحد تلك الأقاليم القريبة. في الواقع لم أر ذلك العرض المسرحي، فحياة الريف تلك تأسرني وتحتجزني وتمنعني من مغادرة تلك الطبيعة المفتوحة.

كان هناك شيء ما يتعلق بشاعرية ذلك المكان الخلاب، هناك حيث تتساقط أوراق الشجر بشكلٍ متلاحق، وحيث تغمر أشعة الشمس العشب الأخضر، في أحضان تلك الطبيعة البسيطة حيث تغرد الطيور، ويبتهج القلب شاعرًا بأنه يتدثر بأحد تلك الأيام الربيعية.

كانت تلك اللحظات قادرة على جعل الإنسان يشعر بعذوبة ذكريات الطفولة وكأن حياته أشبه بحلم يقظة قصير. مررت بمدينة أودنسه ليوم واحد، وشعرت بالغربة في تلك المدينة أكثر من ألمانيا.

عندما كنت طفلاً صغيراً كنت وحيداً جداً منبوذاً، ولم يكن لدي أي صديق في مثل عمري، والآن قد تغير وضع البلدة كلياً فقد ماتت كافة تلك العائلات التي كنت أعرفتها، ولم يعد هناك أحد من الأشخاص الذين قد نشأت معهم، وباتت هناك أجيال جديدة تجوب الشوارع والطرقات. من المحزن أيضاً أن أجد أن المقابر الحديثة قد حلت محل المقابر القديمة، ولم يعد هناك أثر لقبري أبي وأمي. لقد تغير كل شيء.

استمعت إحدى الفتيات التي كانت تجلس بهدوءٍ وبعينين لامعتين إلى قصيدتي الأولى عندنا جئت إلى هنا في فصل الصيف كطالب من سلاغليس وهي تجلس الآن بهدوء أكبر من مدينة كوبنهاغن، التي تملؤها الضوضاء، وبدأت بكتابة أولى أعمالها. قال الناشر الألماني إن بضع كلمات مني في المقدمة قد تساعدها، فقمت، بعد استقبالهم الحار لي، بتقديم أعمال تلك الفتاة الذكية إلى ألمانية.

إنها الكاتبة هينريك هانك، مؤلفة «العمة آنا» و«ابنة الكاتب»، وبينما أنا في خضم كتابة هذا الكتاب الذي تقرأه الآن، تلقيت خبر وفاتها في تموز 1846. كانت ابنة محبة لوالديها وتمتلك عقلاً شاعرياً حقيقياً. بموتها فقدت صديقةً حقيقيةً محبةً منذ سنوات الطفولة، صديقةً دعمتني في السراء والضراء. زرت مكان ولادتها عندما دعاني بعض الأصدقاء ولكن شعرت بأني غريب عن المكان.

وصلت عائلة الدوق أوغستنبيرغ إلى قلعة غريفنستاين وعرفوا بوصولي واستقبلوني بحفاوة مجدداً كما في السابق. بقيت هنا أربعة عشر يوماً، وكان وقتاً سعيداً جداً مبشراً بسعادة قادمة سأجدها في ألمانيا. إن المكان من حولي خلاب فعلاً، فتوجد هنا غابات واسعة، مزارع محروثة بتنوع كبير، مع الخليج الملتف حول الشاطئ والبحيرات الداخلية الهادئة، كما أعطى ضباب الخريف الأرض جمالاً أكثر. كل شيء هنا كبير بالنسبة لجزيرة. كان المكان جميلاً من الخارج وخلاباً من الداخل. كتبت هنا قصة جديدة، قصة فتاة الكبريت، وهو الشيء الوحيد الذي كتبته أثناء ترحالي. غادرت بكثير من الامتنان بعد أن قضيت وقتاً رائعاً، وبعد أن تلقيت العديد من الدعوات للقدوم إلى غريفنستاين وأوغستنبيرغ.

لست مضطراً لقضاء وقت طويل في السفر الآن لأن القطار يستطيع نقلك خلال ساعات من آلتونا إلى هامبورغ. تزايد عدد أصدقائي في السنوات الأخيرة هناك. قضيت أغلب وقتي مع أصدقائي القدامي الكونت هويك والوزير بيل ومترجم كتابي المتميز زيس. فاجأني أوتو سبيكتر المتقد الذكاء بمجموعة

رسومات مميزة وجريئة لقصصي. صنع مجموعة كاملة منها ووصلني منها ست فقط. يظهر التميز الطبيعي في كل أعماله ويحولها لأعمال فنية حقيقية ويظهر أيضاً في شخصيته. يمتلك عائلة محافظة تتألف من والده العطوف وأخته الموهوبة اللذين يحبانه حباً شديداً. تمنيت الذهاب إلى المسرح ذات يوم وكان ذلك قبل بداية العرض بربع ساعة. رافقني سبيكتر وفي طريقنا مررنا بمنزل مميز وجميل.

«يجب أن نمر إلى هذا المكان أولاً»، قال سبيكتر، «تعيش هنا عائلة ثرية وهم أصدقائي وأصدقاء قصصك، سيفرح الأطفال بك».

فقلت: «ماذا عن العرض في الأوبرا؟»

«سنمر لدقيقتين فقط». قال مجدداً وسحبني باتجاه المنزل وعندما ذكر اسمي، تجمع الأطفال حولي. «والآن أخبرنا بإحدى قصصك. واحدة فقط».

فقلت: «كانت تلك زيارة مميزة».

«زيارة رائعة، بعيدة عن الشكل المألوف». قال سبيكتر بفرح. فكر في أن الأطفال يحبون أندرسون وقصصه وفجأة يظهر بينهم ويروي واحدة من قصصه بنفسه ويختفي. إن هذا فعلاً بمثابة قصة خيالية للأطفال وستبقى خالدة في ذاكرتهم».

استمتعت فعلاً بذلك.

كانت غرفتي الصغيرة والمريحة والهادئة بانتظاري في مدينة أولدنبورغ، هناك حيث التقيت صديقي العزيز السيد هوفرات فون آيزنديكر وزوجته الطيبة. قطعت لهم وعداً أن أمكث برفقتهم لمدة أسبوعين إلا أنني في حقيقة الأمر أمضيت في منزلهم مدة تتجاوز تلك الفترة. إنني أؤمن تمام الإيمان أن ذلك المنزل الذي يضم عشرات المثقفين والمفكرين من أبناء المدينة ما هو أقرب إلى ذلك النعيم الذي لا يزول تماماً كما كان الحال في هذا المنزل الذي كنت أقيم فيه خلال تلك الفترة الزمنية المحددة.

ساد قدر من التواصل الاجتماعي الذي كان يدور حول أحوال المدينة وأوضاعها، وكذلك عن المسرح والأوبرا الموسيقية وفن الباليه الراقي وهو أحد أكثر المسارح تميزاً في ألمانيا.

إن مهارة المخرج غال معروفة بما فيه الكفاية، ولا شك أنه قد تم ترشيحه من قبل الشاعر موسين، الذي كان له أثر عظيم عليه. كان علي أن أشكره حينها على اصطحابي برفقته لمشاهدة إحدى مسرحياته الكلاسيكية بعنوان «ناثان الحكيم»، والتي تميز أداء الممثل الذي قام بدور القيصر فيها بشدة إلى الحد الذي جعل أداءه المسرحي يبدو متمكناً للغاية وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على دراسته للدور وكثرة اطلاعه وقراءاته.

كان يوليوس موزن يشبه إلى حد ما الشاعر الشهير ألكساندر دوما في ملامحه نصف الإفريقية وعينيه البنية المشرقة، وعلى الرغم من أنه كان يعاني جسدياً من مرضٍ ما إلا أن روحه كانت مشرقة ومفعمة بالحيوية والنشاط على الدوام، ومع مرور الأيام تمكن كلانا من فهم الآخر بشكلٍ جيد، لقد أثرت علي صفة من صفات ابنه الصغير، فقد كان يجيد الإصغاء عند رواية إحدى قصصي له. وخلال اليوم الأخير لإقامتي معهم قالت له أمه إنني على وشك مغادرتهم والعودة إلى الديار، وحينها انفجر الصبي في البكاء، وفي المساء عندما عاد يوليوس موزن من المسرح قال لي: «لدى إريك الصغير جنديان، ويقدم إليك واحداً لتصطحبه معك في رحلتك». لقد رافقني ذلك الجندي الدمية بإخلاص، إنه تركي. لقد تمنيت أن يمتلك تلك القدرة على الكلام يوماً ما ليسرد تفاصيل أسفاره ورحلاته حول العالم.

كتب موسين في مقدمة كتابه «جون النمساوي» الأبيات التالية وأهداها لي:

طار مرة عصفور صغير عالياً

من شمال البحر المخيف

وكان يغني

طار باتجاهي

مغنياً ومتجهاً نحو اليابسة

وداعاً!

ولكن عد إلى هنا مجدداً واجلب معك

أغانيك وقلبك الدافئ

قابلت مآير مجدداً، والذي كان قد وصف قصتي الخيالية «نابولي ونابليتون» بأنها من أجمل الحكايات التي تمكن مؤخراً من قراءتها كما أنه عبر عن إعجابه الشديد بتلك القصص الأسطورية التي قمت بكتابتها، وقد قام بترجمة بعضها إلى اللغة الألمانية، وقد اصطحبت أصدقائي القدامى كابيلميستر بوت، جيرندورف إلى جولة حول البلدة، وكذلك كنت أتعرف يومياً إلى أناس جدد حيث كانت منازل البلدة مفتوحة أمامي تدعمني وتستقبلني بكل حفاوة حتى إن قاعة أوبرا الدوق الكبير قاموا بدعوتي لحضور حفلة موسيقية رسمية وكذلك تمت دعوتي على العشاء، وهناك أيضًا التقيت أفراد عائلة صديقي بوليو والذي كان يعمل مستشار الملكة الخاص في أولدنبورغ، كما أنني سمعت عدداً من أغنياتي باللغة الألمانية.

كان بمقدوري أن أقرأ باللغة الدنماركية بكل مهارة وتمكن، وكنت أعرف جيداً كيف استخدم لغتي الأصلية وأجدت التعبير بها وعنها، فلقد كنت أؤمن أنه ثمة سحر ما في تلك اللغة لا يمكن أبداً نقله عن طريق الترجمة.

إن إحدى أبرز مميزات اللغة الدنماركية هي قدرتها الفنية على استيعاب تلك الصور الخيالية العصية على التعبير، ويمكنني القول إنني عندما استمعت إلى قصصي تقرأ باللغة الألمانية لأول مرة شعرت بانطباع غريب، وعلى الرغم من أنه قد كان صعباً علي قراءة حكاياتي بالألمانية بصوتٍ مرتفع إلا أني بذلت قصارى جهدي لكي أسكب قليلاً من روح اللغة الدنماركية على تلك المقاطع والعبارات الألمانية التي كنت ألفظها، فقد كان نطقي للغة الألمانية ضعيفاً، تعين علي أن أحاول التعبير بطريقة صوتية عما أقول.

أيقنت حينها أن استخدام الشخص الأجنبي لأي لغة لا تعد لغته الأم يمثل ثراءً وإضافة واضحة لتلك اللغة، لأنك تجد أن ذلك الشخص ينظر إليها ويتعامل معها تماماً كما الطفل الذي يكتشف طريقه لأول مرة ومن ثم فإنه يصل إلى عدة اكتشافات مغرية أهمها جماليات تلك اللغة واستخدامات لغوية أخرى لها غير شائعة وكذلك تجده يتعامل معها بكل تحرر و تعقيد ومن دون أن يرى قوالبها الجامدة، وتجده قادراً على التحلي بالجرأة من أجل اقتراح استخدامات جديدة لها لم يقوَ على استخدامها جهابذة اللغة أنفسهم!

لقد أعجبت الجماهير العريضة من الشعب الألماني بقراءتي للغة الألمانية وأحبوا بشدة تلك الإضافات التي قمت بوضعها، وقد طلبوا مني أن أقرأ المزيد من القصص والحكايات على هذا النحو، وبالفعل واصلت القراءة من دون أن يقاطعني أحدهم على الإطلاق.

رأيت أعداداً كبيرةً من أولئك الرجال والنساء المثقفين المتحضرين الذين كانوا يستمعون إلي بكل انتباه وتقدير. تلك هي المرة الأولى التي قرأت فيها قصصي وحكاياتي بلغة أجنبية خلاف لغتي الأصلية وقد كان ذلك في الساحة الفنية لقصر الدوق الأكبر في مدينة أولدنبورغ.

أوشك الشتاء على القدوم، وقد غطت الثلوج الكثيفة تلك المروج التي غمرتها المياه والتي شكلت بحيرات كبيرة حول المدينة. بدأ المتزلجون في التحليق فوق تلك الثلوج المتراكمة، وفي تلك الأجواء الباردة فضلت أن أبقى برفقة أصدقائي في أولدنبورغ.

مرت الأيام بسرعة، وجاء موعد أعياد الميلاد المجيدة، وقد تمنيت أن أقضي ذلك الفصل في برلين على وجه التحديد ولكن تظل لعنة المسافات هي آفة زماننا الحالي.

صعدنا العربة التي أخذتنا من هانوفر إلى برلين خلال يوم كامل. كان يتوجب عليّ حينها الابتعاد عن كل هؤلاء الأطفال والعجائز الذين كانوا مقربين جداً إلى قلبي.

عندما توجهت إلى برلين في إحدى المناسبات الرسمية والتي تمت فيها دعوتي بصفتي مؤلف رواية «المرتجل» تمت دعوتي للالتقاء بمجموعة من أفراد المجتمع الإيطالي، وقد التقيت هناك راوتش لأول مرة، والذي بدت عليه الحيوية والنشاط مثل تورفالدسن، وعلى الرغم من أنه لم يقدمني أحدهم إليه، فلم أجرؤ كذلك على تقديم نفسي له، فقط مشيت بمفردي حول غرفة مكتبه الخاصة تماماً كما فعل غيري من الغرباء، وقد تمكنت في وقتٍ لاحق من التعرف عليه في منزل السفير الروسي في مدينة كوبنهاجن.

كان راوتش مسحوراً بأسلوبي الأدبي وأفكار قصصي وحكاياتي الخيالية، وقد صافحني بكرمٍ وعانقني بمحبة شديدة، وأخبرني أن لدي عدداً كبيراً من الأصدقاء والمعجبين في عاصمة بروسيا، وقد التقيت هؤلاء الأفراد ووجدت أنهم من أعظم وأنبل رجال المنطقة وأكثرهم تحضراً وثقافة، فقد كانت لهم أنشطة متنوعة في مجالات الفنون، والآداب، والعلوم. كان على رأس هؤلاء ألكسندر فون همبولت، الأمير رادزيفيل، وسافييني، وغيرهم من الأشخاص الذين لا يمكنني أن أنساهم.

التقيت في تلك الأثناء أيضاً الأخوين جريم رغم أني لم أنجح كلياً في التعرف عليهما بشكل وثيق، فلم أحضر برفقتي أي رسائل أو خطابات تعريفية لأتمكن

من تقديم نفسي إليهما، لأن الناس قد أخبروني سابقاَ أنه إذا كان هناك أي أحد يعرفني في برلين فمن المفترض أن يكون هؤلاء الأشخاص هما الأخوان جريم.

لاحقاً أخذت أفكر في طريقة ما من أجل لقائهم، وقد سألني الخادم عن اسم الشخص الذي أرغب في مقابلته من عائلة جريم، وقال لي: «من هو الأخ الذي ترغب في لقائه بالتحديد؟»

«في الواقع أرغب في لقاء الأخ الذي قام بكتابة أكبر عدد من القصص الخيالية، قلت له ذلك لأنني لم أكن أعرف في تلك الأثناء أسماء الأخوين جريم»

«جاكوب هو الأكثر ثقافة» قال الخادم.

«حسنًا إذن -من فضلك- خذني إليه».

دخلت إلى الغرفة، ووجدت جاكوب جريم يقف أمامي راسماً ابتسامة تمتزج بالثقة على وجهه، وحينها اقتربت منه وقلت على الفور: «في الواقع لقد جئت إليك من دون أية رسائل أو خطابات تعريفية لتقديمي إليكم، أتمنى حقاً أن يكون اسمي معروفا بالنسبة لك». بدا الحرج جلياً على وجه جاكوب جريم وقال: «من أنت؟ أخبرته باسمي، وحينها قال متردداً: في الواقع أنا لا أتذكر أبدًا أنني سمعت هذا الاسم من قبل، ما الذي قمت بكتابته؟» بدت علامات الحرج جلية على وجهي أنا هذه المرة، وذكرت له أسماء بعض قصصي الخرافية، وحينها قال: «في الواقع لا أعرف تلك القصص، ولم أسمع عنها من قبل، ولكن هل من الممكن أن تذكر لي بعض الأسماء الأخرى ربما أتذكر أي منها؟» ذكرت له بعض أسماء قصصي وحكاياتي الأخرى، لكنه هز رأسه في لا مبالاة وحينها شعرت بأن حظي سيئ للغاية. «أرجوك أخبرني بصراحة، ما الذي تعتقده بشأني الآن؟ فها أنا ذلك الرجل الغريب كلياً بالنسبة إليك والذي جاء إليك خصيصاً ليتحدث عن أعماله المكتوبة! كنت أظن حقاً أنك تعرفني، فقد كان هناك مجموعة قصصية شهيرة تم طبعها باللغة الألمانية والتي ضمت عدداً كبيراً من الحكايات الخيالية حول العالم وكان من بينها قصتي! ألم تقرأها؟ ابتسم السيد جاكوب جريم وقال: «في الواقع لم تسنح لي الفرصة لأقوم بالاطلاع على تلك المجموعة القصصية أيضاً، ولكنني مسرور بلقائك فعلاً، هل ترغب أن أقدمك لشقيقي ويليام جريم؟»

«لا! شكراً لك!»، قلتها على الفور فلم أكن أتمنى شيئاً إلا الذهاب بعيداً الآن، من ثم فقد صافحته وهرولت بعيداً عن هذا المنزل.

خلال نفس هذا الشهر ذهب جاكوب جريم إلى مدينة كوبنهاجن، وعندما رآني أسرع جاكوب ليلحق بي، فقد تغير الأمر هذه المرة فالرجل بات يعرفني الآن، وقد استقبلني بكل حفاوة، وكذلك عاملته بلطفٍ لكني حرصت أن يكون الحوار مقتضباً تماماً كما كان حواره معي في برلين. يمكنني القول إن ذلك التعامل الرسمي المصطنع لم يستمر طويلا حيث إنني وجاكوب جريم قد أصبحنا صديقين مقربين عندما قمت بزيارتي التالية إلى برلين، ويمكنني القول إن جاكوب كان أحد أولئك الأشخاص المحبوبين الذين يتعلق بهم المرء بسهولة.

ذات مساء بينما كنت أقرأ إحدى قصصي الخرافية للكونتيسة بيسمارك بولن كان هناك مجموعة من الأفراد يستمعون إلي وكان من بينهم شخص يبدو الانتباه جلياً على ملامح وجهه وكذلك بدء تأثره الواضح بتلك الأعمال الأدبية والذي عرفت لاحقاً أنه ويليام جريم شقيق جاكوب. «لو كنت طلبت لقائي في ذلك اليوم الذي أتيت فيه إلى منزلنا في برلين لكنت تعرفت عليك بالطبع»، قالها ويليام جريم مشيراً إلى تلك الزيارة التي التقيت فيها شقيقه جاكوب جريم الذي لم يكن يعرفني حينها. منذ تلك اللحظة حرصت على الاجتماع بالأخوين جريم يومياً وكانوا يستمعون إلى قصصي وحكاياتي ويتفاعلون معها، وكان لهذا أبلغ الأثر على نفسي، فقد غمرني السرور والفخر لأن الأخوين جريم ينصتون إلى قصصي الخيالية بكل هذا الشغف، أولئك الذين سوف يرتبط اسمهم بالحكايات الشعبية الألمانية التراثية إلى الأبد.

يتعين عليّ أيضاً أن أعترف أن زيارتي الأولى إلى منزل آل جريم والذي لم يتعرف حينها جاكوب على شخصيتي الأدبية سببت لي اضطراباً لفترة طويلة من الوقت إلى الحد الذي جعلني أبدو متألماً على الدوام حتى عندما كان يسألني أحدهم إن كان قد تم استقبالي بشكلٍ جيد في ألمانيا فكنت في تلك الأثناء أقول لهم: «أجل ولكن جاكوب جريم لا يعرفني!».

أخبرني شخص ما في وقتٍ لاحق أن لودفيغ تيل مريض جداً ولا يمكنه رؤية أحد، ومن ثم فقد أرسلت بتلك المناسبة بطاقة بريدية فقط من أجل الاطمئنان على صحته وأحواله، وقد التقيت صديقاً آخر في أحد منازل المقربين فيما بعد، هناك حيث كانوا يحتفلون بعيد ميلاد راوتش، وقد أخبرني حينها أن لودفيغ تيل قام بدعوتي إلى تناول العشاء في منزله في السابق، وأن

خادمه قد قام عن طريق الخطأ بتسليم تلك الدعوة إلى منزل آخر. قبلت دعوته بالطبع، وقضيت بعض الساعات المبهجة برفقة جورج دبليو فون رومر المؤرخ وأرملة ستيفنز وفتياته.

سيطرت الأجواء المبهجة على ذلك الحفل المقام في منزل تيك، وقد كانت روحه تتغنى بالموسيقى في تلك الأثناء وبدا الذكاء متقداً في عينيه، على نقيض ذلك المرض الذي كان يحتل جسده وينهش فيه لكن علامات الألم والتقدم في العمر لم تكن ظاهرة أبداً على لودفيغ تيك.

عزفت أنغام أغنيته «الأقزام» التي كتب كلماتها بنفسه، والتي تعد أهم أغنياتنا الوطنية وأكثرها قيمة وجمالاً، لقد كانت أغنية رائعة إلى الحد الذي يجعل الأمر يبدو كافياً جداً لو كان تيك لم يكتب سواها! فكلمات تلك الأغنية المدهشة وحدها ضمنت له الخلود. انحنيت أمامه تحيةً وتقديراً، فقد كان هو ذلك الشاعر الذي اعتبرته منذ البداية قدوتي ومثلي الأعلى والذي دعمني وشجعني أن أسلك نفس الطريق الذي سلكه في حياته المهنية الخاصة.

دعاني عدد كبير من الأصدقاء القدامى حتى أزورهم في منازلهم وأقضي برفقتهم بعض الوقت، وتمكنت من تكوين عدد كبير من الصداقات، لقد تطلب الأمر مزيداً من القوة البدنية حتى أستطيع أن أمضي قدماً مجيباً لكل تلك الدعوات الكريمة.

مكثت في برلين لمدة ثلاثة أسابيع، شعرت خلالها أن الوقت يمر بسرعة غريبة، كنت مغموراً بالدفء والمحبة، ولم يكن لدي أي دافع لأهجر كل هذا الترف وأرحل من تلك البلدة.

وسط كل هذه المهرجانات الاجتماعية والاحتفالات المتعددة لم تكن أمامي أي فرصة لكي أجلس بمفردي حتى في تلك الأوقات المتزامنة مع أيام عيد الميلاد المجيد وجدتني أجلس برفقة عدد هائل من الأسر والعائلات المرموقة والأطفال الذين تعاملوا معي وكأني فرد من أفراد العائلة، وعلى الرغم من كل ذلك الزحام والصخب إلا أنني في نهاية أمسية عيد الميلاد جلست منعزلاً في غرفتي الخاصة المطلة على شجرة عيد الميلاد المضيئة في الخارج. فكرت في وطني، وأخذت أتساءل في شجن ياترى كيف تسير الأمور هناك الآن؟ وماذا عن أصدقائي القدامى وعائلاتهم؟ تملكني الحزن بغتة لكنني نظرت في ذلك الحين إلى السماء وشعرت وكأنها تبعث بريقها خصيصاً من أجلي. صليت ودعوت الرب قائلاً: «أبانا الذي في السموات، ما الذي ستمنحني إياه الليلة؟»

لقد رددتها تماماً كما الأطفال الصغار، وكنت حقاً أرغب في أن يفاجئني الرب بشيء.

عندما علم أصدقائي أني أقضي ليلة الميلاد تلك بمفردي، توافدوا على غرفتي حاملين برفقتهم عدداً كبيراً من الهدايا الرائعة وقاموا بإضاءة المزيد من الشموع، كانت صديقتي العزيزة جيني ليند على رأس الحضور وكانت ابنتها برفقتها، وقد شرعنا جميعاً بالاحتفال وطلبوا مني أن أقرأ لهم بعض حكاياتي الخرافية الجديدة وبالفعل بدأت في إلقائها على مسامعهم، وقد ابتهجت جيني ليند التي كنت فخوراً بها بشدة لأنها كانت مطربة عظيمة ذات موهبة معروفة، وكانت أيضاً امرأة ملهمة لا يمكن إغفال دورها الفاعل في المجتمع.

ذات صباح وأنا أنظر خارج نافذتي، رأيت رجلاً تحت شجرة وكان ذا ملابس رثة ومختبئاً. أخرج من جيبه مشطاً لشعره، ووضع منديله في مكانه ومسح معطفه بيده. أفهم فعلاً خجله من فقره الذي كان ظاهراً في لباسه. وبعد لحظة، قرع بابي ودخل ذلك الرجل نفسه. كان شاعراً حقيقياً ولكنه كان خياطاً فقيراً. امتلك موهبةً شعريةً. ذكره ريلستاب والعديد من الآخرين في برلين بفخر. توحي أبياته الشعرية برجل متدين وتقي. قرأ أنني كنت في برلين وتمنى زيارتي. جلسنا على الأريكة وتحدثنا سوية. ظهرت قناعة لطيفة في حديثه وأسلوب جميل أيضاً لدرجة أنني حزنت لأني لست غنياً لأساعده. خجلت من تقديم ما لدي لأنه كان قليلاً جداً. تمنيت أن أستطيع قولها بطريقة لطيفة قدر الإمكان. وطلبت منه مرافقتي لحضور عرض جيني ليند.

«لقد سمعتها من قبل»، قال الشاعر مبتسماً: «لم يكن لدي المال لشراء البطاقة ولكن ذهبت إلى كبير المشرفين وطلبت منه أن أعمل كممثل ثانوي لليلة واحدة في نورما، تم قبولي ودخلت كجندي روماني بسيف طويل وصعدت إلى المسرح، وكان بإمكاني سماع صوت جيني ليند أفضل من أي شخص آخر لأني وقفت بجانبها مباشرة. يا إلهي كيف مثلت! لم يكن بإمكاني حبس دموعي وغضبوا بسبب ذلك ومنعوني من صعود المسرح بعد ذلك لأنه لا يمكنك البكاء على خشبة المسرح».

باستثناء المسرح، كان وقتي ضيقاً لزيارة أي مكان فني آخر، ولكن مدير المعرض، أولفرز اللطيف ساعدني بزيارة سريعة إلى ذلك المكان. كان أولفرز نفسه مرشدي هناك، ومشينا بخطا بطيئة أمام القطع الممتعة وكانت تلك القطع كثيرة. كانت كلامته رائعة وأثارت في عقلي الكثير من الأفكار وأنا ممتنٌ له جداً.

كان لي شرف زيارة أميرة بروسيا عدة مرات وكان الجناح الذي تقطن فيه الأميرة من القلعة مريحاً جداً، كان قصر أميرات فعلاً. في الحديقة الشتوية نبع ماء يخرج من تحت أقدام التمثال وكانت الحديقة قريبة من غرفة الأطفال. وعند مغادرتي، أكرمتني بمجلدٍ غني من الصور وكتبت اسمها تحت إحدى صور القصر. سوف أحتفظ بمجلد الصور ذاك ككنز ثمين ليس لأنه له قيمة كهدية ولكن بسبب الطريقة التي تلقيته بها. قرأت للأميرة بعضاً من قصصي واستمع زوجها النبيل بتمعن. كان الأمير بيكلير موسكاو موجوداً أيضاً.

وبعد عدة أيام من وصولي إلى برلين، تلقيت دعوة إلى المائدة الملكية. كنت أعرف هامبولدت أكثر من أي شخص آخر هناك وكان هو أكثر شخص مهتم بي فجلست بجانبه ليس فقط بسبب شخصيته المثقفة جداً وسلوكه المهذب الراقي ولكن بسبب طيبته في التعامل معي. وخلال فترة وجودي في برلين، أصبح مقرباً جداً مني.

استقبلني الملك بحفاوة وقال إنه خلال زيارته لكوبنهاغن، سأل عني وسمع أني قد سافرت. أظهر اهتماماً عظيماً برواياتي. حتى الملكة أظهرت اهتماماً تجاهي. سررت بتلقي دعوة لقضاء أمسية في قصر بوتسدام، أمسية تملؤها الذكريات الغنية التي لا يمكن نسيانها. كنا أنا وهمبولدت فقط مدعوين. كان لي كرسي مخصص على طاولة سعادتهما، مكاني هذا كان مخصصاً سابقاً لي أولينشلغير حيث جلس وقرأ القصة التراجيدية لدينا، كما قالت الملكة. قرأت أربع قصص قصيرة، واستمع الملك باهتمام شديد وعبر عن نفسه بذكاء تجاه كل موضوع من مواضيع القصص. عبر عن إعجابه بالطبيعة في الدنمارك ومدى روعة تمثيل هولبيرغ الكوميدي.

كان الأمر رائعاً في القصر الملكي، كيف كانت تلك العيون تنظر لي بإعجاب وأحسست بأمنياتهم الطيبة تجاهي. وعندما كنت وحيداً في غرفتي ليلاً، كانت أفكاري مشغولة بتلك الليلة وكان عقلي متحمساً جداً لدرجة أني لم أستطع النوم. كل شيء بدا لي خيالياً. استمرت الأناشيد طوال الليل في الأبراج واختلطت الموسيقى الأثيرية مع أفكاري.

تلقيت مرة أخرى تعبيراً آخر عن كرم الملك تجاهي في الليلة السابقة لمغادرتي المدينة. تم منحي لقب النسر الأحمر من الدرجة الثالثة ويسعد ذلك اللقب كل من يتلقاه. أعترف أني شعرت بالتقدير بأعلى أشكاله. وجدت في هذا تعبيراً صادقاً عن طيبة الملك ونبله تجاهي، امتلأ قلبي بالامتنان. تلقيت اللقب في ذكرى ميلاد صديقي المفضل كولن في السادس من كانون الثاني،

فكان لذلك اليوم أهمية عظيمة لدي! وأدعو الله أن يمنح السعادة للعائلة الملكية التي أسعدتني بالفعل.

قضيت الأمسية الأخيرة مع مجموعة أصدقاء مقربين. كنت ثملاً ووصلت متأخراً وكنت سأغادر باكراً في اليوم التالي باتجاه القطار.

أظهرت ما تلقيت في برلين من تعبير عن اللطف والكرم. شعرت وكأني قد تلقيت مجموعة كبيرة من الهدايا وأريد أن أقدم وصفاً لذلك. يمكنني إضافة أسماء أخرى من المثقفين مثل ثيودور وجيبيل وهنريك وأسماء أخرى من العلاقات الاجتماعية وهم كثر. أعطاني الله القوة لأؤدي ما علي، عزيمة حقيقة ولذلك تلقيت ما ذكرت سابقاً.

بعد رحلة ليوم وليلة، وصلت إلى ويمار مع صديقي النبيل غراند دوق. يا للاستقبال الرائع! قلب مليء بالمحبة وعقل مليء بالنشاطات النبيلة، كلها ظهرت في ذلك الأمير. ليس لدي كلام لوصف ما تلقيته بشكل يومي من عائلة غراند دوق وكان قلبي يمتلئ بالامتنان. لاحظت عدة تعابير عن التقدير في الاحتفال وفي الدائرة المقربة من العائلة. اهتم بيليوم بي كأخ له وبقيت هناك شهراً كاملاً. لن أنسى الأمسيات الهادئة مع صديق مثله.

لم يتغير أصدقائي أبداً، وجدت الحكيم شول على حاله وأيضاً انضم لهم شوبر. جاءت جيني ليند إلى ويمار. استمعت لها في حفلات المسرح وزرنا معاً الأماكن التي أصبحت مقدسة بسبب ضريح كل من غوثة وشيلير. وقفنا قرب قبورهم حيث قادنا القنصل فون موليير إليها. التقانا الشاعر النمساوي روليت هنا للمرة الأولى وكتب عن هذا اللقاء قصيدة جميلة وستبقى في ذاكرتي عن هذا المكان وعن هذا اللقاء. يضع الناس الزهور على قبورهم وأنا سأضع هذه الأبيات:

ويمار 29 كانون الثاني 1846

وقفت مارشن التي دائماً ما كانت تسحرني

بهوائها العليل المعطر

حيث يرقد الأمراء والشعراء

لقد زينت قاعة الموت

بوجودك حول كل قبر

في الغرف الشاحبة

رأيت عندليباً جميلاً حالماً

يغني بحزن

فرحت وسط ذلك الهدوء

ودخلت السعادة صدري

لأنه تتم تتويج قبور

أولئك الشعراء البائسة

ومر عطر أزهارك الصيفية

حول شحوب تلك الغرفة

وحول بؤس ذلك العندليب الحزين

التقيت آورباخ لأول مرة في أمسية مع الأصدقاء المثقفين في فروريب الذي قرر القدوم والبقاء في ويمار. أثارت مجموعته «قرية الحكايات» اهتمامي بشكل كبير. أعتبرها الإنتاج الأكثر شاعرية والأمتع في الأدب الألماني الحديث. وقد ترك لدي، كشخص، نفس الانطباع الذي تركته مجموعته الشعرية. كان هناك شيء صادق وحكيم في مظهره، ويمكنني القول إنه يبدو تماماً مثل مجموعته الشعرية، رائعاً وصحيح الجسم والبنية وتشع عيناه بالصدق. أصبحنا صديقين وأتمنى أن نبقى كذلك للأبد.

طال بقائي في ويمار وأصبح من الصعب عليّ الابتعاد. وصادف ذكرى ميلاد غراند دوق تلك الفترة. وبعد حضور كل تلك الاحتفالات التي دعيت لها، غادرت. لابد أن أكون في روما بحلول عيد الفصح. رأيت غراند دوق صباحاً وقلبه مليء بالمشاعر لوداعي. لا أنسى أبداً التعامل مع ما يليق بمكانته أمام الناس ولكن رغم كونه أميراً، فهو عزيز جداً على قلبي. أدعو الله أن يسعده ويعطيه ما يصبو إليه فهو أمير ذو قلب كريم.

اصطحبني صديقي بيلو إلى جينا، وهناك استقبلت بكل الحب والتقدير وتذكرت حينها كل تلك الذكريات المدهشة التي تخص عصر الشاعر الألماني المرموق جوته، وتذكرت أيضاً منزل الناشر الألماني فرومان. كانت أخته الحنونة الطيبة هي مرشدتي السياحية أثناء تواجدي في برلين في الفترات السابقة، وقد عاملتني بكل الود.

في ذلك المساء أيضاً دعاني السيد هولستنر ميشيلسن والذي كان أستاذاً جامعياً في مدينة جينا الألمانية لتناول وجبة العشاء برفقته وفي حضور عدد كبير من الأصدقاء الودودين، وقد حرص جميعهم على الاحتفال بوجودي بينهم واحتساء النبيذ نخب تحقق ذلك، وقد أكد السيد ميشيلسن على براعة الدور الذي قمت به ككاتب خيالي مسرحي وكذلك أكد على أهمية الأدب الدنماركي.

ناقشني المزيد من الأساتذة والنقاد بخصوص روايتي المنشورة تحت عنوان «المرتجل» عقب وصولي إلى مدينة ليبزيج، وفي تلك المرحلة بدأت أضيف المزيد من الخبرات إلى حياتي خلال السفر، وقد ذهبت إلى مكتبات المدينة وقمت بجولة ممتعة في الأرجاء.

بمجرد وصولي إلى مدينة درسدن الألمانية، هرعت إلى منزل صديقتي القديرة الدوقة فون ديكين، التي كنت أعتبرها في منزلة أمي، وكانت تعتبرني ابنها. رحبت بي بكل حفاوة وحرارة، لقد كانت حقاً من أفضل السيدات اللاتي تعرفت عليهن طيلة حياتي، ولطالما دعمتني في أسفاري ورحلاتي، وكانت تمنحني خبرتها في معرفة الأمور المختلفة وتقييمها، وكنت أستمع إليها بكل حرص.

التقيت هناك أيضاً عدداً من الشخصيات البارزة، وكان على رأسهم الشاعر الألماني رينك، والسيد بيندمان، والأستاذ الجامعي جرال، الذي قد رسم لي صورة شخصية، وعبرت له عن كامل امتناني وتشريفي بذلك.

كنت قد افتقدت ذلك الشعور خلال الأيام السابقة، أن تكون بين أصدقائك القدامى الذين تحبهم ويحبونك بصدق هو أغلى ما يمكن للمرء الحصول عليه، وأن يقوم الواحد منا بتقدير هؤلاء الأصدقاء ودعمهم ومد يد العون لهم متى احتاجوا ذلك هو أفضل ما يمكن للمرء فعله على الإطلاق خلال رحلته الحياتية، لقد كنت شديد الإيمان بتلك القيم وكذلك أصدقائي.

قضيت المساء برفقة أفراد العائلة الملكية الذين حرصوا على استقبالي بشكل جيد لائق، وقد قضينا وقتاً رائعاً داخل المنزل سوياً كعائلة، كان حولنا المزيد من أطفال الأمير جون، الذين مرحوا ولعبوا في جو أسري دافئ، كانت

أصغر أبناء الأمير جون فتاة، والتي شاركتني على الدوام فعاليات تجهيز شجرة عيد الميلاد، كما أنها حرصت على الاستماع إلى تلك الحكايات الخيالية التي كنت أقصها على مسامعها في ذلك الحين في جوٍ من الألفة والبساطة المحببة للنفس.

غمرتنا أشعة الشمس الدافئة خلال احتفالنا ذاك، واستمر الوضع على هذا النحو حتى جاءت تلك اللحظة التي قررنا فيها مغادرة تلك المدينة العزيزة، لقد رحلت عنها بعد أن سكنت تفاصيلها نفسي وروحي تحديداً خلال ذلك الفصل الربيعي الذي شعرت به يغرس أزهاره في أعماقي.

واصلت أسفاري ورحلاتي على هذا النحو، وفي كل مرة كنت أذهب فيها إلى مدينة ما سرعان ما كنت أقيم المزيد والمزيد من الصداقات والعلاقات، التي تنتهي بسرعة بمجرد أن أتوجه إلى محطة القطار مغادراً تلك الأرض التي قمت بزيارتها منذ أيام أو شهور.

على الرغم من أن مسألة التعرف إلى عدد جديد من الأشخاص هو أمر رائع وذو أثر إيجابي على النفس إلا أن الوداع في حد ذاته يعد أمراً قاسياً، فخلال السفر المستمر ما إن يعرف المرء أحدهم حتى يتركه ويودعه متجهاً إلى مكان آخر ليتعرف فيه على آخرين ويودعهم في نهاية المطاف.

اعتدت رؤية مشهد الوداع على الدوام، فكثيراً ما كنت أرى تلك القبعات التي يلوح بها أصحابها من بعيد، وكذلك تلك المناديل المبللة بدموع الأحبة والأصدقاء، وتلك الهدايا التذكارية التي يحضرها معه أحدهم لمنحها لشخصٍ ما قبل أن يغادر أرض البلدة.

أثناء وجودي في محطة القطار نادى عليّ أحدهم، وعندما أدرت رأسي لأعرف هويته فإذا بي أجد السيد والتر جوته، ركبنا نفس القطار وقضينا ليلة كاملة من دون أن يعرف أحدنا ذلك. ولقد التقينا مرات عدة في فيينا، هناك اكتشفت أن أبناء السيد جوته وأحفاده قد ورثوا حقاً جيناته الإبداعية الفنية في شتى المجالات والميادين.

قام الموسيقي الشهير فرانز ليست بدعوتي إلى حفلته الموسيقية في فيينا، وبدا مستحيلاً أن نتمكن من إيجاد مكانٍ ما وسط الحضور، لكننا بذلنا قصارى جهدنا للمجيء، وقد سمعته يعزف مقطوعته الموسيقية مجدداً، تلك التي تلذذت بها واستمتعت برقة أصابعه وخفة عزفه ومدى صدقه وشاعريته. كان أداؤه الفني أقرب إلى ذلك السحر القادر على احتلال مخيلة أحدهم. في تلك الأثناء كان العازف الشهير إِرنست هناك أيضاً، وعزف لي مقطوعته

الموسيقية المعروفة باسم «أسرار القلب البشري»، مازلت أتذكر كيفية إمساكه بآلة الكمان وإجهاشه في البكاء حينها.

رأيت غولبيزار اللطيف مجدداً، وكان برفقة كاستيلي الذي تم تعيينه من قبل ملك الدنمارك كفارس في دانبورغ. كان سعيداً جداً بذلك، وطلب مني أن أخبر كل الناس أن كل شخص من الدنمارك مرحب به لديه. دعاني في فصل الصيف لزيارة منزله الكبير في بلدته. كان هناك شيء راقٍ في شخصية كاستيلي، ممزوج بشيء من روح الدعابة الطبيعية الجميلة والتي تجعلك تحبه. يبدو لي كتعبير عن صورة فيينا الكاملة. أعطاني لوحة له وكتب تحتها السطور التالية المرتجلة بطريقته الخاصة:

هذه اللوحة ستحيي دائماً عينيك الجميلتين

وستذكرك بابتسامة صديقك

لأنه يا عزيزي دان

لمن دواعي سروري أن ألقاك

فأنت شخص محبوب وقدير

عرفني كاستيلي على سيدل وبورنفليد. وفي منزل السفير الدنماركي بارون فون لونستير، التقيت زيدلتس. مر بي عدد من نجوم الأدب النمساوي، تماماً كأناس عاديين يمرون بجانب برج الكنيسة. يمكنني القول إني رأيت أغلب أولئك الكتاب في مجمع كونكورديا. كان هناك تجمع للكتاب الناشئين وكان هناك أيضاً شخصيات مهمة. وفي منزل الكونت زيشني، الذي رحب بي كثيراً، رأيت أخاه من بيست، الذي كانت أعماله الرائعة في هنغاريا معروفة جداً. أعتبر هذا اللقاء القصير واحداً من أهم الأحداث في فيينا، فقد كان الشخص طبيعياً جداً وتوحي عيناه أنه يجب عليك أن تثق به.

أثناء رحيلي من درسدن سألتني ملكة ساكسونيا إن كانت بحوزتي أية رسائل أو خطابات تعارف من أجل تقديمي لمحكمة فيينا، وعندما أخبرتها أنني لا أملك أية رسائل توصية أو تقديم قامت الملكة على الفور بكتابة رسالة إلى أختها الأرشيدوقة صوفي من النمسا، ومنحتني إياها بكل كرم. قامت الملكة باستدعائي ذات مساء، واستقبلتني بكل حفاوة، وكذلك استقبلتني أرملة الإمبراطور فرانسيس، والأمير واسا، ووريثة الأرشيدوقة هيس دارمشتات.

كلما تذكرت ذلك المساء تحديداَ، كلما غمرتني السعادة والبهجة، كان يتعين عليّ حينها قراءة المزيد من قصصي الخرافية للجماهير من الحضور بصوتٍ مرتفع، وقد توجب عليّ حينها اختيار مجموعة من تلك القصص التي يتناسب مضمونها مع القصر الملكي حتى أتمكن من قراءتها داخل بلاط القصر.

قبل أن أقوم بمغادرة البلاد كان يتوجب عليّ أن أقوم بزيارة المؤلفة المثقفة السيدة فون فايسنثورن، التي كانت غادرت لتوها فراش المرض، وعلى الرغم من أنها كانت لاتزال تعاني من شدة الألم في ذلك الوقت إلا أنها أصرت على رؤيتي.

بدت السيدة فون فايسنثورن وكأنها تتأهب للجلوس على أعتاب عالم تسكنه الظلال، ففي تلك اللحظة التي صافحتني فيها ضغطت على يدي في رقة، وقالت لي إنه من المؤكد أن تلك هي آخرة مرة نرى فيها بعضنا البعض. ودعتني بتلك النظرة الأمومية التي صاحبتني خلال ذهابي إلى باب المنزل، وشعرت حينها وكأنها نظرة ثاقبة تكاد أن تخترق الروح.

بذلت قصارى جهدي للحاق بمحطة السكك الحديدية كما هي العادة حتى وصلت إلى مدينة تريستا الإيطالية، وقد بدأ القطار رحلته الخاصة في الانطلاق عبر ذلك الطريق الصخري الضيق متتبعاً تعرجات النهر، وأحياناً أتعجب كيف تكتب لنا النجاة في كل مرة بعد الانطلاق بتلك السرعة التي تتحرك بها عربات القطار من دون السقوط أو التصادم؟ وتغمرني السعادة بمجرد انتهاء تلك الرحلة الشاقة المرهقة للأعصاب.

في نهاية المطاف وجدنا مدينة تريستا الإيطالية والبحر الأدرياتيكي أمامنا، وقد ترددت أنغام اللغة الإيطالية في آذاننا، ولكن في تلك الأثناء، شعرت أن إيطاليا لم تكن يوماً أرض أحلامي التي أرغب أن أعيش فيها. قضيت ساعات قليلة أحسست فيها كأني غريب، حتى انضم إلي القنصل الدنماركي في وقتٍ لاحق، وكان برفقة قنصلي أولدنبرغ وبروسيا، والذين حرصوا على استقبالي بشكلٍ جيد للغاية.

تعرفت على عددٍ كبيرٍ من الأشخاص وكان على رأسهم الكونت أودونيل، والكونت والدشتاين، وقد كان لدي اهتمام خاص بالأخير كمواطن دنماركي، حيث إنه كان من سلالة كونفيتز أولفيلد، وكانت السيدة إلينور ابنة الملك كريستيان الرابع وسط الحضور، وكانت واحدة من أرقى وأنبل سيدات الدنمارك، وقد وضعت صور والدها على جدران الغرفة، ما أعاد لي كافة ذكريات تلك المرحلة التاريخية.

كانت هذه هي المرة الأولى التي رأيت فيها وجه السيدة إلينور أولفيلد، وقد شاهدت ابتسامتها تلك الممتزجة بالمرارة وشعرت وكأنها تود أن تقول: «أيها الشاعر! هيا غنِّ وحرره من تلك الأغلال والقيود التي لطالما جعلته يعاني! أيها الشاعر! هيا ساعده على الحصول على تلك السعادة، ذلك الرجل الذي كان مصدر سعادتي يوماً!»

في الواقع قبل أن يقوم الشاعر والكاتب المسرحي الدنماركي آدم أولينشلاغر بكتابة أنشودته التي كانت تدور حول إحدى وقائع حياة كونفيتز أولفيلد، كنت أعمل على كتابة عمل مسرحي شعري يدور حول نفس الموضوع، وكنت أفكر في كافة السبل التي سوف تمكنني من تجسيده على خشبة المسرح، لكنني خشيت لاحقاً ألا يكون هذا أمراً غير مسموح به، لذا تخليت عن الفكرة في الحال، واكتفيت فقط بكتابة قصيدة شعرية قصيرة عن حياة كونفيتز أولفيلد.

بعد أن وصلت إلى البحر الأدرياتيكي حملتني ذكرياتي إلى عصر كونفيتز أولفيلد، وأخذت أفكر ملياً في السواحل الدنماركية. لقد أعادني ذلك اللقاء الذي قمت به مع الكونت والدشتاين وحفيده إلى حياتي الشعرية، وكدت أنسى أنني سأتوجه في اليوم التالي إلى منتصف مدينة إيطاليا، هناك حيث اصطحبنا القارب البخاري بعيداً حتى وصلنا إلى أنكونا.

عم السكون الليل، وطرزت نجومه اللامعة صفحة السماء، كان النوم أمراً صعباً في تلك الأجواء الساحرة، وفي صباح اليوم التالي لوح الساحل الإيطالي من بعيد معلناً خبر اقترابه.

أدهشتني الجبال الزرقاء التي تغطيها الثلوج المتألقة، وتلك الشمس الدافئة التي أغرقتنا بشاعريتها، والخضرة الأبدية التي كست الأشجار والعشب.

قضينا مساء الليلة الماضية في مدينة تريستا الإيطالية، وها نحن الآن في مدينة أنكونا، أو كما يطلقون عليها «المدينة البابوية»، والتي هي أشبه بعالم غير محدود من السحر.

عانقتنا الطبيعة الإيطالية، وقد أنضج الربيع فاكهة الأشجار، وتفتحت الزهور، وامتلأ العشب بشروق الشمس، وانتصبت الأشجار كما لو كانت تماثيل العذارى، وأذهلتني الكرمات المتدلية من الأغصان وتلك الخضرة التي احتلت كل شيء من حولنا، وقعت عيني في غرام ذلك الثراء المتجسد في الجبال الزرقاء المتموجة والمغطاة بالثلوج البيضاء.

سافرت برفقة الكونت بار من فيينا، الذي كان إنسان رائعاً حقاَ، استمتعت فعلاً بالسفر معه، إذ قررنا أن نقوم برحلات يغلب عليها طابع المغامرة لمدة خمسة أيام. أقمنا في منزل عادي في منطقة سلاسل الأبينيني، وكذلك قضينا فترة من الوقت هناك داخل مخيمات جماعية، وقضينا ليالينا ونحن نتشارك أفكارنا.

ذهبت إلى روما مجدداً في 31 مارس لعام 1846، وكانت زيارتي تلك هي الثالثة. لطالما أحببت تلك المدينة ورغبت بشدة أن أقصدها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم بأسره، لقد شعرت بالسعادة وغمرني المرح والشكر، وأحسست حقاً أن الرب قد أنعم عليّ بكل تلك النعم التي كنت أود الحصول عليها، يمكنني القول إن شعوري بالفرح كان شبيهاً لذلك الشعور السابق بالمرارة، فكلاهما كان عميقاً جداً، وفي تلك اللحظة من الزمن توهج إيماني بشكل لا يوصف وشعرت حرفياً أنني أتكئ على كتف الرب! في الواقع ليس لدي أي عبارة أخرى يمكنني استخدامها لأصف ذلك الشعور.

عندما كشفت روما عن نفسها، قلت لنفسي إن الأمر حقاً أشبه بروح الشعر الطاغية على صاحبها، ولقد حدثت نفسي قائلاً:

«إنني قد نشأت هنا في أحضان تلك الطبيعة، وأنا ذلك الشخص شديد الولع ببقاياها العتيقة وأطلال منازلها، إنني أرى الرب يطل من بين زواياها، وتلك الوردات المدهشات اللاتي لا يعرفن سوى النمو والازدهار، أنا هنا في منزلي المصنوع من الحب، هنا حيث تدق الكنيسة أجراسها».

في الواقع لم تكن روما بالنسبة لي تماماً بنفس تلك المكانة التي كانت عليها منذ ثلاثين عاماً، لقد تغير الوضع كثيراً عن أول مرة أتيت فيها إلى تلك المدينة، وكان كل شيء قد سار في طريق الحداثة والتطور، حتى إنه لم يعد هناك بقايا وأطلال للمنازل والمباني العتيقة، وذلك العشب الباهت وكذلك تلك الشجيرات لم يعد لها وجود في تلك المنطقة.

اتسم كل شيء بالأناقة والعصرية، حتى إن حياة أولئك الناس السابقين لم يعد لها أي أثر، وقد اختفت الكثير من المظاهر الثقافية الفنية مثل الرقصات الشعبية التي كانت الفتيات يؤدينها في الشوارع والأزقة وهن يمسكن بذلك الدف الصغير، ووصلت علامات التطور أيضاً إلى خطوط السكك الحديدية، حتى إن الفلاحين كانوا في حالة من الدهشة واللاتصديق لكل ما تراه أعينهم في تلك الفترة الزمنية في مهرجان عيد الفصح، فقد رأيت عدداً هائلاً من أولئك الأهالي القادمين من منطقة وسط إيطاليا، الذين كانوا يقفون أمام

القديس بطرس بينما كان البابا يتلو صلواته ويباركهم، وحينها شعرت بأن هؤلاء الرجال ربما ينتمون إلى بعض البروتستانت الغرباء، وذلك نظراً لاختلاف المشهد الديني الآن في روما عما كان في السابق، فمنذ أقل من عشر سنوات كان الجميع ينحني ويركع أمام القديس الأكبر إذا قام بمباركتهم والدعاء لهم، يفعل الجميع ذلك من دون استثناء، بينما الآن قد اختلفت الصورة قليلاً واكتفى الجميع بالوقوف أمام القديس بدلاً من الركوع أمامه.

أعتقد أن تفسير اختلاف المشهد الديني ربما يرجع إلى اعتماد الأجيال الجديدة على التفكير المنطقي أكثر من اعتمادهم على الحالات العاطفية الروحانية.

تغير كل شيء في روما، لكنني أحببت تلك النسخة الجديدة منها، وكنت أؤمن في قرارة نفسي أنها تغيرت إلى الأفضل في مناحٍ عديدة، فقد كانت روما بالنسبة لي كما القصة المصورة، والتي لا يمل المرء من اكتشاف عجائبها سواء أكان يسكن الخيال أم الواقع.

أعترف أنني لم أكن معجباً بفن النحت خلال زيارتي الأولى إلى إيطاليا، وعلى النقيض كانت تلك اللوحات الفنية الغنية التي رأيتها في باريس تجذب انتباهي بعيدًا تمامًا عن التماثيل المنحوتة، لكن عندما ذهبت إلى إيطاليا في وقتٍ لاحق ووقفت أمام تمثال فينوس دي ميديسين شعرت حينها بذلك التعبير الفني المؤثر الذي قاله تورفالدسن يوماً، وهو أن الثلج قد ذاب تماماً من عيني، وحينها انفتح أمامي طريق آخر للفنون، والآن خلال قيامي بزيارة جديدة إلى روما أثناء توجهي إلى الفاتيكان قمت بجولاتٍ فنية عديدة، ما مكنني من رفع التماثيل المنحوتة إلى مقامٍ أعلى من مقام اللوحات الفنية.

وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت نفسي أسيراً لبعض تلك اللوحات الفنية التي كنت أراها في أماكن عدة في روما وفي أماكن أخرى في نابولي، إن الفن حقاً يتوغل عميقاً داخل الروح، وتجده يملك تلك القدرة الغريبة على حمل المرء بعيداً، إن الإنسان في رأيي يتعلم كيف يحب الطبيعة ويراها من خلال الفنون التي تنفذ مباشرةً إلى الروح وتسكنها.

يمكنني القول إن الرسام الدنماركي الشهير بريشاو كان على رأس أولئك الرسامين الذين قد أعجبتني أعمالهم الفنية بشدة، فقد قام بصناعة عملين من أهم أعماله في مجال النحت على الإطلاق، كذلك رأيت مجموعته الفنية التي حملت اسم «هيرقل وهيبيا»، والتي تحدثت عنها عدد من الصحف والمجلات الألمانية وأشادت بها.

إنها تحفة فنية حقيقية، ولقد أذهلني فعلاً مدى روعتها وسكنت خيالي لأيامٍ طويلة، وكان من أبرز أعماله الفنية، التي انتهى منها مؤخراً، عمل باسم «الصياد» والذي بدا كأهم أعماله على الإطلاق بالنسبة لي.

كانت تلك القطعة الفنية مثالاً للنموذج الفني المثالي، فقد ظهرت وكأنها انبعثت من الطبيعة ذاتها، ذلك العمل الفني الذي اشتمل في جوانبه على الحقيقة والجمال والعظمة، تلك السمات التي كانت أشبه بضمانٍ ملموس لجعل اسمه الفني ينتشر بين بلدان العالم المختلفة.

عرفته منذ أن كان صبياً، لقد ولد كلانا في نفس الجزيرة بينما كان بريشاو من مدينة صغيرة تدعى أسينز، وقد التقينا في مدينة كوبنهاجن. في الواقع لم يكن هناك أحد قادراً على التنبؤ بمستقبل بريشاو، حتى إنه شخصياً لم يكن على علم بقدر مواهبه وقدراته الفنية، لكنه كان دائماً يتحدث عن تلك الحالة المستمرة من الصراع التي يعيشها مع نفسه بشأن ما إذا كان يتعين عليه الذهاب إلى أمريكا ليصبح بربرياً همجياً أم يتوجب عليه الذهاب إلى روما حتى يصبح رساماً أو نحاتاً! ذلك الأمر الذي لم يكن قادراً على تحديده أيضاً في تلك الفترة المبكرة.

لاحقاً توقف بريشاو عن الرسم بالقلم الرصاص وانتقل إلى مرحلة صناعة الأشكال الفنية بالطين، وحينها صنع لي تمثالاً صغيراً، وكانت هذه هي أول أعماله في مجال النحت.

لم يتلق بريشاو أي دعم مالي رمزي من الأكاديمية حتى يستطيع القيام برحلاته وأسفاره حول العالم، كل ما أعرفه بخصوص تلك المسألة أنه قد تعرف لاحقاً على امرأة راقية مثقفة متفتحة العقل، وكانت رسامة أيضاً وآمنت بموهبته الفنية بشدة وحاولت أن تدفع له تكاليف رحلته وساعدته على السفر إلى إيطاليا.

عمل بريشاو في البداية في مرسم النحات الدنماركي وصانع الميداليات بيرتل تورفالدسن، ولمدة طويلة امتدت إلى حوالي سبع سنوات، كان قد عانى خلالها من أهوال وصراعات العبقرية وأغلال الرغبة، ابتسم له الحظ لأول مرة.

عندما جئت إلى روما وجدته مريضاً يتألم كما احتلت الكآبة روحه، لم يكن قادراً على تحمل قضاء تلك الأيام الصيفية في إيطاليا، وقد قال الكثير إنه لن يتعافى صحياً إلا إذا قام بزيارة الشمال حتى يتنفس ذلك الهواء البارد العليل ويستحم في مياه البحر.

احتفت الصحف والمجلات بتلك الأعمال الفنية التي قام بريشاو بصناعتها، وقد ضم مرسمه المزيد من التحف والروائع، لكنه لم يكن بمقدور الرجل أن يعيش حياته اعتماداً على ذلك الدعم المعنوي وحده، واستجابةً لهذا كان أحد الأمراء الروس قد قام بزيارته في يوم ما وعرض عليه مبلغاً مالياً مقابل شراء عمله «الصياد»، وقام شخص آخر بشراء عمل جديد في اليوم التالي.

جاءني بريشاو ممتلئاً بالسعادة والبهجة، وأخبرني بذلك، وسافر بعدها بعدة أيام قليلة برفقة زوجته الرسامة الرائعة إلى الدنمارك، حيث كان بمقدوره هناك أن يتنفس بعض الهواء العليل وأن يستعيد قوته وصحته البدنية، وعندما عاد إلى روما في الشتاء، كان صوت إزميله يدق في آذان الجميع، ذلك الصوت المبهج الذي كانت تدق معه نبضات قلبي في فرح وحماس.

التقيت كولبرج في روما، والذي كان فناناً دنماركياً أيضاً، وقد كان ذا شهرة كبيرة في الدنمارك في تلك الأثناء، فقد عرف عنه أنه كان تلميذاً نجيباً لتورفالدسن، ولقد شرفني بصناعة تمثال صغير من أجلي، والتقيت أيضاً شيلر وتأملت كل تلك الروائع الفنية المستمدة من الطبيعة التي قام برسمها على القماش.

قابلت عدداً كبيراً من أهالي روما وقضينا ليلتنا الساهرة في أحد مسارح الدمى الممتعة، وقد استمعنا لأصوات ضحكات الأطفال من حولنا، تعرفنا على عدد كبير من الفنانين الألمان والسويديين، الذين احتفلوا معي بيوم عيد ميلادي في أجواء من البهجة والدفء، كما استقبلني فرو فون جوته في روما الذي امتدح روايتي «المرتجل» في السابق، وقال إنها كانت تعبر عن أيام طفولته وذكرياته التي لا تنسى، وقد جلب لي معه باقة زهور الفسيفساء العطرية.

غمرني الشعور بالبهجة لاجتماعي مع أصدقائي الذين كانوا قد أحضروا لي بعض الهدايا والصور التذكارية التي جعلتني أشعر وكأنني عدت طفلاً من جديد، وأن حالتي الصحية والنفسية قد تحسنت.

التقيت أحد وزراء هانوفر السيد سنتر، الذي كنت أدين له بقضاء عدد من الساعات في جو من السكون والبهجة والسعادة، لقد كان رجلاً محبوباً جداً، وكان أيضًا شغوفاً بالشعر والرسم والموسيقى، وقد رأيت في منزله لأول مرة أول عمل فني مصنوع من أكاليل الزهور، وحاولت أن أتأمل تلك الأفكار الشعرية التي ألهمت مثل هذه الأعمال الفنية البارزة، وقد شاهدت كذلك لوحات فنية ومجسمات ملونة، وأعمالاً أخرى تصور مناحي حياتية متعددة وأشكالاً طبيعية مثل زهرة الزعفران الشائكة، ورأيت هناك لأول مرة في

حياتي أشكال الأرابيسك الفنية، وأوراق الشجر الخضراء والأوراق البنية الصفراء وثمار التوت الأحمر التي كانت تتدلى من الأغصان.

كان السيد سنتر أحد هؤلاء الذين يحرصون على استغلال كل دقيقة تمر في حياتهم على الدوام، كان ممن يسكنهم الشغف لرؤية كل شيء، أردت أن أمكث معه فترة أطول لكنني تضررت من آثار الريح الحارة، ولم أكن قادراً على الانسجام والتوافق مع طقس تلك البلدة، فهرعت خلال ذلك اليوم الذي تزامن مع مهرجان عيد الفصح إلى أسفل القبة المضاءة وانتقلت من مدينة تريشتيا الإيطالية إلى نابولي.

سافر برفقتي الكونت بار، وذهبنا إلى سانت لوسيا حيث كان البحر أمامنا مباشرة، ومن جانبه، كان جبل فيزوف متألقاً، لقد قضينا مساءات ممتعة في هذا المكان، وكانت ليالينا الساهرة تستمر حتى وقت متأخر على ضوء القمر.

شعرت وكأننا نجحنا في اختراق السماء وأمسكنا بنجومها اللامعة وقمنا بوضعها في جيوب معاطفنا. آه! كم كان ضوء القمر خاطفاً! لا يمكنني أن أنسى أبداً تلك الأشعة الفضية التي انعكست على صفحة البحيرة الرائقة!

أخذت أتأمل كيف استحال لون الأشعة القمرية من الفضي إلى الذهبي، وتلك المصابيح المنتشرة وقناديل قوارب الصيد السابحة في هدوء وشاعرية محببة للنفس. كان لتلك الأضواء الليلية الهادئة أثر عميق على نفسي، كنت أشعر وكأن أحدهم أطعم قلبي سحابة خير، تلك القناديل البدائية البسيطة التي كانت تزين أسطح السفن والقوارب، وكانت تجعلك تشعر وكأنك قادر على سبر أغوار مياه البحر ورؤية عالم الأسماك الموجودة في الأسفل! كنت أمشي هائماً على وجهي من فرط الجمال والدقة تحديداً عندما أرى أنوار تلك المصابيح قادمة من المحلات الصغيرة والدكاكين التي كان أصحابها يبيعون الفاكهة والأسماك.

كان قلبي فرحاً برؤية مجموعات الأطفال الذين أمسكوا بمصابيحهم الصغيرة وذهبوا في ابتهاجٍ واضح إلى كنيسة سانت لويسا، وبينما تجدهم يركضون في سعادة قد يسقط أحدهم متعثراً وإذا بك تجد جبل فيزوف في الخلفية يقف منتصباً وكأنه أحد أبطال التاريخ، أشبه ما يكون ببطل نوراني خلال وقوفه في شموخ بينما تحاصره الأدخنة المضيئة.

قمت بزيارة جزر كابري وإسكيا مرة أخرى في السابق، وتمامًا كما أثرت علي حرارة الشمس الحارقة سلباً وكذلك تلك الريح الشديدة فقد ذهبت على الفور إلى مدينة سورينتو، بلدة تاسو، هناك حيث بدا الهواء أكثر رقة وخفة بالنسبة إلي، وحيث أوراق الكرمات المتدلية في زهوٍ وشاعرية تنعش النفس. في تلك المنطقة تحديداً عكفت على كتابة هذه الأوراق المعنونة باسم «قصة حياتي الحقيقية».

لاحقاً تمت دعوتي لحضور أحد المهرجانات الدينية في نابولي، وقد قمت بذلك بالفعل، وحجزت غرفة في أحد الفنادق الموجودة في وسط المدينة بالقرب من شارع توليدو، أعجبتني الإقامة هناك واستمتعت بها بشدة، لكن تلك الحالة من الاستمتاع لم تستمر إلا في فصل الشتاء فقط، بينما في فصل الصيف كان الأمر مناقضاً جداً، فعلاوة على حرارة الشمس الحارقة التي لا يمكن احتمالها، والشوارع الضيقة المزدحمة بالناس الذين يصرخون في كل مكان، وهذا العدد الرهيب من السائقين الذين كانوا يتشاجرون مع بعضهم البعض بأصواتهم المرتفعة في كل أركان الطرق، هناك في الظلال كنت تجد أصحاب المهن الحرفية يجتمعون ويهمسون إلى بعضهم البعض في ثرثرة لا تهدأ، بينما تجد العربات تزدحم وأجراس الكنائس تدق بين الحين والآخر، وقد كان جاري المجهول يعزف موسيقاه منذ الصباح حتى المساء.

كانت كل تلك المظاهر أمراً كافياً ليفقد الواحد منا عقله. لقد أرهقتني الريح الحارة العنيفة، تلك التي ألقت بحرارتها المتوهجة فوق رأسي، ولم أعد أحتمل البقاء في سانتا لويسا، وشعرت أن الاستحمام بمياه البحر كان ليضعف جسدي بدلاً من أن يقوم بدوره في تنشيطه كما جرت العادة، لكنني كذبت شعوري وحاولت أن أتأقلم مجدداً مع الشمس، وحينها لم أتحمل حرارتها مجدداً، فقد حاصرني ذلك الهواء الساخن الثقيل، وبدت تلك البلدة أقرب إلى زجاجة هرقل المسمومة، تلك الأجواء التي أضعفت قواي بغتة وجردت روحي من البهجة.

في الواقع كنت أتوهم في السابق أنني أحد محبي الشمس، لكن من الواضح أن جسدي مرتبط كلياً بالشمال، إن ثلوجه وطقسه يعيشان في دمي وليس في ذاكرتي فحسب، لقد زادني هذا التفكير شعوراً بالمرارة والبؤس، وقد أكد لي المزيد من الأصدقاء الأجانب ذلك الأمر أيضاً، وقالوا إنهم كذلك يعانون تماماً مثلي في التأقلم مع تلك الأجواء، وكذلك أخبروني أن سكان نابولي تحديداً لا يتحملون حرارة الصيف الشديدة ويغادرون بلادهم خلال تلك الفترة من العام.

كنت لأغادر البلدة مثلهم، لكني كنت مضطراً للبقاء لعدة أيام حتى أستقبل رداً على إحدى الرسائل التي كنت قد بعثتها في وقت سابق، وعندما وصلني الرد وجدت أن هناك عائلات في نابولي تدعوني لتناول العشاء برفقتهم ولقضاء عدة أيام معهم، وفي تلك الأثناء فكرت هل حقاً بمقدوري القيام بذلك أم أني لن أستطيع الانسجام مع درجة حرارة نابولي المرتفعة تلك.

قضيت ليلة مؤرقة، لم أستطع خلالها الحصول على بعض الراحة، وعندما آن وقت الرحيل وجدت نفسي مضطراً للمكوث في غرفة ساخنة، حيث لم أتمكن من النوم ولو لدقائق معدودة، كذلك عذبتني تلك الأصوات المزعجة التي كانت تتردد في الخارج، مثل صوت أجراس الكنائس وصراخ الناس وصهيل الأحصنة وصوت ارتطام الأحجار بالأرصفة.

بناءً على تلك الظروف سالفة الذكر التي قمت بسردها للتو فكرت في تأجيل رحلتي إلى أسبانيا، لأنني كنت واثقًا بشدة أن الطقس هناك سيكون مماثلاً للطقس في إيطاليا ومدنها العديدة، وقد أخبرني الطبيب أنه لا يمكنني أبداً أن أتحمل تلك الحرارة خلال ذلك الوقت المحدد من العام.

صعدت على متن أحد القوارب البخارية المتجهة إلى مارسيليا، كان المركب ممتلئاً بالركاب إلى الحد الذي جعل كل أركانه وزواياه في غاية الازدحام، شعرت بالضيق والاختناق وحاولت أن أفتش عن مكانٍ فارغ على ظهر المركب، وعندما وجدته هرولت إلى هناك وقمت بوضع السجاد والمراتب حتى يمكنني أن أحظى ببعض الراحة وأحصل على قسطٍ من النوم، لكني عندما قمت بذلك التصرف حاول عدد كبير من ركاب السفينة القيام بتقليدي، وبالفعل فقد تسارعوا لوضع سجاداتهم ومراتبهم في زوايا المركب من أجل النوم والاسترخاء، وفجأة ازدحمت تلك الأرجاء أيضًا بصورة لا تحتمل.

هبت عاصفة شديدة من الرياح، تزايدت في اليومين الثاني والثالث، وحينها تمايلت السفينة، وقفزت من جانبٍ إلى آخر، وبدت تماماً كما لو كانت أحد التوابيت المفتوحة التي تتأرجح وسط الأمواج الهائجة.

بدا المشهد الليلي موحشاً، فقد خشينا أن تدهسنا تلك العربات التي تم شحنها وتحميلها على ظهر السفينة، وقد كان بمقدورها بالفعل أن تصطدم بنا وتسحقنا إلى أشلاء أو ربما تدفع بنا إلى أعماق البحر السحيقة. كان الوضع مخيفاً لكنني رقدت ممدداً في سكون وأخذت أتأمل السفن المزدحمة، وواصلت التفكير في الرب وصليت من أجل أحبائي.

وصلنا إلى مدينة جينوا في نهاية المطاف، وحينها قرر عدد كبير من الركاب استكمال رحلتهم عن طريق السفر البري، ورغم أنني كنت أرغب مثلهم أن أسلك نفس الطريق بعد تلك التحديات التي وقعت في الليالي السابقة إلا أنني كنت مضطراً للبقاء على ظهر المركب لأنني كنت في انتظار الحصول على خطابٍ ما، كان من المفترض أن أتسلمه في مارسيليا، لذا لم أستطع أن أفعل مثلهم وأسلك طريق ميلان المؤدي إلى سويسرا.

صعدت مرة أخرى على متن السفينة، وفي تلك الأثناء كان البحر هادئاً، وبدا الهواء منعشاً، وشعرت أن تلك الرحلة من أمتع الرحلات التي قمنا بها على امتداد السواحل السردينية.

وصلت إلى مارسيليا متجدد الروح ممتلئاً بالحياة، واستطعت أن أتنفس جيدًا، وحينها عاودني ذلك الشعور بالرغبة الجارفة لزيارة أسبانيا، وقد وضعت خطة بالفعل حتى أقوم بزيارة تلك المدينة مؤخراً، لكني سرعان ما عدلت عن ذلك الرأي عندما عانيت من حرارة الجو في تلك المدينة التي كنت موجوداً فيها، وبناءً عليه فقد قررت أن أتخلى عن فكرة الذهاب إلى أسبانيا، وشعرت وكأن يد السماء تلوح لي من بعيد مشيرة إلى ضرورة التوجه إلى مارسيليا.

وصلت السفينة إلى أرض برشلونة، وبينما كنت أتأمل المشهد كنت أفكر بأنه يمكنني القيام برحلة بحرية لستة أيام، أتمكن خلالها من زيارة جنوب فرنسا والعبو إليها عن طريق سلسلة جبال البيرينيه.

قبل أن أغادر مارسيليا منحنى الحظ الطيب فرصة التقاء واحد من أفضل أصدقائي القادمين من الشمال، وقد كان هذا الصديق العزيز هو الموسيقي الأكاديمي والملحن الشهير أولي بول، الذي جاء خصيصاً من أمريكا واستقبل بالأغنيات والمعزوفات الفنية في فرنسا، وقد كنت شاهداً على ذلك بشكلٍ شخصي، فبمجرد أن رأيت بول عن طريق المصادفة ركضت نحوه، وقد رسم تلك الابتسامة الحميمية المشرقة على وجهه وعانقني بكل تقدير وحب، وأخبرني أنه يوجد عدد هائل من المعجبين بكتاباتي وأعمالي الأدبية في أمريكا، وأن الناشرين قد قاموا بإعادة طبع أعمالي المترجمة هناك ونشرها في طبعات زهيدة الثمن.

ملأت البهجة روحي حينها وهتفت فرحاً بيني وبين نفسي أنه قد جاء ذلك اليوم الذي انتشر فيه اسمي الأدبي متجاوزاً المحيط الأكبر! لكني وبخت نفسي على ذلك بعد قليل من التفكير معتقداً بذلك أنني قد أبدو تافهاً في نظر نفسي وكذلك في نظر الآخرين، لكنني تساءلت في حيرة ودهشة:

ولكن ألا أستحق الشعور بتلك السعادة؟ سرعان ما شعرت بأنني ذلك الصبي الفلاح الفقير الذي نجح بطريقة ما في ارتداء العباءة الملكية! غمرتني السعادة والفخر في تلك اللحظة، وأخذت أتساءل مجدداً هل هذا غرور أم أنه ترجمة دقيقة لذلك المرح الذي يحتل نفسي؟

ذهب بول إلى الجزائر، وقد توجهت إلى جبال البيرينيه ثم تجاوزتها من خلال منطقة أقرب إلى المناطق الدنماركية، وتمكنت لاحقاً من الوصول إلى مدينة نيسميس، وقمت بزيارة المسرح الروماني العتيق الضخم. أعادتني ذكرياته تلك إلى إيطاليا مرة أخرى. كانت فرنسا تشهد العديد من المعالم السياحية المحددة التي تجعلها ذات طابع فريد خاص كما تمثال زيوس في أثينا.

كان الشاعر الخباز ريبول يعيش في مدينة نيسميس الفرنسية، ذلك الرجل الذي برع في كتابة مجموعة من القصائد الشعرية المدهشة، وكتب أيضاً عمله الأدبي الذي يتحدث فيه عن رحلة لامارتين إلى الشرق، الذي حقق مستوى قرائياً مرتفعاً إلى حد ما مقارنة ببقية أعماله الشعرية الأخرى، لقد توجهت إلى منزله، الذي كان يبعد خطوات قليلة عن مخبزه، وقمت بتقديم نفسي إليه، وحينها كان يضع الخبز في الفرن بشغفٍ واضح، وقد اندهشت حقاً من قيامه بذلك العمل الشاق بنفسه بعد أن أصبح شاعراً بارزاً الآن، غمرته السعادة عندما عرف من أكون، وطلب مني أن أزوره مرة أخرى حتى يتمكن حينها من إمتاعي وتسليتي كما يجب، وبالفعل فعندما ذهبت إليه مرة أخرى وجدته جالساً في غرفته الصغيرة المنمقة النظيفة، تلك التي زينتها مجموعة من الصور والكتب والزخارف الفنية، ولم تكن الأعمال قاصرة على الأدب الفرنسي وحده، بل كان هناك أيضًا ترجمات للأعمال الإغريقية الكلاسيكية، وكانت هناك أيضاً لوحة معلقة على الجدار بعنوان «احتضار الطفل»، نشرتها إحدى المجلات الفرنسية المرموقة.

كان يعرف أنني قمت بمناقشة ذلك الموضوع في إحدى قصائدي الخاصة، لكنني أخبرته أنني كتبت تلك القصيدة خلال فترة التحاقي بالمدرسة، وأنني في تلك الأثناء كنت أعرفه كصانع ولم أكن أعرفه كشاعر.

تحدث السيد ريبول عن آداب بلده، وعبر عن رغبته الجارفة في الذهاب إلى الشمال وزيارته والتعرف على نمط الحياة الفكرية الثقافية هناك، وكذلك رؤية مناظره الطبيعية الخلابة.

ودعت الرجل بكل احترام وتقدير، وكانت الدهشة تسكنني كلياً في تلك الأثناء بشأن إمكانية عمل ريبول كشاعر وخباز في آن واحد! ورغم كل ذلك فقد فضل الرجل أن يكون مخلصاً لمهنته الأصلية، وأن يحافظ على اسمه كأحد أفضل خبازي مدينة نيسميس بدلاً من أن يضيع في باريس وسط مئات الشعراء الذين يبحثون عن التفوق والتنافس فيما بينهم.

صعدت إلى عربة قطار مونبلييه المتجه إلى مدينة سيت الفرنسية، أدهشتني سرعة حركة قطارات فرنسا ومدى قدراتها الهائلة على الانطلاق، لقد كان الأمر أقرب إلى الطيران من منطقة إلى أخرى بكل جموح. ذكرني ذلك بتلك الفترة التي كنت فيها في مدينة بازل، وقد وجدت في إحدى الزوايا لوحة فنية بعنوان «رقصة الموت»، تم تدوينها بأحرف كبيرة بارزة، وكانت هناك لافتة أخرى في الجانب المقابل تحمل اسم «الطريق إلى محطة القطار»، وُجدت تلك اللوحات الفنية على أعتاب مدخل فرنسا، تلك المعالم المحددة التي حفزت عقلي على التفكير بشكلٍ خيالي، شعرت حينها أن صافرة القطار تعطيني إيحاءً بالشروع في الرقص، في الواقع لم أكن معتاداً على ذلك الأمر في القطارات الألمانية. لطالما يحب رجال السواحل البحر تماماً كما يحب رجال الجبال المناطق الجبلية.

أذهلتني تلك الموانئ البحرية الجاذبة للعين، بقيت على تواصل مستمر مع سحر صفحات مياه البحر الرائقة، ذلك المشهد الذي ذكرني بالدنمارك، وصوت خرير الماء الذي ترددت أنغامه على أذنيّ، والذي حملني بعيداً عن مدينة سيت وألقاني في أحضان الوطن، لقد شعرت بغتة أنني أمام شواطئ الدنمارك.

هل تعرف ذلك الشعور الرائع عندما تزور بلدة أجنبية ما ثم يدعوك أحدهم إلى زيارة منزله وإذا بك تجد الجميع بدءاً من سادة المنزل وأصحابه حتى الخدم يتحدثون لغتك! كان لتلك اللحظات الرائعة تأثيرها المدهش على نفسي، ما بعث إلي حالة شاعرية احتلت روحي في تلك اللحظة، لأقرر فيها قراءة مسرحية «فاوست»، التي جعلتني أسافر من مكان إلى مكان آخر لا يشبه إلا نفسه.

باغتني الشعور بأني عدت إلى الديار. الشيء الوحيد الذي أيقظني من حلم اليقظة الممتع ذاك هو أنني شعرت بغتة بارتفاع درجة الحرارة خلال هذا الصيف، أعرف أن الأجواء لم تكن تشبه نظيراتها في مدينة نابولي الإيطالية، لكن الشمس هنا أيضًا كانت مدمرة للغاية إلى هذا الحد الذي جعلها تتسبب في تلك الفترة الزمنية في موت عدد كبير من الأشخاص.

كانت الليالي أيضاً شديدة الحرارة والرطوبة، ما جعلن أعاني في التأقلم معها، وقد أخبرني المزيد من الأشخاص سابقاً أنني لن أتحمل تلك الرحلة إلى أسبانيا.

شعرت بذلك أيضاً، ولكني كنت أنظر إلى إسبانيا على أنها ثمرة رحلتي تلك، وكنت متشوقاً لرؤيتها، فقد رأيت بالفعل سلسلة جبال البيرينيه، وقد أدهشتني تلك الجبال الزرقاء الشاهقة، وذات صباح وجدت نفسي على متن إحدى السفن البخارية.

ارتفعت حرارة الشمس شيئاً فشيئاً، وبدت حارقة لا تحتمل فجأة، وقد انعكست حول تلك المسطحات المائية الهائلة المحيطة بنا، لقد بدا الأمر وكأن أشعة الشمس كانت قادرة على تغيير البحر بأكمله إلى إحدى صور الحياة الحيوانية!

في الواقع لم أر في حياتي مشهداً كهذا من قبل! كان يتعين علينا التوجه إلى قناة لانغدوك، وصعدنا أحد القوارب التي احتشدت بالركاب، كان رصيف الميناء مغطى بالصناديق والخراطيم، ووضع الركاب المظلات فوق رؤوسهم استعداداً لمواجهة تلك الموجة شديدة الحرارة.

كان من المستحيل أن نتحرك ونمضي قدماً إلى الأمام، فلم يكن هناك سياجات بالقرب من تلك الأكوام من الصناديق والناس، التي تم سحبها بواسطة ثلاثة أحصنة وجرها بالحبال الطويلة، وأسفل تلك الغرف الصغيرة ازدحم الناس واقتربوا من بعضهم البعض وجلسوا بشكلٍ متلاصق تماماً كما مجموعات الذباب المجتمعة حول كوبٍ من السكر.

سقطت إحدى النساء مغشياً عليها على ظهر السفينة نتيجة لارتفاع درجة حرارة الجو، وكذلك نتيجة لتدخين السجائر، وقد حُملت على الفور إلى مكانٍ آخر غير مأهول بالناس حتى يتم منحها فرصة لاستنشاق الهواء، ولكن لم يوجد هناك أي مصدر للهواء في تلك المنطقة البعيدة، ولم يكن هناك سوى بعض المراوح اليدوية البدائية في غرفة صغيرة، في محاولة بسيطة لجلب الهواء، وإن كانت قد حرمت الغرفة من وصول الضوء إليها في نفس الوقت. لم يكن هناك أية وجبات خفيفة يمكن تقديمها، كذلك لم يكن هناك أية زجاجات مياه، عدا مياه القناة الصفراء.

كان الصمت يخيم على المكان، وقد شعرت حينها لأول مرة بأنه أحياناً ما يكون السكون قاتلاً للنفس، ويجعلك تشعر وكأنك مجبر على الاستماع لأحدهم ممن يوجهِ لكِ عبارات تهكمية ساخرة.

حاولت أن أشق طريقي عبر هذا الزحام وتكدس الصناديق والأمتعة والمظلات، ووقفت في إحدى الزوايا أتنفس ذلك الهواء الحار وأنظر متأملاً تلك الخضرة التي كست العشب والأشجار، ونظرت إلى بوابات الفيضان المتعددة، لقد شعرت وكأني على حافة الجنون في ظل تلك الأجواء الخانقة المملة.

قمنا برحلة لم تتجاوز النصف ساعة من مدينة بيزييه الفرنسية، ثم سلكنا الطريق البري، وحينها شعرت بالدوار، وحاولت أن أبحث عن عربة نقل في تلك المنطقة، ورغم أن أصدقائي قد أخبروني في السابق أن جنوب فرنسا أشبه بقطعة من الجنة إلا أنني شعرت في تلك الأجواء الحارة المربكة أنها قطعة من الجحيم!

صعدت إلى إحدى الشاحنات الضخمة، وجلست إلى جواري عجوز ذات ثياب قذرة، وحاصرني من الجانب الآخر بحار بدت علامات السكر واضحة على وجهه، وكذلك مجموعة من الفتية الأوغاد الذين كانوا يحاولون العبث بأحذيتهم ومعاطفهم، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم من أجل وضعها متسخة والجلوس فوقها، بينما كانت أدخنة الشاحنة تحوم حولنا ما جعلني أشعر بالاختناق والإعياء الشديد، لم يكن بمقدوري احتمال هذا الوضع لوقتٍ أطول، في الواقع، لقد عانيت بشدة خلال تلك الرحلة، وما كنت أنشده حقاً حينها هو الحصول على بعض الراحة.

وصلت إلى مدينة بيربينيا الفرنسية في وقتٍ لاحق. وقد كانت الشمس أغرقت كافة الشوارع بأشعتها، لم يكن الأمر هنا أقل ضرراً من المدن الفرنسية الأخرى، ولكن ربما يمكنني القول إن الجو هنا كان أكثر سوءًا، لم يعد بمقدوري احتمال كل هذا الصخب والإزعاج أكثر من ذلك، وبينما كنت أتأمل المشهد من شرفتي الخاصة وجدت حشداً من الناس مجتمعين أمام شرفة الغرفة المجاورة لي، وشرعوا يهتفون بكل حماس وكأنهم ينادون أحدهم!

حاولت أن أسترق النظر وأعرف هوية ذلك الشخص الذي يحتفي به أولئك الناس، وعندها خرج ذلك الرجل ولوح لهم من شرفته، وعندما تأملت وجهه وجدته السيد أراغو الشهير، لقد شاهدت بنفسي كيف تردد اسمه على ألسنة الناس بكل حب وتقدير، وكيف استقبلته تلك الجماهير الغفيرة بالأغاني الرسمية احتفاءً بوجوده، ورغم سعادتي الكبيرة بتلك الأغنيات وبكل هذه الحالة العامة الاحتفالية، إلا أنني لم أكن قادراً على الاستمتاع بهذا المشهد، لأنني كنت مريضاً جداً، وشعرت بأن تلك الضجة وهذا الصخب كادا أن يخترقا أعصابي!

شعرت لأول مرة بأن تلك الألحان الموسيقية العذبة غير قادرة على تجديد روحي من فرط الإعياء، ورغم مرضي الشديد إلا أنني كنت أفكر في السفر إلى أسبانيا! فلو كان هذا حقاً أمراً مستحيلاً بالنسبة لي فكم أتمنى أن يمدني الرب بتلك القوة البدنية التي ستجعلني قادراً على الوصول إلى سويسرا على الأقل! تحمست جداً لإمكانية تنفيذ تلك الفكرة خلال رحلة العودة.

نصحني المزيد من الأشخاص حينها أن أسرع متوجهاً إلى سلسلة جبال البيرنييه وأن أحاول الاستمتاع هناك باستنشاق هواء الجبل.

رشح لي أصدقائي حمامات فيرنيت السياحية العلاجية من أجل الحصول على قسطٍ من الراحة والاسترخاء هناك، وبالفعل كان لدي خطاب توصية قمت بتقديمه لإدارة ذلك المكان، وتمكنت من قضاء عدة أشهر في تلك المنطقة، وقد كان الهواء منعشاً، وبدأ قلمي يحلق أعلى الورقة مرة أخرى، وشعرت في تلك الأثناء باستعادة قوتي، وقد تحسنت حالتي الصحية والنفسية تحسناً ملحوظاً، وقمت بالاستحمام في مياه فيرنيت لعدة أشهر، وتمكنت من إزالة كل هذا والإرهاق الذي ترك بصمته على نفسي وروحي، وبدأت تداعبني فكرة السفر إلى أسبانيا ثانية، وبينما كنت أقوم حينها بكتابة أوراق مذكراتي الحياتية الأخيرة تلك، نظرت إلى الطريق الموجود أمامي كما كان يفعل موسى من دون أن أعرف هل سأتمكن هذه المرة من العبور إلى هذا الجانب والوصول إلى تلك الأرض الجميلة؟ أم أنني لن أتمكن من ذلك حسب مشيئة الرب؟

لم تكن منطقة فيرنيت من أجمل مناطق العالم السياحية العلاجية فحسب، بل كانت أيضاً تلك المدينة التي يقصدها الزائرون من كافة بقاع الأرض طوال السنة، وليس في فصل الصيف فقط، فقد أخبرتني إدارة هذا المكان أن أحد أبرز الشخصيات الشهيرة التي تتردد عليهم هو إبراهيم باشا بن محمد علي، وقد ترددت ذكريات مواقفه على ألسنة العاملين في هذا المكان، وكانت غرفته محفوفة بالإثارة والفضول.

والآن وبينما أعيش تلك الأيام الغنية بالدفء والشاعرية والحياة في أحضان تلك الطبيعة الجبلية الآسرة والمناطق الخلابة، ها أنا أختتم تلك الصفحات التي بدأت كتابتها منذ أشهر طويلة، والتي ربما تكون أشبه بمقدمة أخرى لسنوات حياتي القادمة بمثاليتها وعيوبها وتشوهاتها.

إن قصة حياتي وليدة لحظاتي الآنية، هي تلك الأيام التي كشفت عن صورتي الحالية، إنني في غاية الامتنان والسعادة أن قصة حياتي تلك ليست من

ابتكاري، فأنا أشعر حقاَ أن الرب قد منحنى حظاَ جيداَ، ومد لي يد العون طيلة تلك الرحلة.

خلال الأيام القليلة المقبلة سأقول وداعاً لسلسلة جبال البيرينيه، وسأعود عبر سويسرا إلى أرض ألمانيا العزيزة، هناك حيث يغمرني المزيد من الفرح والمرح، وحيث ألتقي أصدقائي المقربين. هناك أيضاً حيث تحيا كتاباتي مجدها وشهرتها، وسوف نجتمع معاً حول شجرة عيد الميلاد المضيئة، وحيث يبدأ الأهالي في ترنيم أنشودة عيد الميلاد المجيد، وبعدها سوف أتمكن من العودة لاحقاً إلى الديار في الدنمارك، حيث ألتقي أحبائي، وأستمع إلى أغنيات قلوبهم الصادقة التي تصدح بكل بهجة، تلك الأغنيات التي سوف أحفظها عن ظهر قلب، هناك حيث سيبزغ نجم حظي الطيب مرة أخرى كما حدث في السابق عندما استجاب الرب لصلواتي وأدهشني بعطائه، عندما مكنني بتلك القدرة على كتابة تلك العبارات التي تمسك بيد المزيد والمزيد من العبارات الأخرى، ومن هنا تحديداً يولد ربيع الكتابة في قلبي.

فيرنيت، يوليو، 1846

هانس كريستيان أندرسون.

Table of Contents